النكتة .. وأخواتها !!

تأليف

حزين عمر

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة - ميدان حليم خلف بنك فيصل

شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

ت ٠١٠٠١٠٤١١٥ - ٠٢٢٧٨٧٧٥٧٤

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : النكتة .. وأخواتها!!

المـــــؤلف : حزين عمر

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٤٣٨٣١

الناشر : مكتبة جزيرة الورد

٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل الرئيسي - شارع

٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا . ت: ٠٢/ ٢٧٨٧٧٥٧٤

محمول : ٠١٠٠١٠٤١١٥ - ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

المبتدأ ... والخبر !!

اللهم باسمك نبتدئ .. يا من خلقت لنا الأنوف لنشم بها العطر فننتشي ، وخلقت لنا الآذان لنسمع الموسيقى فنطرب ، وشققت لنا الشفتين في وسط الوجه لنبتسم ونضحك ، ولولاهما لكانت وجوهنا مثل الكرة (الشراب) !! وغرست فينا الرجلين لنرقص بهما (على واحدة ونص) أو رقصا صعيديًا ، ومنا من لا يجيد هذا ولا ذاك فيرقص بحاجبيه إذا تبختر أمامه جسم مياس - يقولونها بالعامية (مايص) - وقد قص مقص الحائك نصف ملابسه فقفزت إلى الركبتين ، وأطار الهواء « الشقي» بعضًا منها فهجرت مواقعها .

إننا جميعًا نبتسم بسمة صافية ، أو حالمة ، أو طفولية ، أو آسرة ، أو .. صفراء - والعياذ بالله !! - والبسمة الصفراء كفصل الخريف تحفر على الشفتين ذبولاً ، وعلى الوجه شيخوخة .. وقد يقصدها صاحبها ، وقد تقصده هي فتلتصق بوجهه ، فإذا شاء أن يبتسم فلا يستطيع أن يرسم غيرها .. وحينها لا يحبه الناس ولا يقبلون عليه .. والأهم من الناس ومن الإقبال أن النساء تهرب منه . !!

اللهم فلا تجعلنا ممن تهرب النساء منه ، بل يحطنهُ من المهد إلى اللحد بغير انقطاع ولا امتناع .. فأكثر الناس محاطون بالنساء حين مولدهم ، سواء أكنَّ ممرضات أو طبيبات أم قابلاتٍ أم جاراتٍ أم بنات الجيران .. وكم من رجل محاط بالنساء أيضًا في أيامه الأخيرة بهذا العالم : يبكين عليه ، ويندبنه ، ويقلن له : يا جملي ، يا أبا زيد ، يا زناتي خليفة ، يا سلطان زمانك ، من بعدك للعيال ؟!! وحين ذِكْر هذه العبارة الأخيرة

تلف عين المرأة دائريًا ترمق كل الرجال المعزين لترى أكثرهم شبابًا ووسامةً ، وأكبرهم عمامة ، وأوسعهم جبةً وقفطانًا ، وأحدثهم مداسًا .

فإذا استقرت عيناها عليه راحت ترفع منديلها لأعلى وعلى الجانبين تلِّوح به تجاهه ، فتبدو تقاسيم الجسم « مزهرة مربربة » تحت الملابس السوداء .. ينِدُّ الصدر للأمام ، ويندفع العجز للخلف ، ثم يرق صوتها في الولولة وتنقطع حشرجته فيبدو منثالاً منسابًا حاملاً كل عبق الأنوثة وسحرها ،، وإذا لم يكن الرجل الذي رمقته عين زوجة الراحل من ثابتي الأقدام في مثل هذه المواقف ، ومن الخبراء في المعازي والمآتم سقط في هواها ، وبعد شهر ذاق لظاها ، وبعد عام كان هو عريس المأتم !!

وقد كان لأحد المتوفين صديق صدوق ، ما إن علم بوفاته حتى قدم إلى زوجته مواسيًا ، مؤازرًا في المحنة ، عارضًا مساعداته بغير حدود .. ثم قال للزوجة : أريد أن أعرف أحب الأشياء وأثمنها لدى المرحوم لأحتفظ بها على سبيل الذكرى .

فقالت له : حقًا لقد كنت أنا أحب الأشياء لديه .!!

إننا نعوذ بالله أن نكون ممن يتكأكأ عليهم النسوان وقت موتهم ، لكننا نريد أن يتكأكأن علينا ـ لابد من التكؤكؤ هذا !! ـ في شبابنا وكهولتنا .. نريدهن يعلقن في سراويلنا ، وكرافتاتنا ، وعلى أزرار قمصاننا .. فهن النعمة ، والرحمة ، والبر ، والوفاء ، والضحكة العالية .. ما دمنا لم نتزوجهن .!!

***

وليس غريبًا ، ولا مبالغًا فيه أن الضحكة الحلوة تَلُمُّ النسوان ، ومن لا يضحك لا يُحِبُّ ، ولا يحَبُّ ، بل وقد يطعن في انتمائه لجنسه من الرجال ، فقد قال مفتي البصرة وأحد رجال الحديث فيها : حماد بن سَلمَة (توفي ١٦٧هـ) قال : « لا يحب

الملح إلا ذكران الرجال ، ولا يكرهها إلا مؤنثوهم »[1].

وما دام هناك علاقة ـ كما قال مولانا ابن سلمة ـ بين الذكورة والضحك فيمكننا معرفة سر تكدس البشر في مصر الضاحكة ـ رغم النكبات ! ـ وسبب كل هذه الأزمة السكانية ، والتهافت على المأكل والمشرب والملبس والمسكن هو أننا نضحك ، فلا نموت إلا بعد أن نماطل عزرائيل كثيرًا وننتج ثمرات بشرية وفيرة .. ولن تنجح كل وسائل الدولة في قطع دابرنا ، ووقف تناسلنا إلا إذا استوردت ـ من أمريكا ـ مليون طن من خيوط الجراحة وسدت بها « أفواه » المصريين الموجودين حاليًا والجيل القادم .. أما الجيل الثالث فسوف يكون « مكتومًا » بالوراثة .!!

وعلى الرغم مما يقال بأن بعض الحيوانات تضحك ، فإن مما يوصف به الإنسان أنه حيوان ضاحك .. وعلى قدر إنسانيته يضحك ، وعلى قدر امتداد جذور حضارته يبتسم .. والإنسان المصري العربي قابع في أرضه منذ ملايين السنين ، وصانع للحضارة منذ آلاف السنين . وقد مر عليه الظالمون كثيرًا وذهبوا ، وهو باقٍ ، ودنس دُوْرَه وأقداسه المحتلون كثيرًا ، وهو باقٍ بكل حدوده شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ، وبنيله ، ومواويله ، ونخيله ، وأهرامه ، ومساجده ، ومعابده ، وقلاعه .. فعلامَ يبكي ؟!! ولم لا يضحك من الأحداث الجليلة ، وعلى الظالمين الكبار الصغار ، ومن الفَقر ؟!

لذا فقد خلَّف لنا المصري العربي ـ وقبل هذا ليس متيسرًا لنا معرفته باستثناء نماذج فرعونية قليلة جدًا تحدث عنها د . شوقي ضيف في كتابه (الفكاهة في مصر) الصادر عن دار المعارف ـ خلَّف لنا رصيدًا عظيمًا من أنواع الضحك والمضحكات :

---

(١) الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجَوْزي . أخبار الظُّراف والمتماجنين ـ ط.دار الفكر اللبناني ـ شرح عبد الأمير مهنا ـ عام ١٩٩٠ ـ ص٥٢ .

كالنكتة، والفكاهة، والطرفة، والمُلْحَة، والدعابة، والنادرة، والقافية، و«المقلب»، والزجل، والشعر الحلمنتيشي، والقصص الضاحك.

ومنذ بدأت البسمة العربية في مصر منذ الرقعمع وابن مكنسة وابن دانيال وابن سودون وسلسلة من خفة الظل تسري من جيل لجيل على مدى خمسة قرون لم تنقطع ونلمح فيها دررًا فكاهية من سائر طبقات المجتمع: أعلاه وأدناه .. أفقره وأثراه .. من السياسي والأديب إلى الجزار والممثل !! نذكر د. بكير الحكيم، رشاد «بك» القاضي، محمد «بك» البابلي، حافظ «بك» إبراهيم، ساويرس «بك» المويلحي، دبشة الجزار، بديع خيري، نجيب الريحاني، إبراهيم ناجي، إبراهيم عبد القادر المازني، عبد الحميد الديب، إمام العبد، على الكسار، كامل الشناوي، مأمون الشناوي، أحمد رجب، عادل إمام، محمد مستجاب، يوسف معاطي، ومن آلت إليه زعامة الإضحاك في مصر هذه الأيام: محمود السعدني - الذي رحل أخيرًا - ثم نخبة عظيمة من فن عظيم هو الكاريكاتير.

ولكل من هؤلاء المضحكين العظام طعمه، ولونه، وثقافته، وموهبته .. وجميعهم مشتركون في حدة الذكاء، وفي السخط على المجتمع، وفي رفع يد التغيير بالكلمة، فكأن بنادقهم ومدافعهم مجرد «دبابيس» يغرسونها في جسد الظلم بغير ملل، حتى يأتي يوم يتخرَّق جلده جميعًا، وينزف دمه، ويسقط .. وحينها لن يتوقفوا عن مهمتهم الاختيارية، بل سينتقلون إلى أمراض أخرى يعالجونها. وهذا الانتقال ليس على سبيل التنبؤ بل هو واقع فعلاً من خلال معايشتنا لفن الضحك لدى عدة شعوب: كالصين، وإيطاليا، وإنجلترا .. فالمضحكات هناك تركز على عيوب إنسانية عامة كالطمع والغباء والكذب والجهل .. أما السخرية العربية - وما جرى مجراها - فيغلب عليها الطابع السياسي، مع أنها لا تغفل المضحكات الأخرى

.. إن من المتيسر للباحثين أن يدركوا طبيعة شعب ما من خلال ما يضحكه .

***

هذا هو « مبتدأ » لقائنا « مع النكتة وأخواتها » .. وقد قلت : (الضاحكين) ولم أقل (المضحكين) لأنهم يضحكون الناس ويضحكون معهم وعليهم . وهم في هذا كمثل « الذين يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتلون ويُقتلون » .. فمن هؤلاء المضحكين من مات من « ضحك الناس عليه » مثلَ عبد الحميد الديب ومجدي فهمي . ولكني لست ممن « يقتلون ويُقتلون » وإن كنت أحرض على هذا بناري الكلام شعرًا ونثرًا ، وفي الأفراد والجماعات . فآمر الناس بالقتال وأنسى نفسي .. مقتديًا في هذا بإمامنا الصحابي الجليل حسان بن ثابت الذي قال :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن في الضحى   وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نجدةٍ دَمَا

وحين خرج المسلمون يقاتلون الأعداء في غزوة الخندق تركوه لحماية النساء في أحد الحصون داخل المدينة لعجزه عن المجالدة ..

وحين طاف أحد اليهود بحصن النساء ليتكشف ثغرة ينفذ منها وقومه إليهن ، ناشدت النسوة « حامي الحمى » حسان بن ثابت أن يقتله قبل أن يفتك بهن ، فخاف ورفض التعرض له .. فقامت النساء إلى اليهودي بأعمدة الحديد والخشب وقتلنه ، وحسان يتفرج عليهن محييًا شجاعتهن ، مع أن القتل لم يكن بأسياف حسان التي تقطر « من نجدةٍ دما » .. وقبله قال قدوتنا النابغة الذبياني :

هلاَّ سألتِ بني ذبيان عن نسبي   يومَ الطِّعان إذا ما احمرت الحدقُ

وحين شم رائحة الاعتداء عليه من النعمان بن المنذر هرب بجلده ، وظل قابعًا في صحرائه مخاطبًا السماء والأرض والرمل لتطلب من النعمان الصفح عنه .!!

وبعده قال شيخنا بشار بن برد :

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً   هتكنا حجابَ الشمس أو قطرت دما

فهل رأيت يا بشار هذه الغضبة ، وحجاب الشمس ، والدم الذي يقطر ؟! ثم ما لك أنت ومضر ، ولست سوى مولى « غلبان » لا لك (في الثور ولا في الطحين) !!

وفي سلسلة أئمتنا العظماء المقاتلين الشجعان ينفرد بطلنا المتنبي حين نجح في أن يجعل بني ضبَّة « يقتلونه » !! وهو الذي قال :

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني   والسيفُ والرمحُ والقِرْطاسُ والقلمُ

وحين بدت له بنو ضبة في الطريق طار بحصانه فأدركوه ليعاقبوه على قوله :

ما أنصفَ القومُ ضَبَّهْ   وأُمَّهُ الطُّرْطبَّهْ

كل الإيور سهامٌ   وعجامُ أمكَ جعبهْ

حينها تأكد له - ولنا - أن هذه الأشياء التي قال إنها تعرفه لم تكن تعرفه ولا يعرفها .!!

فليكتف أمثالنا أن يحاربوا بجيوش من ألفاظ ، ومدافع من العبارات من أنواع : الحلمنتيشي ، والقافية .. وكفى الله الضاحكين شر النكد !

هذا هو مبتدأ « النكتة وأخواتها » أما « الخبر » فسوف تراه فيما هو آتٍ .!!

حزين عمر

- القاهرة ١٩٩٣

- القاهرة ٢٠١٠

الدعابة ....

إذا انطلقت العبارة ـ نثرًا أو شعرًا ـ من الفم بعد معابثة من آخرين ، فأضحكتهم ، ولم تجرحهم ، أو تطعن في خلقهم أو خلقتهم فإن هذه العبارات تسمى « دعابة » وهي تخرج من الفم كطلقة دخان غير متوقعة للمستمع . وربما يقصدها قائلها ويدبر لها تدبيرًا ، فقد ضاع حمار لجحا فدار في الأسواق يسأل عنه ويصيح قائلاً : ضاع الحمار والحمد لله . وحين سألوه : أتحمد الله على ضياع حمارك ؟!

قال : نعم .. لو أني كنت أركبه لضعت معه ، وما وجدت نفسي ولا أحدًا ينادي عليّ وعليه .!!

وهذه الدعابة من جحا أخذها ، وأضاف إليها بعض البهارات والتحابيش اللغوية ضاحك صعيدي قديم ـ منذ ٥٠٠ سنة ـ اسمه ابن سودون المصري .. إذ كتب إلى أبيه في الصعيد رسالة يقول فيها : يا والدنا العزيز أعرفك أنني نجوت من خطر خطير وشر مستطير : فقد غسلت الجبة ونشرتها على حبل الغسيل . كانت الليلة قمرها غائب وبردها أثيل ، ولذا تعكر الجو فجأة وهبت ريح عاتية من جهة الشمال آتية ، وإذا بالجبة تطير ، وعلى الأرض تستقر ، فو الله يا والدي لو كنت أنا في الجبة ساعة هذا الحادث الخطير لكنت مت في الحال ، وأصبحت جثتي كالفطير .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير [1] .

فهذا الصعيدي القديم يريد أن يستغفلنا ،وقد « لطش » عنصر الإضحاك في

---

(١) محمود السعدني : الظرفاء ـ كتاب اليوم ـ (ص١٨٢، ١٨٣) .

دعابة جحا ، وهو أنه كان سيضيع مع الحمار لو كان راكبًا إياه وقت ضياعه ، فجعلها هو سقوطه وتهشمه مع الجبة لو كان يلبسها وقت طيرانها .. لكنه أضاف إليها بعدًا دراميا بنسج قصة حول المرتكز ، ووصف الجو وتضخيم الحادث ، في عبارات مقطعة موسيقيًا مسجوعة أحيانا . كما أنه ـ تأثرًا بجحا ـ جلب عبارة : ولا حول ولا قوة إلا بالله .. كما قال جحا : « والحمد لله » .

وقد تجيء الدعابة المقصودة شعرًا سهلاً يفهمه المثقف وغير المثقف ، ويعوِّل على التعبيرات والألفاظ الشائعة كقول حافظ إبراهيم لجار له اسمه حامد ، يوم زفافه :

أحامدُ كيف تنساني وبيني ... وبينك يا أخي صلةُ الجوارِ

أيشبع مصطفى الخولي وأبقى ... أعالج جوعتي في كسر داري

وبيتي فارغ لا شيء فيه ... سواي ، وإنني في البيت عاري

ومالي جزمةٌ سوداء حتى ... أوافيكم على قرب المزارِ

فإنْ لم تبعثنَّ إليَّ حالاً ... بمائدةٍ على مِتن البخار

تغطيها من الحلوى صنوفٌ ... ومن حملٍ تتبل بالبهارِ

فإني شاعر يخشى لساني ... وسوف أُريك عاقبة احتقاري

وفعلاً خشي حامد عاقبة احتقاره، فأرسل إليه لفافة فخمة مغطاة بورق السوليفان والأربطة الأنيقة ، ففرح الشاعر بها ، وأحس بقيمة ما يكتب من درر تستنزل عليه اللحم ساخنًا « على متن البخار » .. وغسل حافظ يديه ، وأخذ يفتح اللفافة ، ومن داخلها لفافة من لفافة ، ولعابه يسيل ، وتتسع فتحتا منخاره ، حتى فتح آخر لفافة فوجد فردة حذاء بالية ، ثمنًا لما كتب من شعر تهديدي . !!

لكن حظ عبد الحميد الديب في « الكسب » بشعره كان خيرًا من حظ حافظ .. فقد « نجح » الديب في الارتقاء بنفسه إلى مصاف الود والصداقة مع حلاق في حي

الحسين قريب من مقهى الفيشاوي اسمه الحاج محمد شعبان .. فكان الحاج يحلق للشاعر بغير مقابل ، وينفحه من حين لآخر قرشًا أو قرشين استجلابًا لمدحه ، وعلى سبيل الدعاية لفنه في الحلاقة .. وكان الديب يجلس على المقهى بحيث يسمعه الحاج شعبان و « ينهال » عليه مديحًا ، وحينها « يهجم » عليه الحلاق ويجذبه من « قفاه » ليحلق له « ببلاش » مكافأة لمديحه . في هذا الحلاق قال الديب :

أخي ، وجاري وحلاقي ، وديَّاني — وممسكي إن أمال الدهر ميزاني

مقص حالقٌ للشيب يمحقُهُ — وحالقٌ بالحديث الغثِّ أحزاني

مقصه قصص صدق وراوية — كم قصَّ شعري على صحبي وخلاَّني

مرآته زينةٌ للعين ساحرةٌ — موساه أفضل من « موسى بن عمران »

وحين اعترض عليهم أحدهم لتشبيهه الموسى بالنبي ، قال الديب : إنه يقصد الأسطي موسى بن عمران نقيب حلاقي مصر في عهد الحملة الفرنسية ، والذي كان بطلا مناضلاً ، وذكر الجبرتي - حسب قول الديب - أنه حلق بموساه مائة رقبة فرنسية في يوم واحد . !![1].

وهكذا « ارتقي » الشعر على يد عبد الحميد الديب من مدح الملوك إلى مدح الحلاقين ، و « ارتفع » ثمن القصيدة من مائة ناقة وعشرة آلاف دينار وعشر جوارٍ بيضٍ إلى قرش وحلقة . !! وهو ثمن أغلى كثيرا من ثمن قصيدة حافظ إبراهيم . !!

وإذا كان الديب قد كسب موسى الحاج شعبان بقصائده فإنه فشل في كسب صمت صاحب الدار التي يسكن فيها عن مطالبته بدفع الإيجار . قال :

ثمانون قرشًا أهلكتني ، كأنها — ثمانون ذنبًا في سجلِّ عذابي

---

(١) انظر : الشاعر عبد الحميد الديب .. حياته وفنه - للدكتور عبد الرحمن عثمان - ط. دار المعارف ، عام ١٩٦٨ (ص١٢٥، ١٢٦) .

طويتُ لها الدنيا سؤالاً وكُدْيَةً — فما ظفرتْ نفسي بردِّ جوابِ

لعنتَ كراءَ البيت ، كم ذا أهنتني — وأذللتَ كبْري بين كل رحابِ

لأجلك إما أن أبيع كرامتي — وإما أفديها ببيع ثيابي

ففي كل شهرٍ لي عُوَاءٌ بموقفٍ — يباعد عني أسرتي وصحابي

وطول ليالي الشهر يهتاج مضجعي — مخافة ربِّ البيت يطرق بابي

يطالبني في غلظة فأجيبه — إجابة من يرجو يدا ويحابي

ألا سكن ملكي ، ولو بجهنم — وأكْفَى من الأيام شرَّ حسابي

وبعد هذا الشعر الذي لم يحصل ثمن ما كتب به من حبر ، تحققت رغبة الديب في سكن ملكه لا ينازعه فيه منازع ، فلحق بامرئ القيس وآله .!!

ويحمل على الدعابة المقصودة هذا البيت الذي كتبه الديب :

بالأمس كنتُ مشردًا أهليًا — واليوم صرتُ مشردًا رسميًا

حين وظَّفه عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية ـ حينذاك ـ في الوزارة ، وقد أخذ الشاعر يباهي رفاقه ـ الذين ذاق ذل الاستجداء منهم ـ بأنه أصبح موظفًا حكوميًا ورجلاً مسؤولاً في الدولة . ولم تطل « نفخته » كثيرًا : فقد صدم صدمتان : الأولى حين ذهب إلى الصراف ، ووقف في طوابير الموظفين آخر الشهر ، وبعد تزاحم وانتظار كان مرتبه الشهري حوالي أربعة جنيهات .!!

وجاءت الصدمة الثانية له بعد أن بحث لنفسه عن مكتب ومقعد ليستقبل محبيه وسائر المواطنين « الغلابة » الذين سوف يقصدون « سيادته » لقضاء حوائجهم ، فإذا به لا يرى لنفسه مكتبًا ، ولا حتى كرسيًا يجلس عليه !!

ومما يدخل في إطار الدعابة المقصودة ما كتبه القاسم بن عبيد الله وزير المعتصم

بالله إلى طبيبه أبي يعقوب بن إسحاق بن حنين حين أصيب بإسهال .. قال الوزير :

أَبِنْ لي كيف أمسيتَ ... وما كان من الحالِ
وكَم سارت بكَ الناقةُ ... نحو المنزل الخالي

والمنزل الخالي .. هو دار الخلاء قديمًا ، ودورة المياه حديثًا !! فرد عليه الطبيب :

كتبتُ إليك والنعلان ما إنْ ... أُقلهما من المشي العنيفِ
فإنْ رُقْتَ الجوابَ إلى فاكتبْ ... عَلى العنوان : يوصل في الكنيف

و(الكنيف) هو أيضًا دار الخلاء ، وما زالت هذه اللفظة مستخدمة في أحياء القاهرة الشعبية . وربما كانت نازحة من (الكنف) فنقول :فلانة تعيش في كنف فلان . أي في حمايته وتحت رايته وسقفه .. وأخذ هذا المعنى لدار الخلاء ، لما يحسه الإنسان من انفراد وتستر وهو فيه . وما يحسه من راحة وتنفس عميق إثر الخروج منه !!

ومع أن عنوان إسحاق بن حنين هو الكنيف ـ لإقامته الدائمة فيه نتيجة الإسهال ـ فإنه عنوان أكثر واقعية وصدقًا من عنوان المتشاعر الذي يقول : « وفي عينيك عنواني » !! وهذا يعني أن عينها مثل ميدان التحرير ، بما فيه من ضجيج وبنزين ، أو كالشارع ، وما يحوي من مطبات وأكوام قمامة ونساء سمينات ـ وقانا الله شرهن .!!

ومن الناس من لا يتخذ بيته ولا حَمَّامه عنوانًا لمقامه ، بل يتخذ دار حميه ـ أو حماه بالعامية ـ فيحمل زوجته من كل عام تسعة أشهر من داره إلى دار أبيها بمجرد أن تحمل ، لتلد عند أبيها .. وقد اعتاد واحد من الأزواج السمجين هذه العادة ، ووالد زوجته رجل رقيق الحال ، عجوز ، فمل هذا العبء السنوي ، واشتكى لأحد الشعراء ، فكتب له بيتين من الشعر ليسلمهما إلى صهره .. قال فيهما :

أيا« حلمي » رعاك الله دومًا ومَـنَّ عليـك يـا ولـدي برفـد
أفي عقـد الـزواج قـد اتفقنـا عليك الشحن والتفريغ عندي ؟! [١]

ومن المؤكد أن الزوجة غضبت لزوجها من أبيها .. فليس أدعى للفرح والرضا عندها من أن يكون زوجها جادًا حاميًا لَهِجًا في (الشحن) . وليس مهمًا أين يكون التفريغ .!! و« قضية الشحن » هذه ربما غيرت موقف المرأة من النقيض إلى النقيض ، وجعلتها تقلب الحقائق وتلغي التاريخ !! وقد تغير جنسيتها وانتماءها كله بدافع هذه القضية !! فقد شخص يومًا « الحكم بن عَبْدل إلى عمر بن هبيرة والى واسط فشكا إليه الضيق ، فوهب له جارية من جواريه ، فواثبها ليلة صارت إليه ، فنكحها تسعة أو عشرة طلقًا واحدًا ، فلما أصبحت قالت له : جُعلت فداك .. من أي الناس أنت ؟! قَال : امرؤ من أهل الشام ، قالت : بهذا العمل غلبتم أهل العراق في حربكم » !! [٢]

وقد تخرج الدعابة غير مقصودة ولا متعمدة .. إنما هي نتيجة تساؤل أو موقف ما .. فقد كان سيبويه المصري ـ الشاعر الهجَّاء النحوي في عهد كافور الإخشيد ـ يمر بالأسواق هاجيًا خصومه ، ومن لا يستسيغهم من الناس بأفحش لفظ وأحط صنعة . وفي كل تجواله يركب أتانًا بيضاء فخمة .. فسألوه : لماذا تركب حمارة ولا تركب حمارًا ؟! فقال : لأن عندي في البيت حمارة تركبني .!!

فالرجل الذي كان يهزم الرجال دائمًا بمقذع اللفظ ، وفاحش الهجاء ، كانت تركبه امرأة ، وتهز رجليها !! فشتمه لكل البشر لم يكن إلا تعويضًا عن المهانة المنزلية التي يعيشها تحت يد زوجته .. ومن هذه المهانة أصبح سيبويه المصري أعظم هجَّاءٍ في عصره . شعرًا ونثرًا ..

وهكذا تتحقق مقولة : وراء كل رجل عظيم امرأة .. تطارده بالقبقاب .!!

---

(١) محمد كامل عبد الصمد : ظرفاء ولكن حكماء ـ ط. الدار المصرية اللبنانية ، عام ١٩٩٢ ، ص٢٧ .

(٢) عبد الأمير علي مهنا : طرائف من التراث العربي ـ ط. دار الفكر اللبناني ، عام ١٩٩٢ ، ص٢٧٦ .

المقالب....

من أكثر المضحكات شيوعًا ما استقر العامة على تسميته (مقالب) .. وربما نزح هذا المسمى من «قلب الحقائق أو العبارات أو الأحداث يقلبها قلبًا» لتتلاءم مع هدف يرغب فيه صاحب «المقلب» وينال منه منفعة أو يدفع ضرًا، أو لمجرد الهزؤ من شخص آخر .. وأصحاب المقالب من الممتازين عقلاً وتدبيرًا بحيث يحكمون خطة تنطلي على الآخرين، ولا يجدون فيها مطعنًا فيقتنعون بها، وتبدو فيها المفاجأة عنصرًا مهمًا من عناصر نجاحها .. ويغلب على هذه المقالب أن تكون مدبرة بإحكام، وقليلاً ما تأتي بغير تدبير ولا تخطيط مسبق، إنما تقود إليها الحاجة والفطرة ويساعدها الذكاء من ناحية صاحب المقلب، والبلادة أو سوء التقدير من الطرف الآخر.

وليست المقالب كلها قائمة على إلحاق الضرر بالمستخف به، بل قد تفيد، وقد تحل بالهزؤ ما يعجز الجد عن حله .. وهي ليست مقصورة على البشر، بل هناك حيوانات تنجح في هذا النوع من فن السلوك، وتضحك على البشر أنفسهم!!.

وقديمًا قال عثمان الوراق: رأيت العتَّابي الشاعر العباسي يأكل على قارعة الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك! أما تستحي من الناس ؟! فقال لي: أرأيت لو كنا في دار فيها بقر، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال الوراق: لا. قال العتَّابي: فاصبر -حتى أعلمك أنهم بقر. فقام فوعظ وقصَّ القصص ودعا، حتى كثر الزحام عليه. وأسرهم بخطبته، ثم قال لهم: وروي لنا غير واحد، أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار!! فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة

أنفه ، ويقدره أيبلغها أم لا . فلما تفرقوا ، قال العتابي : أَلَمْ أخبرك أنهم بقر؟! [1].

فالعتابي اعتمد على قدرته البلاغية لينال استحسان الناس وثقتهم ، واتخذ الدين مدخلاً إلى نفوسهم حتى يسلموا له بالصدق لتسهل له خديعتهم - ويا طالما وجه الدين هذه الوجهة - ثم دس لهم ما شاء أن يدسه من سخرية وهزؤ ، مستغلاً - من ناحية ثانية - بساطتهم القريبة إلى البلاهة .

وليس عامة الناس فقط يقعون في هذا النوع من الاستخفاف ، بل ربما يسقط فيه خاصتهم أيضًا . فها هو ذا الشاعر الماجن مطيع بن إياس يعبث بصديقه وزميل مجونه حماد عَجْرَد ، حين طلب إليه حماد أن يصحبه ليريه صديقته (ظبية الوادي) .. فلما رآها مطيع أعجبه جمالها الفتان ، وأنوثتها الآسرة ، فراح يبادلها النظرات ، وتحركت الحواجب والرموش ، مع خفق القلب ، وارتعاش الفؤاد .. فأفسد على حماد مجلسه وصديقته .. وغضب حماد وأخذ يهجوه ويسبه ويشكوه إلى ثلة الأصدقاء .. لكن نية هؤلاء الأصدقاء لم تكن مخلصة لحماد فطلبوا إلى مطيع أن يرد هجاء بهجاءٍ ، وأن يتغزل في صديقة حماد.. ثم أخذوا ما كتب مطيع ونسخوه في رقاع ، ووزعوها على الطرق لتقع في يد الناس . ثم دفعوا بها إلى المغني (حكم الوادي) فغنى بها .. ولم يبق بالكوفة سقاء ولا طحَّان ولا مكاريٌّ - كما يقولون - إلا ردد غناء حكم الوادي فانقطعت العلاقة بين حماد وصديقته .

وبعد مدة - إمعانًا في هذا العبث - طلب مطيع إلى حماد أن يريه صديقته هو أيضًا بعد أن أحكم مطيع وصديقته التدبير للسخرية من حماد .. وحين زارها لم يكن يستقر بهما المجلس حتى اندفعت المرأة في الغناء ، وكان أول ما غنت تغزل مطيع بصديقة

(١) طرائف من التراث العربي ، ص ٢٥٠.

حماد[1].. فثار حماد وكانت واقعة شبع فيها الصديقان بصقًا ولطمًا وشلاليت !! ووقفت صديقة مطيع ترقص على أنغام الصفعات!!

وإذا كانت حكاية مطيع وحماد قد انتهت بالتعادل بعشرة أهداف ـ أقصد لطمات ـ لكل منهما ثم بالتصالح ، ورشف الكؤوس .. فإن حكاية أخرى كانت مباراة من طرف واحد ، وسقط فيها الضحية صريع اللكمات العسكرية العنيفة ، واتخذ لنفسه ـ أو اتخذوا له ـ سريرًا في مستشفى قصر العيني لمدة عشرة أيام !!

كان الضحية هنا تاجر أخشاب اسمه عبد القادر جودة ، منحته الطبيعة من الغباء والسماجة ما جعله يطلب من السياسي حفني محمود أكبر صاحب مقالب في تاريخ مصر الحديثة أن يتوسط له لدى (القائد العام للجيش المصري) .. لا ليلتحق ابنه بالكلية الحربية حينذاك . ولا ليساعد في الإفراج عن معتقل سياسي كبير ، بل ليحصل لابن أخته (الجندي المجند) على أجازة من الجيش !! وهي مسألة يستطيعها (صول) أو (شاويش) ..! وظل تاجر الخشب يلاحق حفني محمود بهذا المطلب التافه من تلك الشخصية الكبيرة حتى زهق منه حفني فأمسك بسماعة التليفون ليلاً في وقت متأخر ، وجرت هذه المكالمة :

- حيدر باشا؟

- أيوه .. مين؟!

- أنا عبد القادر جودة ، تاجر الخشب .

- أي خدمة يا فندم؟!

- أيوه .. عندكم الواد ابن أختي في سلاح المشاة .. وعاوزك تديله أجازة . وقد

---

(١) د. يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة .. إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ، ص٦٢٨، ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، عام ١٩٦٨.

صدمت تفاهة هذا المطلب ، في هذا التوقيت ، من واحد عديم اللون والطعم والرائحة والقيمة ، صدمت القائد العام للقوات المسلحة . فسأل المتحدث :

– حضرتك عاوز مين ؟!

– حيدر باشا .. بتاع الجيش .

– وعاوزه عشان الحكاية دي ؟!

– آه .. إيه يعني .. هو حيدر باشا كبير ؟!

– لا .. أبدًا لا كبير ولا حاجة .. بس اقفل السكة .

– اقفل السكة .. يا ابن ..

وعلى مدى ثلاثة أيام بعد منتصف الليل يجري حفني محمود هذه المكالمة مقلدًا صوت التاجر ثم طلب بعدها من التاجر أن يذهب إلى حيدر باشا في مكتبه بقصر النيل .. فسوف يحتفي به كل الحفاوة ، ويمنح قريبه أجازة طويلة .. وأعطى الموعد للتاجر في توقيت لا يجد فيه قائد الجيش وقتًا حتى للتنفس : في الساعة الواحدة ظهرًا .

وارتدى عبد القادر أفخم ثيابه بما يليق بمقابلة شخصية كحيدر باشا .. في الواحدة ولج مكتبه مستئذنًا من السكرتاريا بالدخول . وحين نقلت السكرتارية اسم عبد القادر جودة إلى حيدر وهو منغمس في العمل ، هب فجأة وعلى رأسه مارد من الجن .. وتلقف تاجر الخشب ، ولم يتركه إلا كومة آدمية نقلوها إلى المستشفى!!

والأبشع من هذه العلقة التي شرف بها عبد القادر من حيدر علقة شرف بها أحد المؤلفين من عشرة خدم سودٍ تلقفوه بالمقشات والأحذية بتدبير من حفني محمود أيضًا .. فقد طلب من أحد المؤلفين أن يقدمه إلى أحد الأمراء ـ حينذاك ـ المعروفين

بعدائهم الشديد للأحرار الدستوريين ـ الذين ينتمي لهم حفني محمود ـ وكانت غاية المؤلف أن ينشر له الأمير كتابًا في الهجوم على حزب الأحرار كان قد ألفه .. ولم يرفض حفني ، ولم يحتد على المؤلف ، بل أعطاه رقم تليفون الأمير وقال له : اتصل به وسوف يرحب .. وفعلاً رحب الأمير بالمؤلف وكتابه بمجرد أن تلقى مكالمته التليفونية . وطلب منه الحضور إليه فورًا .. وبعد هذه المكالمة اتصل حفني محمود بالأمير :

– آلو .. أفندينا .

– أيوه .. مين ؟

– أنا المؤلف اللي كلمت سموك من دقيقة .

– عايز إيه تاني . أنا قلت لك : تعال .

– بس فيه حاجة واحدة عاوز أقولها لك .

– إيه هي .

– هي : إنك أنت حمار ، ومغفَّل ، وتتمتع بأخلاق عربجية بهيمية مش أخلاق أمراء .. وأنا جي لك دلوقت علشان أقولك الكلام ده في وشك ، وعلى ملأ من الناس .

– خرسيس ، كلب ابن كلب . لو جيت أنا حاقتلك .

ثم صك حفني محمود التليفون في وجه الأمير . في الوقت الذي كان قد اقترب فيه المؤلف من دخول القصر ، حاملاً بين يديه أصول كتابه ، وفي عينه بريق الفرح ، وفي قلبه وميض الآمال في الشهرة والمال .. وكان الأمير قد أوصى عشرة من خدمه السود بتلقف المؤلف وسحقه بالعصي والشباشب والمقشات بمجرد أن يبدو على باب القصر .. وكان ما كان للمؤلف الذي فقد حتى أصول الكتاب !!

وقد ساعد حفني محمود على سبك مقالبه ما كان يتمتع به من قدرة على تقليد كل الأصوات ـ وهو في هذا مثل كامل الشناوي ـ ومعرفته الواسعة بالناس وطبائعهم ، والعلاقات المتشابكة بينهم ، ثم هذه الدعة من العيش ، ورخاء الحياة ، الذي ترك له وقتًا للتفكير والضحك بلا كدر .

وقد أراد أحمد خشبة أن يستأثر برئيس وزراء مصر حينذاك محمد محمود علي مأدبة غداء في بيته ، ولم يدع له بقية الوزراء . وحين علم حفني بالخبر اتصل تليفونيًا بجميع الوزراء مقلدًا صوت خشبة ، يدعوهم إلى الغداء في منزله . وقبيل وقت الطعام ببرهة بينما يجلس محمد محمود وخشبة وحيدين في دردشة واسترخاء حالم ، إذ بالوزراء يتوافدون واحدًا وراء الآخر هاجمين على المائدة التي دعوا إليها!! فاغتاظ محمد محمود وراح يضرب المائدة بقبضة يده صارخًا : عملها حفني .. عملها حفني !! [1].

وربما حُبِكَ المقلب ليتكسب به مدبره ، ولا يضر الآخرين . فيومًا دخل الشاعر أبو دلاَمة على الخليفة المهدي باكيًا .. فقال له المهدي : ماذا ألمّ بك؟! قال : يا أمير المؤمنين .. أم دلامة رحمها الله .. ماتت! ثم أنشد :

وكنا كزوج من قطا في مفازةٍ ... لدى خَفِضِ عيشٍ ناعم مؤنقٍ رغدِ

فأفردني ريبُ الزمان بصرفه ... ولم أرَ شيئًا قط أوحش من فردِ

فنفحه الخليفة ثيابًا وطيبًا ودنانير . ثم دخلت أم دلامة على الخيزران زوجة المهدي مولولةً ، نائحة ، شاكية منون الدهر الذي كلمها بخطف عائلها أبي دلامة من بين يديها .. فحزنت لها الخيزران وأعطتها مالاً وثيابًا .. وحين التقى الخليفة

(١) الظرفاء ، ص٧٩.

وزوجته قدم كل منهما العزاء للآخر في وفاة أم دلامة وأبي دلامة!! فاكتشفا (المقلب) وشرباه وضحكا منه كثيرًا !!

ومما قد يبعث عاصفة من الضحك والحزن معًا أن تستغل نقيصة طبيعية في الإنسان للسخرية منه .. فحين كان الأطفال يقدمون (المرق) والملعقة لرفيقهم الطفل طه حسين، ليروا ما هو فاعل به، ويضحكوا منه . فهذا رسب كثيرًا من الحزن والحذر في نفس عميد الأدب العربي ..

وربما قادت مثل هذه المواقف الصغيرة أبا العلاء المعري للاحتجاب عن الناس واتقاء نظراتهم الساخرة أو العاطفة . لكن بشار بن برد لم يملك رهافة حس المعري ليفعل ما فعل، بل كان ذا عاهة جبارًا .. فقد كان يعقد مجلسًا مسائيًا له كل يوم يلقي فيه شعره، وتجتمع حوله النسوة، ويناقشنه، فعشق واحدة منهن ـ من صوتها ـ وطلب إلى غلامه أن ينقل لها هيام سيده بها، فلم تجبه إلى ما رغب فيه، فألح عليها حتى باحت لزوجها بما يضمر بشار . فقال لها : أجيبيه، وعِدِيْه ليجيئك إلى البيت .. ففعلت .. وجاءها بشار وجلس إليها في دارها، وزوجها قاعد يخفى نفسه عنه، وهو ليس به يعلم .. وبدأت مناوشات بشار للمرأة .. فقال : ما اسمك بأبي أنت ؟! قالت : أمامةُ . فقال :

أمامةُ قد وُصِفتَ لنا بِحُسْنٍ ... وإنَّا لا نراكِ فأَلْمِسينَا

أي : اجعلينا نلمسك ونتحسسك!! فأخذت المرأه يده ووضعتها على عورة زوجها في حالة استثارته!! ففزع بشار ووثب قائمًا، وصرخ قائلاً :

عليَّ أَليَّة ما دمتُ حيًا ... أَمَسُّكِ طائعًا إلاَّ بعودِ

ولا أهدى لقوم أنتِ فيهم ... سلام الله إلاَّ من بعيدِ

طلبتُ غنيمةً فوضعتِ كفي ... على (....) أشدَّ من الحديدِ

فخيرٌ منك من لا خير فيه ... وخيرٌ من زيارتكم قعودي

وقبض زوجها عليه، مهددًا إياه بالفضيحة .. فقال له بشار مستضعفًا: كفاني ما فعلت بي، ولست والله عائدًا إليها أبدًا.

وهذا المشهد التمثيلي المحبوك يعد مؤشرًا جيدًا إلى ذلك المجتمع العباسي الحر المتطور، لا بمقاييس زمنهم فقط، بل مقاييسنا نحن الآن في مجتمعنا العربي الراهن: فالشاعر المعروف بمجونه وتحلله يعقد أمسية في داره، وتقبل عليها النساء، فيستمعن كل ما يقول من شعر متحرر أو متحفظ، ويناقشنه، ويتحدثن في كل شيء بحيث يستطيع من لا يرى، بل هو يسمع فقط، أن يعرف شخصية كل متحدثة ويضعها حيث يجب أن تكون من نفسه. وفي هذا لا يرفض الأزواج أن تشارك النسوة في مثل هذا النوع من السلوك الإنساني الراقي، والتردد على المنتديات الثقافية ليلاً، ولو كان إمامها بشارًا.

ثم يفجؤنا الموقف الثاني حين يرى الرجل غريبًا منتهكًا حرمة داره، متلبسًا بمحاولة الإيقاع بزوجته، ثم لا يقتل هذا المقتحم الجريء، ولا يسلمه للسلطان، ولا يصفعه ويركله، بل يكتفي منه بالندم والاعتذار .. ذلك كان المجتمع الحر المتقدم الذي صاغ حضارة العالم وأثراها عدة قرون طويلة.

وإزاء هذا الحدث أتوقف عند حدث جلبتُه من مخزون الذاكرة الطويلة .. فقد قيل: أن أحد المقرئين في قريتنا - كان اسمه الشيخ سيد - راود - مجرد مراودة - إحدى السيدات اللائي يقرأ القرآن في بيوتهن، راودها عن نفسها، فنقلت رغبة الشيخ سيد إلى أهلها، فأوهموا الرجل بأنهم يدعونه إلى زيارة للحقل وتناول بعض الخضروات والفواكه منه طازجة .. وفي الحقل - مستغلين فقدان بصره - وقفوا به تحت نخلة، وقال له أحدهم: ما رأيك يا شيخ في بلح هذه النخلة؟! فرفع رأسه ليرى تمرها - وهو المكفوف - فكان الموسى الذي جهزوه له أسبق إلى عنقه من شهقة

هواء!! وسقط الشيخ سيد قتيل رغبة في نفسه عبر عنها ببضعة ألفاظ!!

وأحيانًا يتفوق المكفوفون على المبصرين ، وكأنهم ينتقمون لبشار وللشيخ سيد، ولكل أعمى كنا نجره ونحن أطفال ، مدعين الترفق به ، وعمل الخير فيه ، فيدعو لنا بالصحة والبركة والثواب.. ثم على شفا ترعة ندفعه ونجري ضاحكين من تجديفه في الماء وتخبطه في الطين!!

لقد صاغ الأديب نبيل عبد الحميد حكاية واقعية من هذا القبيل في إحدى مجموعاته القصصية : تعوَّد مكفوف أن يذهب إلى بورسعيد ويملأ حقيبته التي تشبه بطن الحوت بكل ما يستطيع حمله .. وفي الجمرك يعرف بالتعود طريقه إلى الباب مباشرة بعيدًا عن المحاسبة ، فيتجه إليه بحقيبته حتى يمر منه .. وينتظر المبصرون .. فإذا وقع في أيدي رجال الجمارك - نادرًا ما كان يحدث - فليس على الأعمى حرج !!

مقلب آخر دبره هذا الأعمى الداهية في أحد أصدقائه (المفتحين) : صحبه إلى محطة أتوبيس ليقابل صديقته المكفوفة مثله ، وقد أمسك بيده راديو ترانزوستور موجهًا المؤشر إلى محطة أم كلثوم . وبعد فترة وجيزة نزلت من الأتوبيس فتاة رائعة الجمال لولا العمى ، وقد أمسكت أيضًا راديو ترانزوستور مفتوحًا على صوت أم كلثوم . وبدأ الاثنان يتقاربان ، يتقاربان حتى التصقا ، وتعانقت الأيدي ، والمبصر منبهر بجمال الفتاة ، وحاقد على صاحبه المكفوف . ولكن الأعمى قال له : سوف تأتي بعد لحظات فتاة أخرى بنفس الطريقة ، وما عليك إلا أن تمسك هذا المذياع على صوت أم كلثوم وتقف به هنا .. وظل المبصر العبيط واقفًا في المحطة منتظرًا ما لا يجيء حتى وجد نفسه منفردًا وحده تحت الصقيع ، فجر أرجله لاعنًا غباءه وخبث العميان![1] .

---

(١) نبيل عبد الحميد : ضحكة الأسد ، ص١١ ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الإبداع العربي ، عام ١٩٨٦ .

وربما انحبك المقلب بحكم حدث طارئ لم يُدبر له ، وتعامل معه صاحب المقلب بحكم خبرته في هذا السياق ، واعتماده على بساطة غيره ، وربما سذاجته .. فقد «مر بهلولٌ بسوق البزازين فرأى قومًا مجتمعين على باب دكان قد نقب ، فنظر فيه ، وقال : ما تعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم . فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ، ولا يتحاشونه ، فالطفوا به لعله يخبركم . فقالوا : خَبِّرنا . قال : أنا جائع . فجاؤوا بطعام سَنِيٍّ ، وحلواء ، فلما شبع قام فنظر في النقب ، وقال : هذا عمل اللصوص !!»[1] .

فقد تلاعب المجنون بالعاقلين ، ولو صدقوا لعلموا أنهم هم المجانين . فبين أيديهم الطعام ، وما كانوا ليطعموه لقمةً لو لم يظنوا فيه فائدة لهم!

وإذا كان البهلول ـ دون تدبير سابق ـ وجه حادث السرقة لصالحه ، وأفاد منه فإن هناك نوعًا من المقالب ليس من تدبير أي طرف من الأطراف ، إنما تتشكل أحداثها ووقائعها تلقائيًا .. ولكن ـ كسائر المقالب ـ فيها خاسر بعض الخسارة ، وفائز بعض الفوز .. ففي أثناء ذهاب الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي إلى عيادته شاهد جنازة متواضعة ، لا يسير فيها غير أربعة رجال ، وحاملي النعش ، فألغى مواعيد عمله ، وأراد «اقتناص» الثواب بالسير وراء ميت . ثم ارتفعت درجة حرارة الإيمان لديه فتقدم للمشاركة في حمل النعش ، وهو مَنْ من نحافة جسد ، وقصر قوام ، وهزالٍ عامًا !! وبمجرد أن تقدم إلى أحد الحاملين الأماميين للنعش قائلاً له : أَجِرني ـ أي امنحني الأجر بتركي أحمل النعش ـ تخلى له فورًا ، ولم يعد لحمله مرة أخرى ، ولم «يجره» أحد من السائرين خلف النعش .. وظل الشاعر المنهك يئن تحت الحمل ، وتطبخ الشمس رأسه ، وتقضم مطبات الطريق قدميه من شبرا إلى شبرا البلد .

(١) أخبار الظُّرَّاف والمتماجنين ، ص ١٢٠ .

وتنفس الشاعر الصعداء لأن القبور تقع هناك . فآن له أن يستريح ، لكن جاءت الطامة الكبرى حين رأى أحد المشيعين يسأل جندي المرور عن الطريق إلى قليوب البلد!! حينها سقط ناجي على الأرض وفوقه النعش والميت . وحين أفاق من إغمائه لم يجد حوله غير الوحدة والظلام!!

***

وليست كل المقالب تلحق ضررًا ببعض الناس . فهناك مقلب يحل عُقَدًا ومشكلات يعجز عن حلها العقل والجد والوساطات .. وأشهر مثل لهذه المقالب ما حبكه كامل الشناوي للإصلاح بين الكاتبين : توفيق دياب وعبد القادر حمزة عام ١٩٣٨ .. كان بينهما «خلاف كبير انتقل من القضايا العامة إلى المسائل الجارحة والأسرار الخاصة.. وعبثًا حاول أصدقاء الطرفين إصلاح ذات البين ، وعودة ما بينهما من صداقة ومحبة دون جدوى .. وتفتق ذهن كامل الشناوي عن فكرة رائعة .

في هدوء الليل أدار قرص التليفون ، وأجرى مكالمة مع عبد القادر حمزة بصوت توفيق دياب ، وخاطبه معتذرًا عما بدر منه في حقه ، في رقة وإخلاص شديد . و«الله يسامح اللي كان السبب» وبكى عبد القادر حمزة تأثرًا عبر أسلاك التليفون .. فجاءه صوت كامل الشناوي مقلدًا بكاء توفيق دياب . وفي الصباح تابع مشاغباته الصوتية مقلدًا صوت عبد القادر حمزة ، وألقى على توفيق دياب تحية الصباح والمحبة ، واستمر الحديث بينهما طويلاً وودودًا ، وعاد الصفاء والوئام بينهما . ثم كانت المكالمة التالية بصوت دياب الحقيقي . وبعدها تواعد الكاتبان على اللقاء أمام الأصدقاء وشهود العيان من الصحفيين في «جروبي» إعلانًا عن عودة المياه إلى مجاريها »[1] .

---

(١) من مقالة ليوسف الشريف عن كامل الشناوي بمجلة (روز اليوسف) ، العدد ٣٣٦٥ ، ٧ من ديسمبر ١٩٩٢م .

وهذه المقالب أشبه ما تكون بالكذبة البيضاء التي قد تضحك بغير ذنب، وتفيد بغير ضرر.

***

مسلك لا غرابة فيه أن دبر الناس مقالب للناس، لكن الغرابة كلها إذا وقعت هذه المقالب من الحيوانات ضد البشر !! وبعض الحيوانات فيها غباء الظرافة، وبعضها فيها دهاء الثعلب.. ومن هذا الثعلب تقع كل المقالب.

الإمام الشافعي قال: «كنا في أرض اليمن، فوضعنا سفرتنا لنتعشى، وحضرتْ صلاة المغرب، فقمنا نصلي ثم نتعشى. فتركنا السفرة كما هي، وقمنا إلى الصلاة، وكان فيها دجاجتان، فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين فلما قضينا الصلاة أسفنا عليها، وقلنا: حرمنا طعامنا. فبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجة، فوضعه. فبادرنا إليه لنأخذه، ونحن نحسب الدجاجة قد رَدَّها. فلما قمنا، جاء إلى الأخرى وأخذها من السفرة، وأصبنا الذي قمنا إليه لنأخذه، فإذا هو ليف قد هيأه مثل الدجاجة»[1].

فكون الثعلب يخطف الدجاجة أولاً فهو طبع الحيوان الهجام، أما أن يستكثر على الشافعي وصحبه الدجاجة الثانية، ويحتال ليحصل عليها، وينجح في حيلته فهو أمر مضحك من ذكاء الحيوان، ومحزن من غباء البشر، الذين قاموا جميعًا ليحصلوا على الدجاجة (الليف) ولم يتركوا أحدًا لحراسة المائدة!!

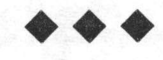
وهذا الثعلب يستطيع أن يستولي على غذاء البشر، ويقع في أيديهم - برضاه - ثم لا يقتلونه!!.. ففي أحد البيوت الريفية تسلق الثعلب الحائط، وهبط إلى حظيرة

(١) طرائف من التراث العربي، ص٢٨٨.

الدجاج فأكل ما أكل ، وخنق ما عجز عن التهامه .. وحين تواصلت صرخات الدجاجات تحركت صاحبة الدار لتعرف السبب . فلما أحس الثعلب بالخطر يحدق به استلقى على جنبه ، ونفخ بطنه ، وأفرز غازات نتنة توحي بأنه قد مات فعلاً وجيفته على وشك التحلل!! وحين دخلت ربة البيت صرخت وولولت على دجاجاتها ، وكادت تجّن وهي ترى (القاتل) أمام عينيها ، ورائحته لا تطاق بعد أن شبع موتًا .. فظنته ـ وظنه من حضر ـ قد أصيب بالتخمة كالبشر فمات . فراح هذا يدفعه برجله ، وذاك يشده من ذيله ، لم يكن إلا ميتًا .. فجروه من البيت إلى خرابة بعيدة وتركوه .. وحين ابتعدوا عنه عدة أمتار هب واقفًا ، وقفز عَدْوًا وسط ذهول المغفلين من البشر !!

والحيوانات المتوحشة لا تعرف الإيناس ، والجميل . وتعود إلى طبيعتها التي ورثتها وتربت عليها في أي وقت تتاح لها الفرصة . واستئناس مثل هذه الحيوانات المتوحشة وتدجينها قد يستغرق عدة آلاف من السنين :

فهذه سيدة عجوز ، تعيش وحدها في منزل متسع ، لا يؤنسها فيه بشر ، وفي ليلة شتوية قارصة البرودة سمعت قريبًا من دارها القروي عواءً شاحبًا ضعيفًا .. فخرجت إليه . فإذا هو (جرو) أي ذئب مولود حديثًا ، يتلوى من البرد . فحملته السيدة إلى دارها ، وأطعمته ، وأنِسَتْ به .. وظل عندها زمنًا وهي تفيض عليه بالطعام والشراب .. وتتركه في دارها قريبًا من حظيرة للغنم .. وعادت يومًا فوجدت حظيرة الأغنام مفتوحة ، والدماء سائلة هنا وهنا ، وبقايا أقدام ورأس أحد الخراف الصغيرة متناثرة فصرخت ، وبحثت عن الجاني ، فلم تجد رفيقها الذئب الصغير في الدار !!



نوادر المعلمين والنحاة:

استَلَمنَا «الأستاذ مصطفى» مدرس (كل حاجة) في المدرسة الابتدائية من الصف الثاني إلى الخامس .. فدخل أول ما دخل فصلنا ببذلته السوداء، وكرافتته الحمراء الفاقعة، ونظارته الشمسية، وتحت إبطه الأيسر كومة من الأوراق والدفاتر، وتحت الإبط الأيمن كومة من الكراسات والكشاكيل. وحين اقتحم علينا الفصل، كان منا من يكسر الشباك، ومنا من يشخبط على السبورة، ومن يشوط زميله بالشلوت، ومن يشد شعر زميلته وهي تصرخ، ومن يجلس فوق (التختة) ملتهمًا أقراص (الطعمية) وبقايا المش بالبتاو.

وأول شيء حيانا به فور دخوله طرقة عالية على باب الفصل بجلدة سميكة طولها متر .. ثم تقدم بخطوات واثقة، وصدر مفتوح، وأنف أشم إلى مكتب المدرس، وراحت طرقاته تتوالى بعد أن رمى ما بيده من كشاكيل وأوراق، حتى طار خبر وصوله إلى كل الآذان الطفولية العابثة .. تنحنح الرجل ـ وكان في الخامسة والثلاثين ـ وضبط كرافتته، وشد بنطلونه لأعلى، وقال بصوت آمر حاسم وقاطع: قيام. فقمنا. وجلس هو برهة. ثم قال: جلوس .. فجلسنا في هدوء وتوجس. نظر في ساعته التي كانت بحجم رغيف الخبز وصرخ: قيام .. قمنا .. جلوس .. جلسنا.. ثم قيام. جلوس .. قيام. جلوس جلوس قيام .. قيام!! وتلخبطنا: فمنا من يجلس، ومنا من يقوم، ومنا من لا يدرك هذا ولا ذاك فيبقى منحنيًا .. وبعد هذه اللهوجة صرخ: ثابت .. كله ثابت في مكانه. وأشار إلى القاعدين وقال:

اخرج يا بن الرفدي إنت وهوَّ إلى السبورة .. خرجنا . فأمرنا برفع أيدينا إلى أعلى، ووضع وجوهنا في الحائط . فعلنا ما أمرنا ، ووقفنا لا نتوقع أية «خيانة» ، فإذا به ينهال على مؤخراتنا بجلدته قائلاً : باسم الله . واحد.. اثنين.. ثلاثة.. عشرة.. وشمر يده اليسرى لتتبادل الضرب مع اليمنى مرددًا: الأدب فضلوه على العلم .. يا غنم ، يا بجم ، يا سوقة ، يا خراف ...، وسكت الأستاذ مصطفى فجأة ثم أشار إلينا بالجلوس .. فجررنا أرجلنا والدموع تغرق وجوهنا وتوجهنا لنجلس . فقال فجأة : قيام . قمنا جميعًا، لنسمع منه بعد لحظة وجيزة : اجلس .. لا جلست ولا ردك الله إلاّ قتيلاً ، وبعد القتل تمزيقًا وتحريقًا !!

لم نكن ندري حينها أيدعو لنا أم علينا .. ولماذا هذا التعذيب المفاجئ من «أستاذ» لم نتشرف بالتتلمذ عليه من قبل ، ولا رأينا طلعته المبرقعة ، وشعره المنكوش!!

وجلس الأستاذ مسترخيًا ، بالعًا نفسًا عميقًا واسعًا ، ومد يده إلى الكراسات ثم بدأ تقسيمها وترتيبها : العربي ، الحساب ، العلوم ... وانهمك في «التصحيح» ولا يقطع صمته ولا صمتنا إلا بصقة من فمه على هذه الكراسة ، ولعنة على صاحب تلك ، وشكر لآخر. ونتلفت قد يكون هناك من يكلمه فلا نجد إلا الكراسات والدفاتر .. فبدأت ودوداتنا وهمسنا يتضح، فتركنا حتى ارتفع الصوت والغمز واللمز ، وصرخت تلميذة فجأة : أستاذ .. الواد محمد عملي حاجة قلة أدب !!

نفخ الأستاذ ورمي الكراسة وقال : قيام .. ارفعوا أيديكم لأعلى .. يا غنم، يا بجم ، يا سوقة ، يا خراف .. وجلس هو يصحح الكراسات .. بعد برهة دفعت الباب في رقة (الأستاذة ليلى) مدرسة الموسيقى . وما كنا ندري ما دورها بالضبط في المدرسة . إذا كانت تأتي لتغني لنا من حين لآخر ، فلماذا لا تغني في الإذاعة خيرًا لها؟! وماذا نتعلم منها : الموسيقى أم الصوت المدلل، أم مضغ اللبان ، أم أكل الفول

السوداني بالأكوام في الفصل ، أم عمل التريكو ، والتهام سندوتشات الفول .. أم ننظر إلى ساقيها الملفوفتين البيضاوين ، وهي جالسة على كرسيها ، ونحن نسقط الأقلام على الأرض عمدًا لننزل نلتقطها فنبقى تحت الكرسي ننظر لنعم الله ؟!

حينما دخلت (أبلة ليلى) انقلب حال الأستاذ مصطفى .. قال : جلوس .. ناموا على التخت!! .. ننام؟! هل يريد راحتنا بعد جولة التعذيب هذه؟! فلننم إذن ما دام قد رضي عنا .. ثم لأننا لم نتعلم النوم في المدارس رحت أنظر خلسةً إلى الأستاذ مصطفى والأستاذة ليلى فلم أجدهما!! سحبت رجلي ومشيت على أطراف أصابعي ، وقد أحسست حركة خلف الباب الموارب ، نظرت في حذر فإذا الأستاذ يحدِّث الأستاذة ليلى «بكلمة سر» في شفتيها!! حينها انفتحت لي كنوز العالم .. قفزت لأعلى : هاي .. هاي : ضبطتك!! وجريت من الفصل!!

ظل الأستاذ مصطفى منتظرًا أن يراني عدة أيام ، وأنا أهرب من حصته .. حتى أوحى لي التلاميذ الكبار - في الصف الخامس - أنني إذا ذهبت إلى منزله للحصول على درس خصوصي كبعض التلاميذ فلن يؤذيني ولن يعذبني .. وفعلاً ذهبت إلى بيته مع مجموعة من زملائي ، فاستقبلني بفرح : إنك ولد ذكي ، وسوف تنجح آخر العام .. أهلاً بك . ورغم حرارة الترحيب لم أهتم به كثيرًا ، بل كنت متشككًا فيمن يتحدث إليَّ : أهذا هو الأستاذ مصطفى صاحب البذلة السوداء والنظارة والكرافتة والجلدة النارية؟! إن من يحدثني الآن - ونحن نجلس على سطح داره - يرتدي جلبابًا تمزقت أطرافه حتى أصبح كأنه «بنص كم» ونال البلى ذيله فوصل إلى ركبة الرجل وتتدلى منه (الشراشيب) ، والبقع تكلل مؤخرته .. قلت : ليس مهمًا هذا الثوب الموهوم .. المهم العلم الذي سنتلقاه على يد أستاذنا ، وجلست مع من جلس لنتلقى العلم!! ففوجئنا بفوج من الدجاج والأوزِّ والبط يهجم على جلستنا بعد أن هرب من الحظيرة

المجاورة لنا .. وقام الأستاذ يلم البط والدجاج ليدخله إلى الحظيرة فإذا أدخل مجموعة خرج سرب ، فأمسك عصاة وراح يهشها ، فإذا بامرأة وجهها من قطعتين منفصلتين تخرج عليه فجأة صارخة فيه : إيه اللي بتعمله ده يا مصطفى يا نيلة؟! سيب البط يتفسَّح !! فرد في همس : عيب يا أم وليد .. التلامذة قاعدين ومش عارفين نشرح لهم من الفراخ . قالت : يا شيخ اتنيل على عينك ، انت لا نافع هنا ولاهناك . فرد في خشونة : عيب يا مره طولة اللسان دي .حينها خطفت منه العصا وانهالت بها ضربًا عليه !! ولست أدري ما حدث بعد ذلك، لأننا فررنا جميعًا إلى الشارع خوفًا من أن تنالنا عصاة زوجة أستاذنا كما نالته .. وحينها عرفت السبب في تعذيبه لنا !!

***

هذه الحكاية تجسيد لما يسمى (بنوادر المعلمين) . فهذه الفئة ـ ككل فئات المجتمعات الإنسانية ـ لها ميزاتها ومثالبها ، لكنها تحرص دائمًا على إظهار الميزات وستر العيوب ، لدورها التربوي ، وبصفتها قدوة لكل جيل ، وليس بإمكان عالم أو مفكر أن يجد الطريق إلاَّ من بوابتها . ومثل هذه الفئة العظيمة المثرية لحياة البشرية ينتظر أن يرى منها الآخرون كل حسن في المظهر والتصرف ، ويسجل عليها الناس أي خلل في السلوك أو خطل في الفكر .. ونادرًا ما يقع هذا الخطأ بين مجموعة من المعلمين، أو مع المعلم الفرد بصفته إنسانًا .. ولأنه من النادر أن تقع مثل هذه التصرفات منهم ، ولأنها تمثل صدفة لمن يراها فإنها قد سميت بالنوادر .

ولو نقبّنا عن نوادر غيرهم من أصحاب المهن فلن نعدم أن نجد عشرات ومئات منها . لكن ما يهم البشرية هو معلموها وأساتذتها .. ويدخل في هذه الدائرة أيضًا النحوي .. لكن النحوي معلم متخصص في النحو على وجه التحديد .

وقد ألَّف أبو عمرو الجاحظ كتابًا عن نوادر المعلمين استهله بحكاية قال فيها :

أَلَّفتُ كتابًا عن نوادر المعلمين ، وما يقع لهم . ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع الكتاب ، فدخلت يومًا مدينة ، فوجدت فيها معلمًا في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد عليَّ أحسن رد ، ورحب بي فجلست عنده وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم باحثته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب فإذا هو كامل الآداب . فقلت : هذا والله مما يقوِّي عزمي على تقطيع الكتاب .

وكنت أختلف إليه وأزوره . فجئت يومًا لزيارته فإذا بالكُتَّاب مغلق ، ولم أجده فسألت عنه فقيل : مات له ميت فحزن عليه ، وجلس في بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إليَّ جارية ، وقالت : ما تريد؟ قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله .. فدخلت إليه فإذا به جالس . فقلت له : عظَّم الله أجرك ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر .. ثم قلت له : هذا الذي توفى ولدك؟ قال : لا . فقلت : فأخوك؟ قال : لا .. قلت : فزوجك؟ قال : لا . قلت : ومن هو منك؟ قال : حبيبتي . قلت : سبحان الله ، النساء كثير وستجد غيرها . فقال : أتظِن أني رأيتها؟ قلت : هذه منحسة ثانية .. ثم قلت : وكيف عشقت من لم ترَ؟! فقال : كنت جالسًا في هذا المكان ، فرأيت رجلاً عليه برد وهو يقول :

يا أُمَّ عمروٍ جزاكِ الله مكرمةً ... رُدِّي عليَّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر .. فعشقتها . فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهبَ الحمار بأُمِّ عمروٍ ... فلا رجعتْ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار . فقلت : يا هذا ، إني كنت قد ألفت كتابًا في نوادر كم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ بك

إن شاء الله [١].

وإذا ذكر النحوي برز إلى الأذهان هذا المخزون اللغوي من الغريب والمهمل والمهجور الذي يحرص بعض النحويين على استعماله في غير مواضعه من الناس، ناسين أن البلاغة ـ بالمفهوم التقليدي ـ هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. فقد وقف أحد هؤلاء النحويين الأزهريين على إحدى بائعات الفجل، وقال لها: إليَّ بحزمة و«كَثِّريها».. فانتقت له البائعة حزمة و«كَسَّرتها» قطعًا قطعًا !!

ويقال: إن أبا علقمة النحوي كان سائرًا في طريق فثار «به مرار فسقط، فظن من رآه أنه مجنون. فأقبل رجل يعض أذنه، ويؤذن فيها فأفاق، فنظر إلى الجماعة حوله فقال: ما لكم قد تكأكأتم عليَّ كما تتكأكؤون على ذي جُنَّة، افرنقعوا عني. فقال بعضهم لبعض: دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية!!» [٢].

ويومًا دخل أبو علقمة هذا على طبيب اسمه (أعين) فقال له: أمتع الله بك.. إني أكلت من لحوم هذه الجوازل، فطسأت طسأةً، فأصابني وجع من الوالبة إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الخِلب والشراسيف. فهل عندك دواء؟ فقال أعين: خذ حرقفًا وسلقفًا فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه. فقال أبو علقمة: لم أفهم عنك. فقال أعين: أفهمتك كما أفهمتني !!» [٣].

فالطبيب هنا أبلغ من النحوي، لأنه «عالج» الغموض بالغموض !! وأسخف ما كنا نستخف به من أساتذتنا أنّا كنا نردد على مسامع بعضهم ـ ونحن تلاميذ بالمدارس ـ قول شوقي:

---

(١) طرائف من التراث العربي، (ص٢٢٠، ٢٢١).

(٢) أخبار الظراف والمتماجنين، ص١٤٥.

(٣) أخبار الظراف والمتماجنين، ص١٤٥، ١٤٦.

قَمْ للمعلـــم وَفِّــهِ التبجـــيلا   كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

فنقول :

قـــم للمعلـــم وفـــه التلطيشـــا   كـــاد المعلـــم أن يكـــون شاويشـــا!!

والسخرية هنا مزدوجة من المدرس أولاً ، ومن الشاويش أو (الجاويش) ثانيًا وما دام التلطيش للشاويش ـ وما يرمز إليه ـ فكل سيسارع إليه ، ويلبي نداءه!!

***

ولا يقتصر تسجيل نوادر المعلمين والتحدث بها على الشعب العربي ، بل هي ـ ككثير من عناصر الإضحاك ـ تشيع في كثير من الشعوب . تقول النادرة الصينية : إن أحد المعلمين نام في النهار «وبعد أن استيقظ من نومه زعم لتلاميذه قائلاً : لقد رأيت في منامي السيد تشو (هو سياسي مشهور من أسرة تشو الغربية = ١٠٦٦- ٢٥٦ق.م) . وفي اليوم التالي نام أحد التلاميذ مقلدًا المعلم ، فأيقظه المعلم ، وقال له غاضبًا : كيف تنام في النهار؟ فأجابه التلميذ : كنت أرى السيد تشو في منامي أيضًا . فاستطرد المعلم يسأله : ماذا قال لك السيد تشو؟ رد التلميذ : قال إنه لم يقابل معلمي أمس» [(١)].

ونحن إذ نضحك لهذه النادرة نلمح كراهية النوم نهارًا لدى الصينيين . وهم لهذا يتقدمون إلى مركز الصدارة العالمية سريعًا . أما نحن فننام نهارًا ، وننام ليلاً ، وننام وقوفًا ، وقعودًا ، وعلى جنوبنا وننام ونحن نائمون !!



(١) فكاهات صينية ، ص١١٣ . إعداد : يان شيانغ شيان ـ ط. دار النشر باللغات الأجنبية (بكين) .



طرائف المتدينين ..

لا أظن الديانات الحقة غير ابتسامات كبرى أُريدَ لها أن تنثر على أفواه البشرية بعدالة . لا هي بالنكد ، ولا البغضاء ، ولا الضغينة ، ولا السوداوية .. وقد كان النبي يضحك ويداعب صحابته .. وقد روي أنه قال لسيدة عجوز : إن الجنة لا يدخلها عجوز !! فلما حزنت وضاقت واشتكت قال لها : لأن الشباب سوف يعود إلى داخليها !! .. وقال «سفيان بن عيينة : أتينا مرة مسعر بن كدام (كوفيًا من ثقات أهل الحديث ت١٥٢هـ) فوجدناه يصلي ، فأطال الصلاة جدًا ، ثم التفت إلينا مبتسمًا ، فأنشدنا :

ألا تلك عزةُ قد أقبلتْ	ترفع نحوي طرفًا غضيضا
تقول : مرضنا فما عدتنا	وكيف يعود مريضٌ مريضا

(والبيتان لُكثيِّر عزة) . قال : فقلت : بعد هذه الصلاة هذا !! قال :

نعم .. مرة هكذا ، ومرة هكذا» [1] ذلك لأن «الدين يسر ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلاَّ غلبه» كما جاء في الحديث الشريف .

وليس الغزل وحده هو ما يمكن أن يتلو الصلاة ، بل قد تقع فيها طرائف تضحك الصخر .. فقد «قال عبد الله بن أحمد المقرئ : صلى بنا إمام لنا ، وكان شيخًا صالحًا ، وقد اشترى سطلاً فاستحيا أن يجعله قدامه في الصلاة فجعله خلفه ، فلما ركع شغل قلبه به ، فظن أنه قد سرق فرفع رأسه فقال : ربنا لك السطل . فقلت له :

(١) أخبار الظراف والمتماجنين ، ص٥٣.

السطل خلفك لا بأس »[1].

فالإمام الصالح يشغله سَطْلٌ عن ذكر الله ، وهو في نشوة الصلاة بدلاً من أن يقول : ربنا لك الحمد . قال : ربنا لك السطل .. والحق أن الحمد والسطل وأصحاب السطل كلهم لله!! وأطرف من قوله : رَدُّ المأموم عليه : السطل خلفك .. وهذا يدخل في صميم (التعاطف الوجداني) بين البشر!! وربما لو لم يتلق الإمام هذه الإجابة لكان قد تلفَّتَ خلفه ، وأعطى المحراب ظهره . ولو كان في المصلين وراءه واحد كأبي نواس لسرق السطل ، وجرى الإمام وراءه!!

وليس الجري من الصلاة بدعة يسوقها القلم ، ولا هو اجتراء على عمود الدين . ذلك أن أعرابيًا صلى «خلف إمام ، فقرأ الإمام : ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] .. وكان في الصف الأول ، فتأخر إلى الصف الآخر . فقرأ الإمام : ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾[3] ، فتأخر ، فقرأ الإمام : ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾[4] . وكان اسم البدوي مجرمًا ، فترك الصلاة ، وخرج هاربًا وهو يقول : والله ما المطلوب غيري . فلقيه بعض الأعراب فقال له : مالك يا مجرم؟ فقال : إن الإمام أهلك الأولين والآخرين ، وأراد أن يهلكني في الجملة .. والله ما رأيته بعد اليوم »[5].

وتتعدد دوافع الانصراف من الصلاة ، وإن كانت النتيجة واحدة .. لكن أشعب يوظف كل الأحداث لصالحه دائمًا : فإذا صلى فبثمن ، وإذا انصرف من الصلاة فبثمن .. وقد «صلى أشعب يومًا إلى جانب مروان بن أبان بن عثمان . وكان مروان

---

(١) المرجع السابق ، ص١٢٧ .

(٢) الآية ١٦ من سورة المرسلات .

(٣) الآية ١٧ من سورة المرسلات .

(٤) الآية ١٨ من سورة المرسلات .

(٥) طرائف من التراث العربي ، ص٤٥ .

عظيم الخلق والعجيزة ، فأفلتت منه ريح عند نهوضه لها صوت ، فانصرف أشعب من الصلاة ، فَوِهَم الناس أنه هو الذي خرجت منه الريح . فلما انصرف مروان إلى منزله جاءه أشَعب فقال له : الدِّية فقال : دية ماذا؟! فقال : دية الضرطة التي تحملتها عنك ، والله وإلا شَهَّرتُكَ . فلم يدعه حتى أخذ منه شيئًا صالحًا »[1].

وللروائح الخبيثة حديث في هذا المجال ، وتعد سببًا من أسباب قطع الصلاة لكن عديم الضمير قد (يعملها) ولا يقطع صلاته !! .. ويقال إنه : «كان بالمدينة عطاران يهوديان فأسلم أحدهما ، فنزل العراق ، فالتقيا ذات يوم ، فقال اليهودي للمسلم : كيف رأيت دين الإسلام ؟ قال : خير دين ، إلاَّ أنهم لا يدعونا نفسو في الصلاة كما كنا نصنع ونحن يهود . فقال له اليهودي : ويلك.. افسِ وهم لا يعلمون »[2].

وربما لا يكتفي بعض الساخرين ـ ولو بالصدفة ـ بإفساد صلاتهم ، فيفسدون صلاة الآخرين معهم بالحديث وقت الصلاة .. فقد «صلى الدلاَّل المخنث الظريف يومًا خلف الإمام بمكة ، فقرأ الإمام : ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]. فقال الدلاَّل : لا أدري والله! فضحك كل الناس ، وقطعوا الصلاة . فلما قضى الوالي صلاته دعا به وقال له : ويلك ألا تدعَ هذا المجون والسَّفه؟! فقال له : قد كان عندي أنك تعبد الله ، فلما سمعتك تستفهم ظننت أنك تشككت في ربك فثبَّتّك!!»[4]. وشبيه بهذا ما فعل أعرابي حين وقف يصلي فقرأ الإمام : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ وجعل يرددها . فقال الأعرابي : يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل نحن وقوفًا إلى الصباح ، ثم تركه وانصرف .

---

(١) المرجع السابق ، ص٨٧.

(٢) أخبار الظراف والمتماجنين ، (ص١٢٦ ، ١٢٧) .

(٣) سورة يس الآية ٢٢.

(٤) طرائف من التراث العربي ، (ص٦١ ، ٦٢) .

ووقوع مثل هذه المضحكات في الصلاة بما لها وبها من خشوع ووقار، وكون هذه الأحداث تروى وتحفظ يدل على أنها أولاً جاءت من الإنسان المناسب في الوقت المناسب واللغة والمناسبة، ولم يُؤذَ بها أحد.. وجاءت ثانيًا في غير إعداد وحبكة، ثم إنها ترد قليلاً وغير مكررة.. ولهذا سميت طرفة وطرائف.

وقد تجيء الطرفة على لسان الدعاة وأشباه الدعاة، أو العاملين بالفقه والحديث.. يذكر أنه قيل لأشعب (هو ابن جبير.. المعروف بطمعه، وما لا يشتهر عنه أنه تأدب وروى الحديث).. قيل له يومًا: «جالست الناس، وطلبت العلم، فلو جلست لنا، فجلس. فقالوا حدثنا. فقال: سمعت عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خلتان لا تجتمعان لمؤمن**». ثم سكت. فقالوا: ما الخلتان؟ فقال: نسي عكرمة واحدة، ونسيت أنا الأخرى»[1]. فعنصر الطرافة توافر هنا بتوافر (المصداقية) أولاً.. فأشعب أورد السند متصلاً غير مرسل ـ أي غير منقطع ـ وتخير تابعًا لا يُطعنَ فيه هو عكرمة، وصحابيًا عالمًا بحرًا هو ابن عباس: فأخذ الناس مقدماته مأخذ الجد.. وازداد تشوقهم حينما لمس وترًا حساسًا فيهم بنفي عادتين عن المؤمن. وكل منهم ينتظر هاتين الخلتين أو العادتين ليعلم أيحمل منهما شيئًا أم لا.. ثم جاء صمته بعد هذا مشعلاً شوقهم أكثر، ومؤكدًا جدية أشعب ـ الراوي ـ وحين تهيأت نفوسهم تمامًا لتلقي بقية الحديث ضحك منهم، فكان الوقع حسنًا.

وليس الصمت وحده يفجِّر الطرفة، بل ربما الحديث أيضًا إذا اتسم بقوة المنطق ـ ولو ظاهريًا ـ فهذا رجل مسلم قَدَرَي يسأل مجوسيًا: ما لك لا تسلم؟! فقال المجوسي: حتى يريد الله ـ وهذه الإجابة تتواءم مع مذهب القدرية ـ فرد القدري: قد أراد ذلك، لكن الشيطان لا يريد. قال: فأنا مع أقواهما!!

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين، ص٨٥.

وعلى الرغم مما في رد المجوسي من خبث وتجرؤ ، فإنه لم يصل إلى مستوى هذا الحائك الكوفي الذي ادعى النبوة . فاجتمع عليه الناس قائلين : اتق الله ، خَفِ الله . أرأيت حائكًا يتنبأ؟! قال : ما تريدون أن يكون نبيكم إلا صيرفيا !! ومع كبر الجرم ، جاءت الإجابة اللاذعة التي توحي لهم أولاً أنهم ـ كبشر ـ يفرقون بين الإنسانية ، ويحجبون (النبوة) عن إحدى المهن !! ثم إنهم ما كانوا ليفعلوا هذا لو جاء الدعي إليهم بالجواهر والياقوت ـ كان صيرفيًا ـ فهم إذن ـ كناس ـ يعبدون المال والدنيا لا الزهد والآخرة !!

وليس الحائكون وحدهم يستطيعون أن ينجبوا نبيًا كذابًا .. فالسود أيضًا ـ ولم يعرف نبي أسود رغم أن اللون لا عيب فيه ولا نقص ـ هؤلاء السود في الدولة العباسية أنابوا عنهم أحدهم ليدعي النبوة ، ويدعي أنه موسى بن عمران ـ لست أدري لماذا لم يقل : إنه نصيب بن عثمان مثلاً !! ـ فجاؤوا به إلى المأمون فقال له : إن موسى أخرج يده من جيبه بيضاء ، فأخرج يدك بيضاء حتى أؤمن بك . فقال الأسود : إنما فعل موسى ذلك لما قال فرعون : أنا ربكم الأعلى ، فقل أنت كما قال حتى أخرج يدي بيضاء ، وإلا لم تبيض!! فإذا كان الخليفة قد دخل إليه مدخلاً ذكيًا فيه تعريض بسواده ، وعجزه عن أن «يبيض» يده ، فإن النبي الكذاب رد على الخليفة ـ بمنطق أذكى مما ينتظر ، وحاصره .. فإما أن يصمت عنه الخليفة أو يدَّعي أنه إله!! .

والحق أن هذه «الشغلانة» ـ التنبؤ الكاذب ـ كانت صعبة في العصر العباسي هذا . فإذا تشهى حائك «غلبان» النبوة أو تطلع إليها أسود من الناس ، كان يساق إلى الخليفة مكبلاً بالقيود والسخرية من العامة والخاصة . أما في بدايات الرسالة المحمدية فقد كان الأمر أيسر وأهون ، والناس أقرب إلى تصديق الكذابين .. في مرحلة زمنية واحدة ـ تقريبًا ـ حمل هذا ـ العبء الثقيل !! ـ مجموعة من أجلاف العرب : منهم الأسود العنسي ، ومسيلمة الكذاب ، وكان يمثل المرأة في عالم النبوة ـ

ولست أدري لماذا لم تمثل في هذا المجال بالذات؟! ـ كان يمثلها سجاح ـ صلى عليها الشياطين! ـ وحينما توفي النبي استفحل أمر مسيلمة الكذاب وأمر سجاح .. لكن شوكة سجاح بدأت تشتد ، والتفت حولها قبائل كثيرة ، فرأت أولاً ـ قبل محاربة أبي بكر والمسلمين ـ أن تُخضِع ـ في طريقها ـ مسيلمة . ولما كان مسيلمة كذابًا ذكيًا فقد فهم هذه التوجهات النبوية النسائية ، وبعث رسولاً إلى سجاح يخبرها برغبته في لقائها ، وتدارس (المعجزات النبوية) لدى كل منهما ، فإن اقتنعت بمعجزاته انضمت إليه وإن أقنعته بمعجزاتها آمن بها ، وحاربوا جميعًا المسلمين!!

وقد رأت سجاح ـ صلى عليها الشياطين!! ـ أن الخطة هذه لا غبار عليها ولا تراب !! وحينها أمر مسيلمة أتباعه أن يعدوا لها وله سرادقًا فخمًا ، فيه من الرفاهية والراحة والعطور والزهور والمأكل والمشرب كل شيء .. لأن هذه الرفاهية أدعى لأن تلهب أنوثة المرأة ـ والنبيات على وجه التحديد!! ـ ثم أمر الناس ألا يقربوا اجتماعهما ، ولا يقطعوا وحدتهما وتدارسهما شؤون النبوة ومعجزاتها!!.

في هذه الوحدة الآسرة الفاتنة قالت الكاذبة للكاذب هاتِ ما عندك . فقال لها : ألم ترى أن الله قد جعل لنا النساء أزواجًا ، ثيباتٍ وأبكارا .. ثم تدفق بما منَّ عليه إبليس من آيات .. وهي تقول : ثم ماذا ؟! .. وتسترخي . ثم ماذا؟! وتستلقي.. ثم ماذا؟! وتتمدد.... حتى قال لها أبياتًا تدعوها إلى المضاجعة (النبوية الشريفة).. منها :

ألا قومي إلى الـ.........	فقد هُيِّئَ لك المضجعْ
فإن شئتِ ففي البيت	وإن شئت ففي المخدعْ
وإن شئت سلقناك	وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه	وإن شئت به أجمع!!

فقالت له : ألا به أجمع !!

وبعد هذه المعجزة من مسيلمة خرجت إلى قومها وقالت : يا قوم .. أشهد أنه لنبي !!

نعم كان الأنبياء والنبيات حينذاك محترمين ومحترمات . وكانت مسألة النبوة هذه «تجيب تمنها!!» أما هذا الحائك الغلبان ، وذاك الرجل الأسود فلهما الله !!

ولمقرئي القرآن والمؤذنين طرائفهم القديمة والجديدة ، وإن كان ما سُجلَّ من القديم أكثر ، لعدم رواج هاتين المهنتين الآن بسبب انتشار الإذاعات ، والساعات ، وطرائق ضبط الوقت . وقديمًا دفعت امرأة إلى رجل يقرأ على القبور رغيفًا ، وقالت له : اقرأ عند قبر ابني . فقرأ : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر] .. فقالت له : أهكذا يقرأ عند القبور؟ فقال لها : ماذا أردت برغيف : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] . ذاك بدرهم !!

ومقرئو القبور هؤلاء يضرب بهم المثل في (اللهوجة) وبلع حروف القرآن وكلماته ، وربما جملة كاملة . ومن هؤلاء - وهم يقرؤون في المقابر المصرية وقت الأعياد والمواسم - من يحمل جوالاً فوق ظهره ، ويدور حول المقابر كالدبور ليقعد قبالة إحداها قبل غيره . وقد يجلس اثنان في توقيت واحد ، فيدفع كلاهما الآخر بكتفه - أمام أهل الموتى - ثم يتنافس كل منهما ليقرأ ، وليسا بمتفقين أبدًا ، فيبدأ هذا وذاك قراءة القرآن كطنين النحل ، ويخرج الصوتان صوتًا واحدًا ، ولا تعرف أوله من آخره من وسطه ، ولا تفهم معنى ، ولا تسيغ عبارة !!

وهذا الجوال - المحمول ظهرًا - يعبأ بالكعك والخبز والتمر والبرتقال والفطائر ربما بسورة واحدة لا يحفظ المقرئ غيرها .. ويستغفل الجالسين فيقرأها في عجلة كبيرة ، فإذا أتى عليها أعادها مرة أخرى ومرات !!

أما بعض مؤذني هذا الزمن فمنهم من يؤذن في الناس للصلاة ، ثم ينسحب هو لا يصلي . ومنهم من يؤذن بعد أن «يعدل رأسه بحجرين حشيش» أو «ضرس

أفيون!!» ومنهم من هو شديد الغفلة والجهل .. قال بعض المصلين : رأيت مؤذنًا أذن ثم غدا يهرول ، فقلت له : إلى أين؟ قال : أحب أن أسمع أذاني أين يبلغ !!

وشوهد مؤذن يلقى الأذان من رقعة مكتوبة ، فقيل له : أما تحفظ الآذان؟! قال : سلوا القاضي . فأتوا القاضي . فقالوا : السلام عليكم . فأخرج دفترًا وقرأ منه : وعليكم السلام!! ويقال إن عبد الله النديم ذهب إلى عاصمة الخلافة العثمانية (إسطنبول) وأراد أن يقابل الخليفة ، فلم يستطع ، فصعد إلى مئذنة جامع في غير وقت الآذان ، بين الظهر والعصر ، وراح يؤذن ، فقبضوا عليه وأراد الخليفة أن يرى من فعل هذه الفعلة الغريبة فطلبه وقال له : لم فعلت هذا؟ فرد النديم : حتى تستدعيني فأراك!!

ومن يعترف بعدم الحفظ ، ويقرأ من صحيفة كهذا القاضي والمؤذن خير ممن يدِّعي حفظ القرآن ، وهو غير حافظ .. قيل لرجل : أتحفظ القرآن؟ قال : نعم . قالوا : ما أول الدخان؟ قال : الحطب الرطب !!

ومن الناس أيضًا من لا يحفظ ، ولا يقرأ من ورق ، ولا يدعي الحفظ ، إنما هو يحرف الكلم عن مواضعه في الكتب المقدسة ... فقد سأل أحدهم الأديب الفرنسي فولتير : لماذا تسرف في التدخين؟! ألا تعلم أن السيجارة من ألد أعداء الإنسان؟! فقال له فولتير : وأنت ألا تعلم أنه قد جاء في الإنجيل أنه يجب علينا أن نحب أعداءنا؟!!

أما هذا الأعرابي فيحفظ القرآن ، لكنه يوظفه لما شاء في موقف مفاجئ .. فقد أقبل هذا الأعرابي على رجل «وبين يدي الرجل طبق فيه تين . فلما أبصر الأعرابي غطى التين بكساء كان عليه ، والأعرابي يلاحظه .. فجلس بين يديه فقال له الرجل : هل تحسن من القرآن شيئًا؟ قال : نعم . قال : فاقرأ . فقرأ الأعرابي : ﴿وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ﴾ ، قال الرجل : فأين التين؟! قال : تحت كسائك»[1].

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين ، ص١٣٤.

وقُدِّم طعام رديء اسمه (الكامخ) إلى أعرابي فلم يَسْتَطْبْهُ .. وقال : ما هذا ؟! قالوا : كامخ . قال : ومن أي شيء صنع؟ قالوا : من الحنطة واللبن . قال : أبوان كريمان ومن أنجبا .. ودخل المسجد والإمام في الصلاة يقرأ : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ فقال له الأعرابي : والكامخ.. ولا تَنْسَه ، أصلحك الله!!

وأعرابي آخر وَلِي البحرين ، فجمع يهودها وقال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالوا : نحن قتلناه وصلبناه . قال : فوالله لا تخرجوا حتى تؤدوا ديته . فأخذها منهم!!

وبعض التصرفات الأخلاقية يختلف الحكم عليها من بيئة لأخرى ، ومن جنس لجنس ، ومن دين لدين ومن زمن لزمن .. فقد قيل لأعرابي : ما الزنى عندكم؟ قال القبلة والضمة . قيل له : ليس هذا زنا عندنا في الحضر . فسأل : فما هو؟! قالوا أن يجلس بين شعبها الأربع - أي يداها ورجلاها - ثم يجهد نفسه!! فقال الأعرابي : ليس هذا زنى .. هذا طالب ولد..!! .

وإذا كان هذا العمل المباشر الصريح في نظر الأعرابي ليس زنى ، إنما هو السعي لإنجاب ولد .. ولا غبار عليه ، فإن القبلة في نظر (عزة) صعب أن تنيلها لكثيِّر ، الشاعر الذي حمل اسمها ، فيقال له : كُثيِّرُ عزة .. فقد دخلت عزة الميلاء صاحبة كثير هذه على أم البنين ابنة عبد العزيز ، وهي أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك ، فقالت لها أرأيت قول كثير .

قضى كلُّ ذي دَيْنٍ فوفَّى غريمَه وعزةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

ما كان ذلك الدين؟ قالت عزة : وعدته قبلة ، فخرجت منها ، ولم أعطه إياها فقالت أم البنين : انجزيها وعليَّ إثمها !! .

هكذا تكون رعاية الحكام للرعية ، وحرصهم على انبساطهم ووفائهم بالديون! .


ألاقى عندك قاموس
عربى/تفتيح مخ؟

حكايا السكارى ...

يوهم السُّكْرُ من يقع فيه بأن الحياة أجمل ، وتضحك له وبه . ويفسد السكر حكمه على الأشياء وحسبته للمقادير .. فهو حين يسير ليلاً ـ مثلاً ـ ويرى بقعة من الضوء على الأرض يظنها بحيرة من الماء ، فيرفع رجله لأعلى كي يعبرها!! وإذا ارتفعت الأرض أو انخفضت عدة سنتيمترات ظن تلاً عاليًا يقف أمامه فيرفع رجله ويفتحها ليجتازه!! وقد يجد حصية صغيرة فيظنها صخرة كبيرة ، فينحرف عنها .. وهكذا يسير في الطريق راقصًا : أعلى وأسفل ويمينًا وشمالاً . فينال سخرية الناظرين وعجبهم من هذه الحركات العشوائية غير المبررة لديهم ، والمبررة لدى السكران نفسه . في حالات السكر والسُّطَل هذه إذا وقعت عين المسطول في عين أي إنسان ظنه يشتمه ، أو يستخف به ، أو يخرج له لسانه ، فتزداد عين المسطول حمرة ، ويريد أن يثب على هذا المستخف به المعتدي عليه!! ثم إنه حينما يصل إلى حد معين من السكر ينسى يومه ويتوزع بين أمسه وغده .. فهو ـ إذا كان من أصحاب الجاه والمال الذين جار الزمان عليهم ـ تذكر هذا الماضي وراح يعيشه ويسترجعه كأنه ما زال يعيش فيه ، فنراه يصرخ : أنا جدع!! وإذا كان ذا حُلْم وطموح يعجز عن تحقيقه واحتضانه يتخيل ـ في حالة سكره هذه ـ أنه قد بلغ المنى ، وحقق المعجزات ، فيمشي منتفخًا مبتسمًا ، وربما ضاحكًا مقهقهًا !! .

والسطل غير السكر . فالسكر بدرجاته يخِّلفه شرب الخمور بأنواعها .. أما السطل فهي تنتج من تدخين الحشيش ومشتقاته وتعاطي الأفيون .

ولأهل هذا العالم المخدَّر تعليقاتهم النارية التي قد تكون صادقة حينًا وكاذبة أحيانًا ، وتستدعي الضحك غالبًا . ففي أحد المساجد قديمًا جلس واعظ قاص يعظ الناس ويقول : إذا مات العبد وهو سكران ، دُفن وهو سكران ، وحشر وهو سكران . فقال رجل في طرف الحلقة لآخر : هذا والله نبيذ جيد ، يساوى الكوز منه عشرين درهمًا !!

هكذا يفسرون حادثة الموت ، ويرونها بمنظور السكر فقط .. فالخمر لديهم هو الدنيا والآخرة . وقد حاول شاعر سكير أن ينام ليلة وليس لديه ما يشربه ، وتسلطت عليه البراغيث ، فطردت النوم من فراشه ، فأرسل إلى صديق له يقول :

أشكو إليكَ براغيثَ بُليتُ بها ... سودًا إذا انتبهتْ في الليل لم أنم
أصيد ذا فيبقى ذا فيلدغني ... فينقضي الليلُ في صيدي ولدغِهِم
وقد تيقنتُ أني ليس ينقذني ... غير الشراب .. وليس الصحو من شيمي!!
فابعث إليَّ دمَ العنقود أشربه ... حتى إذا نمت لم أشعر بسفك دمي !!

وهم يعلمون سمات صديقتهم - الخمر - شكلاً ومضمونًا وأبعادًا وأعماقًا .. وقد «أنشد عكاشة الهادي أمير المؤمنين شعرًا ، وصف فيه الخمر وصفًا دقيقًا ، فقال الهادي : لقد استوجبت حد الخمر ، ولابد من عقوبتك وجلدك . وقال عكاشة : أعطني الأمان حتى أدافع عن نفسي ، وأدلى بحجتي ، وأذكر برهاني على براءتي . قال الهادي : أعطيتك الأمان فتكلم بما شئت .

قال عكاشة : هل أجدت وصفها يا أمير المؤمنين؟ قال : نعم ، أجدت وصفها كأنك عالم بها ، ومدمن على شربها . قال عكاشة : وكيف عرفت أنت يا أمير المؤمنين أني أجدت وصفها إذا كنت لم تعرفها ولم تذقها؟ فإن كنت أنا قد وصفتها مستعينًا بذكائي وما أسمعه عنها فقد شركتني في ذلك وإن كان وصفها لا يعرف إلا

بشربها فقد عرفتها وشركتني في ذلك . فضحك الهادي . وقال : حميت نفسك بدهائك وذكائك ونجوت »[1] .

ويستطيع الممحص في هذه القصة أن يرى جدلاً بين اثنين من محترفي شرب الخمر : لكن أحدهما قوي يستطيع إيذاء غيره والادعاء بما شاء من إيمان وزهد وحكمة ، والآخر لا يملك غير الذكاء والمنطق ، وقد انتصر ذكاء الشاعر على جبروت السلطان!!

ومن تقاليد السكارى أن يسهروا خارج منازلهم بعيدًا عن رقابة الزوجات وفضولية الأبناء .. فكأنهم منفصمو الشخصية : أمام أبنائهم وزوجاتهم وقورون وملتزمون الجادة ، ومن خلفهم يسخرون ويُسخرَ منهم ، ويشتمون ويُشْتمون ، ويلطمون من أي واع ، ولا يستطيعون أن يلطموا ذبابة لأنهم أضعف ما يكونون وهم سكارى .

في ساعات الليل المتأخرة عاد سكير إلى منزله .. «وحاول ألا يُحدث ضوضاء ، حتى لا يوقظ زوجته التي كانت تعنفه دائمًا . وبينما هو ذاهب إلى السرير استيقظت الزوجة وسألت : كم الساعة؟ فأجاب في ضيق : الواحدة. في تلك اللحظة دقت الساعة مدوية تعلن الرابعة ، فصاح فيها السكران : كم أنت وقحة أيتها الساعة!! لقد فهمت جيدًا أنها الواحدة ، فأي داع لأن تكرريها لي أربع مرات؟! »[2] .

وهذا نموذج للضحكة الإيطالية ، التي هي أقرب الضحكات إلى الجو العربي الدافئ الصادق ، لكنها لا تحمل أي بعد سياسي ، وإن كان يمكن أن نتلمس منها

(١) أمين أحمد العطار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي : من قصص الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ط. دار مصر للطباعة .

(٢) ضحكات إيطالية من كتاب لـ ..Leggiamo econversiamo Gbottaglia.

بعدًا اجتماعيًا يتمثل في محاولة انفلات الرجل من قبضة زوجته ، وعدم مصاحبتها له في سهراته وحياته الخاصة ، وهو نوع من التفكك الأسري . ومن ناحية أخرى نرى نفوذًا للزوجة لا يستطيع أن ينكره خاصة وهو يحس بالخطأ .

وفي حشاشة الليل الأخيرة خرج إمام العبد مع شفيق المصري من البار وكانت ليلة يفت في العظام بردها .. فاستقلا عربة حنطور ، ومضت بهما على غير هدى تتخبط في شوارع القاهرة وميادينها ، وهما صامتان . فسألهما قائد العربة : البهوات رايحين على فين؟! فرد إمام العبد وأسنانه تكز على شفتيه ورأسه يميل على كتفه يمينًا ويسارًا : الدنيا برد .. إحنا مش قادرين نتكلم . إذا كنت عاوزنا نرد عليك اقف في شارع دفا واحنا نقولك!

هذه إجابة نثرية لسكران .. وقد تجيء الإجابة شعرية في رونق بهيٍّ ، ونسج محكم من التعبير والخيال .. فليلة أحضر العسس للأمير (العريان) رجلاً سكران ، فسأله الأمير : من أنت؟ فأجاب :

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدْره ... وإنْ نزلتْ يومًا فسوف تعودُ

ترى الناسَ أفواجًا إلى ضوء نارِهِ ... فمنهم قيامُ حولها وقعودُ ..

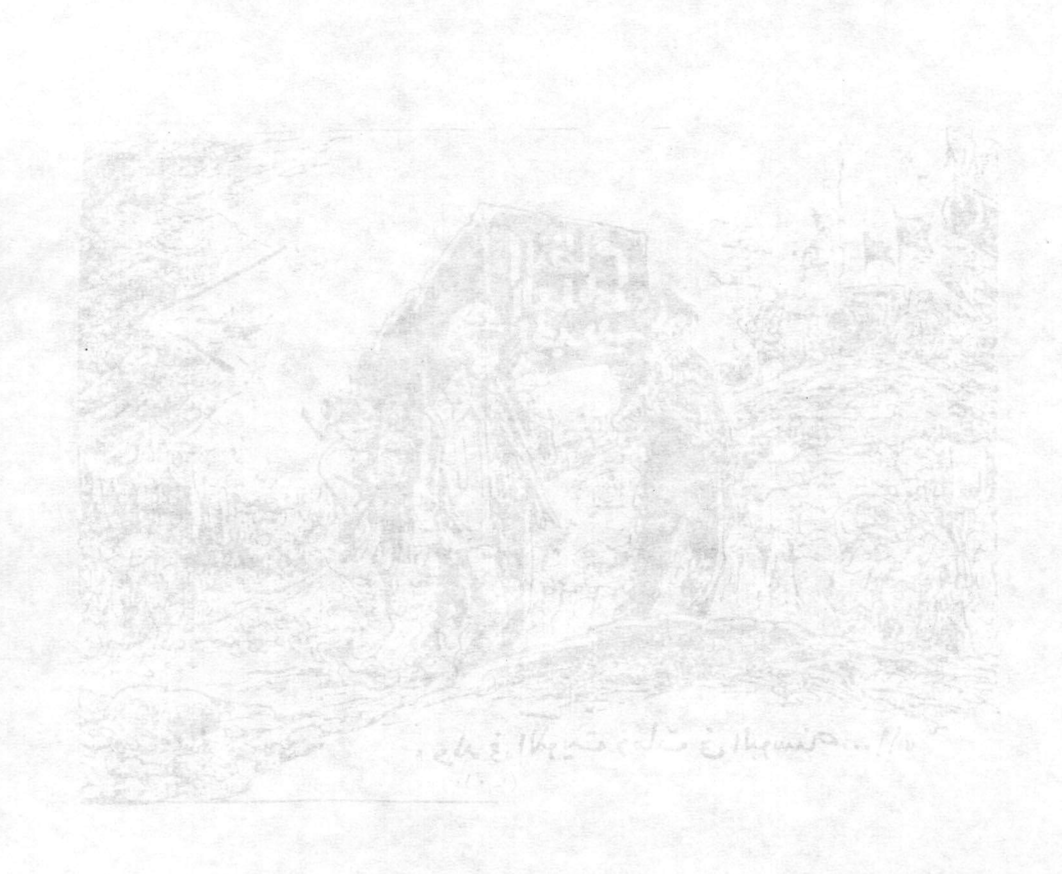
فظنه الأمير من أهل المحتد الأصيل ، والسابقة في الكرم والشرف ، فتركه . ثم سأل عنه فإذا به ابن (بائع الفول!!) وإذا كان هذا الشاب الشاعر ابن بائع فول وبهذا الذكاء ، فمن المؤكد أنه كان يطعم الناس فول أبيه ولا يذوقه هو !!

وفي بعض الليالي التي ترددنا فيها على الجريون ، جلس الأديب الراحل عبد العال الحمامصي يحكي أمجاده ـ بعد أن شرب كثيرًا ـ فقال : أريد أن أطلعكم على سر لا يعلمه أحد غيري ، ولم يسجله التاريخ ، فانتبهنا وتوقعنا أمرًا جللاً .. قال : أنا أول من أسس حزبًا شيوعيًا في مصر !! فسأله مدحت الجيار : من كان رئيس هذا الحزب؟! فرد عبد العال : أنا !! وكم بلغ عدد الأعضاء ؟! فقال : كانوا واحدًا فقط هو أنا!!



«ولد فى الكويت ومات فى البوسنه...!!»

(٢٠)



السخرية ...

اللهم اكتبني عندك في أم الكتاب إنجليزيًا ، فإن لم يكن ياذا المن فاكتبني عندك خواجًا ، فإن لم يكن ياذا الإكرام فاكتبني عندك خديويًا .. أو باش أغا أو أغا!!

هكذا دعا الوطني العظيم ، والساخر السياسي الكبير عبد الله النديم .. ولكن بعد وفاته بعدة عقود من الزمان غيَّر ورثتُه هذا الدعاء ، وضعوا بدل الإنجليزي (الأمريكي) .. وبدل الخواجا (يابانيًا) .. وبدل الخديو والأغا وضعوا في دعائهم مدلَّلي هذا الزمان (الإسرائيليين!!) وهذا تطور لابد منه كيما نلحق بالعالم الحديث ، ونجاريه ، ونتفوق عليه!! خاصة أننا عملنا بنصيحة شاعرنا الحكيم معروف الرصافي حين قال لنا معشر العرب :

من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرَّمُ

فليمسِ لا سمعُ ولا | بصرُ لديه ولا فمُ
لا يستحق كرامةً | إلاَّ الأصمُّ الأبكمُ
ودعوا السعادة إنما | هي في الحياة توهَّمُ
فارضوا بحكم الدهر | مهما كان فيه تحكُّمُ
وإذا ظُلمتم فاضحكوا | طربًا ولا تتظلَّموا
وإذا أهنتم فاشكروا | وإذا لُطمتم فابسموا
إن قيل هذا شهدكم | مُرٌّ فقولوا : علقمُ
أو قيل : إن نهاركم | ليلُ فقولوا : مظلمُ

أو قيـــل : إن بلادكـــم　　　يـا قـومُ سـوف تُقَسَّـمُ

فتحمَّـــدوا وتشـــكَّروا　　　وترنحـــوا وترنمـــوا

وفعـلاً قـد ترنمنـا وترنحنـا كثيرًا ، ونحـن نرانـا مـوزعي الأوطـان والنفـوس والحقوق ، ومنا من يغني لليالي الأنس في فيينا وباريس ولاس فيجاس ، ومنا من يفتقر لرغيف الخبز .. كما قال حافظ إبراهيم :

عَـــزَّت السـلعة الذليلـــة حتـــى　　　بـات مسـح الحـذاء خطبًـا جسـامًا

وغدا القوت في يد الناس كالياقوت　　　حتـــى نـــوى الفقـــير الصـــياما

ويخـال الرغيـــف في البعـــد بـــدرا　　　ويظـــن اللحـــوم صـــيدا حرامـــا !!

هذا النوع من الكتابة يمكن أن يدخل في باب (السخرية) التي هي عبث ممضٌّ قولاً أو عملاً ، واقعًا مترديًا أو مأساويًا ، بطريقة تدفع للضحك مع التفكير فيما وراءه .. وقد تأتي هذه السخرية من الأوضاع العامة للأمة : قال عبد الله النديم : شاهد خفير لصًا يهبط من نافذة ومعه ملابس . فهتف الخفير في اللص : مين اللي هناك؟ قال اللص : أنا خواجا . فرد الخفير معتذرًا : لا مؤاخذة.. كنت أحسبك مصراوي!!

فحينها كانت السرقة حلالاً للأجنبي ، حرامًا على ابن الوطن! أما وقد دخل التطوير على هذا المفهوم في زماننا ، فقد أصبحت السرقة حلالاً «لبعض» أبناء الوطن - رضي الله عنهم وأرضاهم عنا!!.

وقد واصل النديم سخريته من هذا التردي والعنصرية والظلم أيام الاستعمار - ما أحوجنا الآن إلى مائة نديم - فقال في إحدى سخرياته : وقف خواجا أمام القاضي . فسأله : أنت قتلت الرجل ده يا خواجا؟! ورد الخواجا : لا يا خبيبي .. هو كتل روحه!!» .. فهتف القاضي منشرحًا : براءة!! وجاء دور أحد أبناء البلد فسأله القاضي :

انت ضربت الراجل ده بالسكين؟ ورد ابن البلد في ضراعة : لا والنبي يا سيدي القاضي .. فسأله القاضي ثانية : أمال يعني هو اللي ضرب نفسه؟! فرد ابن البلد :

أيوه يا سيدي . وعاد القاضي يقول : غريبة .. فيه حد يضرب نفسه .. أنت اسمك إيه؟! ورد ابن البلد في ذكاء وسرعة : اسمي «محمد خسين!!» وليست السخرية من الأوضاع العامة المقلوبة جديدة ، إنما لها سوابقها في تاريخنا الإنساني والعربي .. فيومًا ما دخل الشاعر الظريف أبو دلامة على الخليفة المهدي ، وبين يديه (سَلَمةُ) الوصيف واقفًا ـ الوصيف هو الخادم الرشيق الوسيم ـ فقال : إني أهديت إليك يا أمير المؤمنين مهرًا رشيقًا ليس لأحد مثله ، ألا تشرفني بقبوله . فأمر بإدخاله إليه ، فخرج أبو دُلامة وأدخل إليه دابته التي كانت تحته ، فإذا هي حمار محطم أعجف هرم يسير بصعوبة . فقال المهدي : ويلك .. أي شيء هذا!! ألم تزعم أنه مهر؟! فقال له : أَوَليس هذا سَلمة قائمًا بين يديك تسميه الوصيف وعمره ثمانون عامًا؟! فإن كان سلمة وصيفًا فهذا مهر!!

ففي بعض دواوين الحكم يتربع على المناصب من كان يجدر به أن يتربع على كوم من القمامة ، أو يستقر في قبر تنبشه الذئاب !! حتى يخلي المكان لمن هو أهلُ له . وقد سخر أبو دلامة من هذا الحال بحبكة تمثيلية جمعت بين الفعل والقول .

***

وقد تنصبُّ السخرية على الآخرين من عامة الناس ، أو من مشاهيرهم في سائر مناحي الحياة . فقد كان زيور باشا رئيسًا لوزراء مصر في العهد البائد ، وكان ضخم الجثة ـ لابتلاعه حقوق الشعب! ـ فوصفه عبد العزيز البشري بأنه إذا ركب العربة لم يستطع أحد أن يعرف هل هو جالس إلى الشمال ، أو هو جالس إلى اليمين ؟! وأنه كان يمشي في حديقة داره فتراهن اثنان من المارة : هل هو يسير أمامهما أم هو متجه إليهما!!

وفي موقف آخر أعطى البشري زيور حقه من الوصف التفصيلي لكل طن من أطنان جسده ، وكل هضبة من هضباته ، وكل صخرة من صخوره ، ومقلب قمامة من مقالبه!! قال عنه : إذا اطلعت عليه أدركت أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض .. وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول غيره . وأهل مصر يأخذون على زيور «كله» ما لا يحصى من الجرائم على القضية الوطنية . وإنهم ليعدون عليه بأموال الدولة واستهتاره بمصالحها .ولكن من الظلم أن يؤخذ البريء بجريرة الآثم ، وأن يعاقب المظلوم بجريرة الظالم. فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور الأيسر ، أو القسم الأسفل من «لغده» أو المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى .. إن الحق والعدل ليقضيان بتأليف لجنة تقوم بعمل تحقيق مع صاحب الدولة ، فتسأل أعضاءه عضوًا عضوًا ، وتحقق مع أشلائه شلوًا شلوا . ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ زيور ، فما أحسبه شارك ولا دخل في شيء من كل ما حصل !!

ولكن البشري كان رفيقًا حين رسم لوحة وصفية لفكري أباظة ، أقل خطوطًا وظلالاً وألوانًا من لوحة زيور .. قال عن فكري : متكور الوجه ، أضيق العينين في ضيق محاجر ، مقرون الحاجبين . لو رأيته مع إخوته لحسبته بعض تلك النباتات التي تخرج وحدها لم يتعهدها منجل البستاني بالتسوية والتهذيب.

ومن هذه الطريقة الوصفية الساخرة لم ينجُ حافظ إبراهيم حينما قال عنه عبد العزيز البشري : جهم الصوت ، جهم الخلق ، جهم الجسم . كأنما قُدَّ من صخرة في فلاة موحشة ، ثم قرر ـ في آخر لحظة ـ أن يكون إنسانًا فكان والسلام . أما عيناه فكأنهما دقتا بمسمارين دقًا ، وأما لون بشرته ـ والعياذ بالله ـ فكما عهد به إلى نقاش

مبتدئ تشابهت عليه الأصباغ والألوان فذاب أصفرها في أخضرها في أبيضها في بنفسجها ، فخرج مزجًا من هذا كله لا يرتبط بواحد منها بسبب . وإذا أطلقته في البر حسبته فيلاً ، وإذا أطلقته في البحر حسبته درفيلاً !!

فهذه ـ إضافةً إلى ما تحمل من سخرية ـ آية وصفية رائعة : فيها اللون ، والضوء ، والحركة ، والاضطراب ، والجمل الموسيقية . ولا يمر عليها متذوق إلا وهو يتوقف عند لفظة (أطلقته) في نهايتها!!

أما حافظ صاحب هذه الصورة البشعة ـ كما عرضها البشري ـ فقد «تشطَّر» على الأديب الدكتور محجوب ثابت الذي عاش عمره يحلم بمنصب وزاري ، ويشيع فيمن حوله مرةً أنه نائله عاجلاً أم آجلاً ، ومرة أنه تأبّى على المنصب ورفضه .

يقول فيه حافظ إبراهيم :

يبيت يحلُمُ أحلامًا مذهبةً	تغني تفاسيرها عن علم ابن سيرين
طورًا وزيرًا مشاعًا في وزارته	يصرف الأمر في كل الدواوين
وتارة زوج بمطبولٍ مدملجةٍ	حسناءَ تملك آلاف الفدادين
يُعفى من المهر إكرامًا للحيته	وما أظلّته من دنيا ومن دين

ويبدو أن محجوب ثابت كان مادة ملهمة لسخرية الشعراء .. فخصَّه شوقي أيضًا بقصيدة عن براغيثه .. قال فيها :

براغيثُ محجوبٍ لم أنْسها	ولم أنسَ ما شربتْ من دمي
تشقُّ خراطيمها جوربي	وتنفذ في اللحم والأعظم
وتنظرها حول بيت الرئيس	وفي شاربيه وحول الفم

(يبدو أنه أقام مزرعة براغيث في شاربه!!) .

بـواكيرُ تطلـع قبـل الشتـاء فتحمـل ألويـة الموسم

قـد انـتشرت جوقـة جوقـةً كـما رشـت الأرض بالسمسم

ترحـب بالضـيف عنـد الطريـق فبـاب العيـادة فالسلم !!

ولم يغضب محجوب ثابت حين تحدث عنه حافظ ، أما حين تعرض شوقي لبراغيثه فقد ثارت ثورته ، وهجا شوقي بمقال أرسله لبعض الصحف ، ثم عاد فسحبه !! وهذا نوع من الوفاء بين بني البشر وبني برغوث !!

وربما توجه لدغ السخرية إلى الآخرين من غير المعروفين في المجتمع ، وحينها لا يذكر الاسم . قال إبراهيم عبد القادر المازني يصف زنجيه : كأنها زير ، عليه إبريق ، مقلوب فوقه كرة ذات ثقوب !!

وكان لإمام العبد صديق شديد الكبرياء والفقر . فقال عنه : مرة صاحبنا ده كان ماشيًا في السكة وبعدين لقي نص فرنك ، فضل واقف جنبه لحد ما فات واحد فقير ، فنادى عليه وقال له : وطي يا ولد هات النص فرنك ده !!

وبمناسبة الفقير المتكبر هذا يقال : إن مصريًا من أصل تركي ، كان مرفهًا ثريًا ، ثم مال الدهر عليه فأسكنه قبور الفقر .. ولأن قصره كان يحفل بالخدم والحشم ، وهو آمر فيهم ناه لهم ، وقد باع القصر ، وضيَّع الخدم والحشم .. ولا يستطيع أن يعيش بغير أن يأمر وينهي ، لذلك اشترى قلَّتين وجلس بهما أمام مسجد الحسين .. فإذا مد أحد الناس يده ليشرب من قلَّة هب الرجل قائلاً : لا. ما تشربش من دي ، واشرب من دي . وإذا سأله الشارب : لماذا ! يقول له : علشان دي باردة !!

***

والساخرون إن لم يجدوا مَنْ أو ما يسخرون منه ، ربما سخروا من أنفسهم : تدريبًا لقدراتهم ، وتمرينًا دائمًا لها . ولهم في هذا مآرب أخر . فهذا الشاعر الكوفي

الحكم بن عَبْدَل في القرن الثاني للهجرة يستجدي ممدوحه ويسخر من نفسه فيقول :

يا ابا طلحةَ الجواد أغثني ... بسجال من سَيْبِكَ المقسومْ

أحي نفسي - فدتك نفسي - فإني ... مفلس - قد علمت ذاك - عديمْ

أو تطوَّع لنا بِسَلْف دقيق ... أجر - إن فعلت ذاك - عظيمْ

قد علمتم - فلا تَعامس عني - ... ما قضى الله في طعام اليتيمْ

ليس لي غير جرة وأصيص ... وكتاب منمنم كالوشومْ

وكساء أبيعه برغيفٍ ... قد رقعنا خروقه بأديمْ

وإكافٍ أعارنيه نُشَيطُ ... هو لحاف لكل ضيف كريمْ

وهذا الخط من السخرية بالنفس التمسه وسار عليه كثيرون من التالين للحكم ابن عبدل .. وزعيم البؤس في هذا الزمان عبد الحميد الديب كثير مما كتبه يصور فيه ذات نفسه البائسة ، ويستخف بها وبالحياة كلها . قال يصف حاله :

ثيابي كمصطاف الغنِي نوافذ ... ومَشْتَى الفقير ابن السبيل هشيما

ولي غرفةٌ كالقبر لم تحوِ أرضُها ... سواي أثاثًا كالهباء قديمًا

وفي موقف آخر يبدو الديب يائسًا معطيًا ظهره للدنيا بتناقضاتها وهمومها هازئًا بها وبنفسه .. يقول :

دع الشكوى وهات الكأس نسكرِ ... ودعك من الزمان إذا تنكَّرْ

وهام بي الأسى والبؤس حتى ... كأني عبلةٌ والبؤس عنترْ

كأني حائط كتبوا عليه : ... هنا يا أيها المزنوق «طرطر!!»

وإذا كانت سخرية الديب تتركز على الفقر ، والنقص الاقتصادي ، فإن إمام العبد يسخر من سحنته السوداء . كان جالسًا في بار اللواء يكتب خطابًا لصديق ، فتساقطت نقطة من الحبر على الأرض ، فقال على الفور : يا خبر أسود ، الواحد بقي

يعرق كثير اليومين دول!!

وليس المازني بأقل تندرًا على قصر قامته من أمام العبد .. ففي أثناء زيارة العقاد والمازني للقدس ، وكان معهما في جولة واحد من أسرة النشاشيبي أطلق مجهول عليهم النار فجأة .. فانبطح العقاد أرضًا ، وجرى النشاشيبي ، بينما ظل المازني واقفًا مكانه .. فاندهش الناس لثباته في مواجهة الموت ، وسألوه عن ذلك فأجاب : أنا خفت أجري الراجل يشوفني !!

وتتواصل سخرية المازني من قصر قامته ، فيقول للعقاد بعد أن اشترى صديريًا : اشترِ لي واحدًا كهذا ، أعمله بالطو!! وجاء مرة إلى بعض أصدقائه ، فقال لهم بفخر : النهاردة أنا حميت فلان من علقة كان ها يأكلها .. وسألوه مندهشين : إزاي ؟! قال : أنا كنت ماشي معاه ، واتشاكل مع واحد زي البغل ، والراجل حلف إنه لازم يضربه لحد ما يموته .. قالوا : وبعدين ؟! رد : وبعدين الراجل بص ناحيتي وقال : طيب حاسيبك عشان خاطر العيل اللي معاك !!

◆◆◆

الناقصون أيضًا يضحكون ..

ليس يُضْحك من الجمال ولا الكمال ، إنما هما يثيران انبساطًا ورضا في النفس ، إنه رضا من طبيعة غير طبيعة الضحك الذي يكون استخفافًا بقبح ، ونوعًا من معالجة نقص ما بطريقة غير وعظية . وقد يكون في حالة سخرية الناقصين من أنفسهم نوع من التصبر والتجلد . وربما ظل الضاحك ضاحكًا من الدنيا والناس ونفسه حتى أحرج لحظات حياته .. ففي الأيام الأخيرة من عمر حسين شفيق المصري فقد بصره ، وتطوع شاب من أقربائه لمرافقته .. ولما سأله صديق عن الشاب الذي يرافقه . أجاب : دا واحد «ساحبنا!!» .

ولهذا النوع من الضحك أو التصبر تاريخ عريق .. يقال : إن رجلاً أعرج وَلِي الشرطة بالكوفة ، ثم ولي الإمارة أعرج آخر . وخرج الشاعر الأعرج ابن عَبْدَلَ ، فلقي سائلاً أعرج قد تعرض للأمير يسأله ، فقال ابن عبدل للسائل :

ألقِ العصا ودع التَّحَامُل وَالتمس عملاً ، فهذي دولة العرجانْ

لأميرنا وأمير شرطتنا معًا يا قومنا ، لكليهما رِجْلانْ

فإذا يكون أميرنا ووزيره وأنا ، فإن الرابع الشيطانْ!!

وقبح الصورة على الرغم من أن الإنسان لا ذنب له فيه ، ولو خيروه لاختار وجه مارلين مونرو ، وقوام فريدة فهمي ، وشعر بنت خالتي!! فإن السخرية قد تجري على الألسنة اللاذعة عابثة بهذه الخلق العكرة .. يقال إن بعض البصريين من أصحاب أبي هذيل قدم بغداد فلقي اثنين من المخنثين فقال لهما : أريد منزلاً . وكان

هذا البصري في نهاية القبح . فقال أحد المخنثين : بالله من أين أنت؟ قال : من البصرة . فأقبل على رفيقة يقول :لا إله إلا الله ، تحول يا أخي كل شيء من الدنيا حتى هذا .. كانت القرود تجيء إلى بغداد من اليمن فصارت تجيء من البصرة !!

وقد ينفع القبح أهله!! فلو كان الجاحظ وسيما «محندقًا» ما قعد في عقر داره هاجرًا الناس ، مرافقًا الكتب ، حتى أصبح بحرًا من العلم وأصبح واحدًا من المراجع التي غاص فيها حتى الموت!! وهو لا يحرج أن يروى ما وقع له في هذا السبيل . قال : ما أحرجني أحد إلا امرأتان : رأيت إحداهما ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلي كلي معنا (معرَّضا بطولها) . فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا (معرضة بقصره) ، وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت : لي إليك حاجة ، وأريد أن تمشي معي . فقمت معها إلى أن أتت إلى صائغ ، وقالت : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها . فقال : إنها أتت إليَّ تسألني أن أنقش لها على خاتم صورة شيطان ، فقلت لها : ما رأيت الشيطان لأنقش صورته . فذهبت وأتت بك وقالت ما سمعت »[(1)] .

◆◆◆

(1) طرائف من التراث العربي ، (ص٢٠٩، ٢١٠) .

لصوص.. ومرتشون.. وجهلة !!

أمراض المجتمع يعالجها الحاكمون بالقوة ، ويعالجها الشعب بالنكتة ، لكن يبدو أن هذا الشعب ـ أي شعب ـ لا يعاقب من اللصوص ـ مثلًا ـ إلا أضعفهم ، حتى ولو على سبيل التندر بكلمة .

فقد تابعت حكايات اللصوص كثيرًا ، ولم أجد مستهزئًا به ، مقبوضًا عليه إلا «الغلبان» منهم الذي قد يسرق آنيةً أو حذاءً أو لحافًا ممزقًا !! ولم أر فيما اطَّلعت عليه نكتة تهزأ من لص صاحب ملايين ، أو من حاكم لص سرق المال والحكم من أهله !! أيعود هذا إلى أن معظم اطلاعاتنا ومراجعنا في هذا المجال « قديمة » وكان القدامى متواضعين في سرقاتهم ، وكانوا يلجؤون إليها حماية لأنفسهم ـ ولبعض الفقراء ـ من الجوع كصعاليك العرب في الجاهلية مثلًا ؟!! أم يرجع إلى أن اللصوص الكبار يغطون لصوصيتهم بالنفوذ ، والتحكم ، وتوجيه وسائل الدعاية والنشر ـ قديمًا وحديثًا ـ لصالحهم ؟!! ربما هذا ، وربما ذاك ، وربما السببان معًا ، وغيرهما ، لكن لنبق نحن مع اللصوص الغلابة وحكاياتهم !!

« قبض على رجل بتهمة سرقة بقرة ، ثم عرض على مشهد من الناس في الشارع مقيدًا بالأغلال ، فسأله صديقه الذي مر بهذا الشارع في ذلك الوقت : ما الذنب الذي ارتكبته حتى تعرض هكذا أمام الناس ؟ فأجابه الرجل : إنني رجل مشؤوم كما ترى ، كنت هذا الصباح أتجول في الشارع ، فوجدت على الأرض حبلًا مضفورًا من القش ، فتناولته لأستخدمه فيما بعد لربط شيء ما ، فقال صديقه : هذا أمر

بسيط، فكيف تعامل هذه المعاملة السيئة ؟ أجابه ثانية : لكن كانت هناك بقرة صغيرة مربوطة بالطرف الآخر من الحبل »[1] .

وهذا اللص الصيني الصغير على حق لسببين :

الأول : أن الحبل هو الذي سرق البقرة !!

الثاني : أن البقرة غبية ، فهي لم تذكر له أنها مربوطة بهذا الحبل الذي يشده !!

وعلى الرغم من صغر سرقة هذا الرجل الصيني ، وكبر فضيحته التي تشبه ما كان يفعله رجال الشرطة في الدولة الفاطمية والأيوبية بمصر حين يسرق أحد المواطنين شيئًا فيضعونه معكوسًا على حمار ، وجهه في ذيل الحمار ووجه الحمار في ذيله !! ويغرقون وجهه بالدقيق ، ويدقون حوله الأجراس والنواقيس والطبول ، ويلفون به المدينة مسمين هذه الحالة من الفضيحة « الجُرْسَة » ، على الرغم من صغر هذه السرقة الصينية فإن في مصر ما هو أصغر منها بكثير ، فهذا أمير الشعراء البائسين : عبد الحميد الديب ، يهديه أحد أصدقائه لحافًا قديمًا مستهلكًا فيفرح به ؛ لأنه منقذه الوحيد من التغطي بورق الجرائد والالتصاق بأرض الشتاء وزمهريرها ، لكن الديب المنكود لم يكد يفرح بلحافه حتى سرقه لص ، فقال فيه :

لحافي ، وهل غير الهباء لحافي ؟	بقية نَسْج دارسٍ ونداف
أطاف به لص فقير كعيشتي	فيا بؤسها من هجرةٍ ومطافِ
ولم أخش من ذا الرُّزءِ إلّا فضيحتي	بأني قد مُلكتُ شر لحافِ
فليتك يا لصي الجريء وجدتني	غنيًا وسعدي في الحياة موافي
ويا ليتني ما كنت صيدك ، إنما	سرقتَ لحافي جاهدًا وشغافي

---

(١) طرائف من التراث العربي (ص٢٠٩، ٢١٠) .

ويـا ليتنـي دون اللحـاف ضحيةُ　　فـإني صـديقُ في الحيـاة مـوافي

فكـم ليلـة تحت اللحاف قضيتهُا　　أسـامر أحلامـي وطيـف سـلافي

وكـم ذا وقـاني الـبردَ في جُـنْح ليلـةٍ　　بهـا المـوتُ مـن كـل المواجـع شـافِ

لقد ضـاع مني ذا الغطاء، فهل تُرى　　أُدَثّـرُ شـعرًا ضـافيًا وقـوافي ؟!

وبمناسبة هذا الشعر الذي لا يمكن أن يتدثر به عبد الحميد الديب، كان بمصر في الخمسينيات شاعر اسمه خليل جرجس خليل، أصدر ديوانًا بعنوان: «أيام عشناها»، فلم يوزع الديوان غير عشر نسخ اشتراها الشاعر وآل بيته !! فأعلن خليل هذا توبته عن الشعر، ورحل في «حج» طويل إلى الولايات المتحدة الأمريكية لم يعد منه حتى الآن !! وفي هذه الواقعة المفجعة المضحكة قال الشاعر محمد التهامي:

يـا فـارسَ الشـعرِ مهـلًا　　فكـم قصـيدك صـارا

لـو كنـت تـاجرَ قـش　　جمعـت منـه النُّضـارا

أو كنـتَ حتـى تغنـي　　فتضـحك السـمارا

أو طفـتَ في ثـوب حـاوٍ　　ورحـت تأكـل نـارا

أحـرزت في النـاس جاهًـا　　ونعمـة ويسـارا

لكـن بليـت بفـن　　عرضـته أشـعارا

أنفقـتَ عمـرك فيـه　　وبـات يشـكو البـوارا

فقـد عرضـت الـلآلي　　فلـم تجـد تجـارا !!

وأقل درجةً من لص الديب لص آخر، «قال محمد بن سكرة: دخلت حمامًا وخرجت وقد سرقت مداسي فعدت إلى داري حافيًا، وأنا أقول:

إليـكَ أَذُمُّ حَمَّـامَ ابـن موسـى　　وإن فـاق المنـى طِيبًـا وَحَـرًا

تكـاثرت اللصـوص عليـه حتـى ليحفـى مـن يطيـف بـه ويعـرى
ولم أفقـد بـه ثوبًـا ولكـن دخلتُ محمدًا، وخرجتُ بِشْرا [1]

يقصد المحدِّث المشهور « بشر الحافي » !

وهناك درجة من اللصوصية لا درجة تحتها : من يرغب في السرقة فيُسرق هو !!

ومما يشاع بهذا المعنى في الصين أن لصًا تسلل « إلى بيت رجل فقير يبغي السرقة ، ولكن لم يجد في البيت شيئًا ثمينًا إلَّا وعاء أرز فوق السرير ، فقرر أن يسرق ما فيه من الأرز ، فخلع ثوبه ونشره على الأرض بغية وضع الأرز فيه ليحمله بسهولة ، وفي ذلك الوقت استيقظ صاحب البيت ، فرأى حركات اللص بكل وضوح تحت ضوء القمر فأسرع يسحب خلسة ذلك الثوب المفروش على الأرض ، وأخفاه تحت السرير ، وبعد قليل استيقظت زوجته فسألته : سمعت صوتًا خفيفًا في غرفتنا ، أخشى أن يكون لص دخل بيتنا فقال زوجها : أنا مستيقظ من مدة طويلة ، ولم أجد لصًا أبدًا ، وفجأة صاح اللص بعد أن سمع كلام صاحب البيت : كيف تقول بأنْ ليس هناك لص ؟ فمن سرق ثوبي الذي وضعته على الأرض إذن ؟! » [2].

وهذي الحكاية الضاحكة تعد إحدى حِكَم الصين : فهي تحذير عملي لكل من يرغب في سرقة « الغلابة » بأي شكل من أشكال السرقة ، فهو الذي سوف يُسرق في النهاية ، وسوف يفضح نفسه بنفسه !!

غير هؤلاء اللصوص الحقراء ربما وجد لصوص « عديمي الذوق » !! فذات ليلة عاد الفنان التشكيلي بيكاسو إلى منزله بصحبة أحد أصدقائه ، فوجد أثاث داره

(1) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١٢١) .

(2) فكاهات صينية (ص١، ٢) .

مبعثرًا ، والأدراج محطمة ، دليل اقتحام اللصوص للمنزل في غيبة صاحبه وسرقته ، وحين عرف بيكاسو ما سطا عليه اللصوص ، بدا عليه الحنق الشديد ، فسأله رفيقه : هل سرقوا شيئًا مهمًا ؟ فأجابه الفنان : كلا ، لم يسرقوا غير أغطية الفراش ، فعادَ صديقه مندهشًا يسأله : إذن لماذا أنت غاضب ؟ فقال بيكاسو في انكسار : يغضبني أن هؤلاء لم يسرقوا شيئًا من لوحاتي !!

وليس الحق مع بيكاسو في هذا ، إن للناس فيما يعشقون مذاهب ، ربما كان هؤلاء اللصوص يحبون اللوحات الواقعية لا السيريالية ، وربما كانوا من عشاق الموسيقى ولم يعثروا على مقطوعة يسرقونها ، ولكنهم في كل الاحتمالات يفهمون في « فنون السرير » ولهذا فقد سرقوا الأغطية ، فانحصرت الجريمة في بعض المتزوجين حديثًا !!

كيف ـ إذن ـ يمكن اكتشاف حالات السرقة هذه ؟! إن لدينا علاجًا قديمًا وشهيرًا ، روي عن « محمد بن كعب القرظي قال : جاء رجل إلى سليمان النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ، إن لي جيرانًا يسرقون إوزّي ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم ، فقال في خطبته : وأحدكم يسرق إوزة جاره ، ثم يدخل المسجد ، والريش على رأسه ، فمسح رجل رأسه ، فقال سليمان : خذوه إنه صاحبكم »[1] .

لكن من لنا بسليمان في هذا الزمان الذي لا يكفيه مليون سليمان ليحصوا السرقات « السمينة » ؟!!

***

وهناك نوع آخر من أمراض المجتمع ، سجله الإنسان الساخر بقلمه ، ورفعه

(1) فكاهات صينية (ص٣٣، ٣٤) .

سيفًا على كل رقبة توبَأ به ، ذلك هو الرشوة التي تعد من الأسباب الثابتة لسقوط كثير من الدول ، وما يُؤْثَر في السخرية من هؤلاء المرتشين أن أحد الموظفين الكبار اختلس مالًا « فعوقب على جريمته هذه وعُزل من منصبه ، ثم أُرسل إلى محافظة صغيرة بصفته محافظًا جديدًا ، وكان في هذه المحافظة موظف صغير ، فأراد أن يختبره ليرى هل ما زال شغوفًا بالمال ؟! فصنع دمية من الفضة ، وزنها نصف كيلو جرام . ووضعها على طاولة في قاعة الاستقبال ، ثم دخل الغرفة الداخلية ، وقال للمحافظ الجديد : شقيقي ينتظركم في قاعة الاستقبال ، فتفضلوا بلقائه ، لم يكد المحافظ يسمع كلامه حتى أسرع إلى قاعة الاستقبال ، فرأى الدمية الفضية على الطاولة فوضعها في جيبه وهو في غاية السرور ، وبعد فترة أساء هذا الموظف الصغير إلى المحافظ الجديد ، فحكم عليه بالإعدام ، وقبل تنفيذ الحكم عليه توسل إلى الموظف قائلًا : أرجو عفوكم وصفحكم عن ذنبي مراعاة لشقيقي الذي قابلته في غرفة الاستقبال ، فأجابه المحافظ الجديد : شقيقك أحمق ، لِمَ لم يأتني مرة أخرى ؟! »[1] .

فهذا موظف ذو غرض ثنائي : الاختلاس والرشوة ، وهناك موظفون متعددو الأغراض ، وليس خافيًا أن كل موظف يعين حديثًا ، أول ما يسأل عنه هو المكتب ، لا ليجلس عليه ويقضي مصالح الناس ، بل ليفتح أدراجه ويتلقى فيها النفحات !!

***

وإذا كانت العيوب البشرية كالسرقة والرشوة والاختلاس أمراضًا اجتماعية يجب علاجها بالحقن أو بالكي أو بالبتر في كل القوانين ، فإن هناك مرضًا لا يعاقب عليه القانون ، لكنه ينال من استخفاف الشعوب ما يدْفع صاحبه للانتحار !!

---

(١) فكاهات صينية (ص٣٥، ٣٦) .

وقفت سيدة إيطالية « ذات أناقة مفرطة أمام البائع في إحدى المكتبات مترددة، وهو يعرض عليها سلسلة من الكتب لتختار منها، وبما أنها لم تستطع أن تقرر، فقد سألها البائع: إن كانت تفضل قراءة شيء بعينه.

فأجابت: بالتأكيد لا، لكن كنت أريد كتابًا أدبيًا مسليًا، كتابًا أقطع به الوقت دون أن يرهق عقلي.

فقال البائع: تريدين كتابًا خفيفًا إذن ؟! أجابت: لا، لا يهم أن يكون خفيفًا فمعي السيارة أمام المكتبة !! »[1].

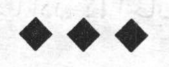
فهؤلاء النسوة الفارغات المضمون والرؤوس لسن بضاعة عربية فقط إنما هُنَّ في كل شعوب العالم، تحمل إحداهن ثراء المال وفقر العقل، وتحكم على كل الأشياء بمفهوم مادي استعراضي، فلابد أن تذكر أن لديها سيارة وتقف أمام المكتبة لينظر البائع فيبتئس هو، ويعظِّمها هي - كما تظن !! ومن الواضح أن هذه الحكاية المضحكة ليست لاذعة كما هو حال الضحكات العربية أو المصرية على وجه التحديد، وهي تميل إلى الإشارة والإيحاء والاقتضاب، أما موروث الضحك في الصين - من خلال متابعتي لكثير جدًا منه - فيميل إلى الإطالة والاستطراد والإيضاح وربما التكرار، وهذا الملمح في الغرب - كإيطاليا - وفي الشرق - كالصين - يتكئ على طبيعة الناس، ونمط حياتهم، ومدى تقييمهم للوقت، وثقتهم في عقول سامعيهم.

وغير هذه المرأة المظهرية الإيطالية، هناك نموذج صيني أكثر جهلًا وإثارة للسخرية والشفقة معًا، ذلك أن خادمًا جاء يحمل « رسالة إلى أحد الأغنياء ليستعير

(١) ضحكات إيطالية من كتاب: Leggiamo econversiamo G.Battaglia (ص٤٩).

منه ثورًا ، وكان الغني لا يعرف القراءة ، لكن فتح الرسالة أمام ضيوفه ، وتظاهر بقراءتها خوفًا من أن يسخر منه الحاضرون لعدم قدرته على القراءة ، ثم رفع رأسه وقال للخادم : حسنًا ، سآتي بنفسي بعد لحظة !!»[(١)] .

وهو ما دام غنيًا ، فمن المؤكد أنه سمين الكتفين ، ممتلئ عافية ، فلا ضير أن يحل محل الثور في جر المحراث !!



(١) فكاهات صينية (ص٦١) .

النكتة ، وأخواتها !!

إذا نقَّبنا عن مرادف لغوي للفظة « نكتة » وعلى وزنها نفسه ، فإن أبرز ما يقفز للذهن هو لفظ « نبشة » ، فهذا المصطلح من مصطلحات الضحك يعني لغويًا النبش في التراب - أو الأرض - بعود من الخشب أو عصاة للبحث عن شيء دقيق خفي ، وكذا تكون « النكتة » التي تنبش في اللغة وفي الرؤوس وفي المواقف لتخرج عبارة كطلقة رصاص مفاجئة ، وهذا النوع من الإضحاك هو أشهر أنواع المضحكات ، حتى إنه يطلق على كثير منها بغير تفريق ، ذلك لقدم جريانه على الألسنة ولسهولة حفظه ونقله وروايته وتأليفه أحيانًا .

قديمًا عاد جحا إلى منزله يحمل بطيخة ، فقالت له زوجته : لقد طلبت منك أن تشتري لي بطًا ، فلماذا اشتريت بطيخًا ؟ فرد جحا خذي منها « البط » ، واتركي الباقي !!

هكذا اللعب باللغة أو نكْتها باللسان لإخراج معنى ضاحك ، ومن نماذجها القديمة أيضًا في هذا الإطار اللغوي أن شابًا أطال المكث عند الصاحب بن عباد وجاءت الناس وخرجوا ، وهو مقيم ، فقال له الصاحب : من أين أنت ؟! فقال الفتى : من قم ، فرد الصاحب : فإذًا قُم !!

ومن النكت ما يصنعها تأليف المتناقضين ، وتروى غالبًا بعبارة : « مرة واحد » أو « مرة واحد صاحبنا » أو « واحد صعيدي » وهكذا ، وكان عبد الله النديم قد عمل فترة تاجر خردوات فلم يشغله العمل « العابر » عن العمل « الأصلي »

كمنكتاتي !! فأخذ ينكت على زبائنه .

قال : واحد فلاح امبارح طلب مني عمه صيفي ، واحد خواجه أسلم ولف شال على البرنيطة ، واحد زبون عاوز يشتري فانلة بياقة !!

وهذا النمط من النكتة ـ إضافة إلى بنائه على التناقض ـ يجري في لغة سهلة ، لكنها ليست مبتذلة بل هي عامية أقرب ما تكون إلى العربية الفصحى ، لأن تداولها لا يقتصر على الطبقات الدنيا ثقافيًا ، بل هي تجري على كل لسان ، وتمر بسائر الآذان ، فالنكتة الأولى يمكن تقديمها بالفصحى هكذا : « طلب مني « واحد » فلاح البارحة عمامة صيفية » ، وهكذا لم نزد ولم نحذف لفظًا لتحويلها إلى الفصحى ، وإنما غيرنا بعض مواقع الكلمات .

ولفظة « واحد » هذه بدل للفلاح يمكن تثبيتها ويمكن حذفها ، والنكتة الثانية تقال بالفصحى هكذا : « واحد ـ خواجه ـ أسلم ولف شالاً على البرنيطة » ، بغير أي تقديم ولا تأخير ، لكن بتنوين لفظة « شال » فقط .

ثم هناك النكتة الثالثة التي قد توحي ببعض الغرابة عن الفصحى لوجود كلمات : عاوز ، ياقة ، فانلة ، أما الياقة فهي عربية ، وأما « فانلة » فهي لفظة مجلوبة شاعت كلفظة « أرشيف » و« تكنولوجيا » ، وأما لفظة « عاوز » التي تتكرر في اللهجة العامية كثيرًا فهي من « العَوزَ » والفعل : عاز يعوز أعوزه ، بمعنى الحاجة ومشتقاتها ، فهي في مثل هذه العبارات احتلت مكان غيرها من الألفاظ ، مثل عبارة « يرغب في » أو « يحتاج إلى » ، ولفظة « زبون » عربية ، نقول : زبون وزبائن ، وزبانية جهنم ـ والعياذ بالله !!

فهذه النكات لأن منشأها عربي سارت في المجرى العربي مع الخفة ليسهل نقلها وحفظها ، ويمكن أن نجد لها أشباهًا في اللغات الأوربية الحديثة ، فإحدى النكات

الإيطالية تقول :

«عفوًا ، ما اسم سيادتك ؟

بيانكو .

هناك جبل أيضًا بنفس هذا الاسم .

نعم ، ولكني لست أنا !! [(١)] .

فهي هنا تسير على هَدْي النكتة اللغوية العربية .

وربما اعتمدت النكتة في الإضحاك على الإجابة غير المتوقعة والتبرير غير المنطقي ، ولكي تصل إلى هذه النتيجة فلابد أن تصاغ من حدث بسيط عابر ، يقال : إن مأمون الشناوي كان يركب سيارة مع صديقه فقال لصاحب السيارة :

ما تحاسب شوية ، فرد الصديق :

أصل الشارع كله مطبات ، فقال مأمون :

مش معقول المطبات دي كلها في الشارع ، دا لازم مطب لزق في العجلة !!

وسيارة أخرى قديمة كان يركبها إمام العبد مع صديقه ، ثم انقطع عن ركوبها فترة من الزمان ، ولما سألوه عن السبب ، قال : يا عم أنا ركبتها أسبوع نعل جزمتي داب !!

ووقف العبد هذا مع صديق له يتفرج على مشاجرة لفظية ساخنة بين اثنين لا يكفان عن الشتائم ، وكلما اقتربا من بعضهما وهَمَّا بالتشابك بالأيدي ، تراجعا ، وتشاتما ، ثم يعيدان الاقتراب والتراجع ، ومرت نصف ساعة ولم تمتد يد أحدهما إلى الآخر ، والعبد متشوق لمباراة مصارعة فخاب ظنه ، فقال لصاحبه : يا عم يا للابنا ،

---

(١) ضحكات إيطالية : Leggiamo e conversiamo (ص ٢٠) .

دي إشارة بس لكن الخناقة الأسبوع القادم !!

وفن النكتة هذا أكثر الفنون رواجًا ، لكن هناك نوعًا آخر شبيهًا به في بساطته وسرعة وقعه ، لكنه انقرض تقريبًا هذا الزمان ، ذلك هو ما يسمى « بالقافية » التي كان ملعبها الرئيسي هو المصاطب وجلسات « الجوزة » وهي أيام انقطعت عنا وانقطعنا عنها ـ للأسف !! ـ وهي تميل إلى ذوق غير المثقفين أكثر من اقترابها من الذوق المثقف ، ومن أمثلة هذه القافية :

لما تخش بيتكو .

اشمعنى ؟!

يبقى فيه تيس !!

فهي تقتضي وجود اثنين : متحدث أساسي ، وآخر يقول لفظة : اشمعنى ، كأنه « سنيد » أو كومبارس في المسرح !! وقد يتبادلان الأدوار ، وهو غالبًا ما يحدث ، أما إذا لم تنطق لفظة « اشمعنى » هذه فسوف تختنق القافية ، ولن تكتمل .

فما هي ـ إذن ـ حكاية « اشمعنى » هذه من المنظور اللغوي ؟!

هي عبارة ليست كلمة ، وهي كاملة « أي شيء يعني ؟! » ، فتحولت إلى إيش يعني ، فحذفت الهمزة من « شيء » ثم تطورت إلى « إيش معنى » ، وأدغمت اللفظتان مع نقل الهمزة المفتوحة إلى مكسورة ، لتتناسب مع الياء في « إيش » إنه مجرد « نحت لغوي » على الرغم من ظن كثيرين أنها بغير معًنى وغير فصاحة .

***

وفي النصف الأول من هذا القرن ازدهر فن « الحلمنتيشي » ، ذلك النوع من الكلام الموزون المقفى ، الذي « ينتش » المعنى الأصلي من قصائد عربية مشهورة ، ثم يحرفه ليسقطه على الواقع الراهن : ساخرًا من عظمة الشعر القديم ـ تلميحًا ـ

ومن حقارة الزمن الراهن تصريحًا .

واللغة فيه مزج من الفصحى والعامية ، فتبدو « مرقَّعة » كثياب المهرجين ، فتثير الضحك ، وربما تثير الحزن معه .

وربما بدأت ملامح « الحلمنتيشي » تتجمع منذ تدهور الشعر العربي بعد الدولة الفاطمية ، وتدني اللغة لتدني مستويات التعليم ، والكاتبين بها فسار هذا التدني في اتجاهين : الزجل ، الذي هو شعر ضل الطريق فكتب بالعاميات العربية بدل الفصحى .

والاتجاه الثاني هذا الحلمنتيشي ، فليس غريبًا أن نرى الغالبية الغالبة ممن يمارسون الحلمنتيشي من الزجالين ، مثل : حسين شفيق المصري ، طه محمد خراز ، عبد الله أحمد عبد الله .

وقد صاغ حسين شفيق المصري سبع « مشعلقات » حلمنتيشية في معارضة المعلقات السبع ، وشاعت المشعلقات شيوع المعلقات حينذاك ، لكن مشعلقاته لم تكتب بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة ، بل كانت « تُنْقَش » بماء الفسيخ ، وتعلق على دورات المياه !!

قال معارضًا طرفة بن العبد في معلقته التي مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

قال المصري :

لزينب دكان بحارة مُنجد تلوح بها أقفاص عيش مقددِ
وقوفًا بها صحبي على هزارها يقولون : لا تقطع هزارك واقعد
أنا الرجل الساهي الذي تعرفونه حويط ، كجن العطفة المتلبِّد

فما لي أراني وابن عمي مصطفى ... متى أدنُ منها ينأ عنها ويبعد
يقول وقد ألقى الرغيف وسابني : ... ألست ترى زوجها عويس بن أحمدِ
فلما تناغشنا الغداة وهزرتْ ... معانا ، وأعطتنا بتارولاً بموعدِ
رأت زوجها يدنو فغطت «بزازها» ... بشال طويل كالملاية أسودِ
وقالت : يا لهوي جتكم نيلة امشوا ، من هنا ... أفندية إيه دول؟ جوزي شايف دا شيء ردي
فأقبل زوج البنت يلعن أمها ... ويسعى إلينا بالمداس المهربدِ
فلا خير في خبص ترى الضرب بعده ... ولا هاجم يأتيك بعد الترصدِ
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ... ويأتيك « بالمركوب » من لم تهددِ

وغير المعارضات هذه يقدم الحلمنتيشي معالجات لمشكلاتنا الفردية أو الجماعية الحديثة ، قال طه محمد حراز في مجلة البعكوكة القديمة :

إليكم ما جرى فالصمتُ عيبُ ... وأنتم أصدقاء مش أعادي
يميل القلب للمحشي فقلنا ... نجيب كرمبة ترضى فؤادي
ثلاث برايز ثمن الكرمبا ... كأنا قد دخلنا في مزاد
وليس بها من الأوراق إلا ... وريقات وقد ذبلت قصادي
دعوا ورق الكرنب على هواه ... خذوا منا طريقتنا السنة دي
ففي ورق الجرايد خير محشي ... عليه وحده كل اعتمادي[1]

وفي عشق وهيام بالطلعة البهية ، للحوم الحيوانية ، زار حراز الجزار - في نزهة - فقال :

ذهبت إلى الجزار يومًا لفرجةٍ ... على ما يسمى من البهائم ضاني

---

(١) عبد الله أحمد عبد الله : اضحك مع البعكوكة ، ط مكتبة مصر ، عام (١٩٩٣ - ص١٢ ، ١٣) .

فكـبرت للجـزار حـين رأيتـه ... وكـبر بالسـاطور حـين رآني

وقلـت لـه : مـا اسـم البتاعـة هـذه ... أتلك التي تـدعى لحـوم صواني ؟!

فزغـزغ بالسـكين جنبـي وقـال لي ... سـتدفع أجـرًا إن وقفـت كـماني

فأطلقـت سـاقي للريـاح لأننـي ... وجدت ضمان العمر في الزوغان !!

وربما يتساءل الباحث في هذا المجال : أين ذهب هذا النوع من الكتابة التي تخفف عنا ، حين نقرؤها الآن في أزمتنا العريقة المستعصية التي تنجب كل يوم طابورًا من الأزمات ؟! نقول ـ حسب تصورنا : إن الإعلام الحديث غير كثيرًا من الثوابت وقلب كثيرًا من الأصول ، فالإعلام الحديث ـ وخاصة الإذاعة المسموعة والمرئية ـ اتخذ من الصياغة الدرامية إناءً تصب فيه المضحك والمحزن من الفنون ، فتراجع من هذه الفنون ما يخلو أولا يقوم على الحدث المتشابك المتطور ـ أي البناء الدرامي ـ ومن هذا الذي تراجع فن الشعر ، لأنه لا يُغني كثيرًا ، لعجز الأصوات الحالية عن أدائه ، وعجز الملحنين وأشباه الملحنين عن التعامل معه ، وتراجع الزجل والحلمنتيشي وكثير من الأشكال التقليدية للضحك ، لكن النكتة بالذات تساير وسائل التوصيل الحديثة من خلال أشرطة الكاسيت التي ينشرها فيها أمثال فكري الجيزاوي وخلفائه ، كما تقدمت فنون ضحك راقية أخرى كفن الكاريكاتير الذي يجمع بين النكتة والرسم ويفهمه كل طبقات المجتمع .

ويسير مع هذا السبب لتراجع الزجل والحلمنتيشي ما تشبع به الناس ـ بعد ثورتنا الأم في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ من رؤية قومية واسعة طموح تتجاوز المفاهيم الإقليمية الشعوبية الضيقة ، وتسعى إلى غرس مفاهيم الإحساس الواحد والمصير الواحد والواقع الواحد ، وما يكتب باللهجات العامية والروح المغرقة في المحلية

(١) اضحك مع البعكوكة (ص ١٣، ١٤).

المصرية قد لا يتفق مع الروح العربي العام ولا يسايره ، ولا يصلح لتناول القضايا الكبرى التي تحتاج إلى جدية وعمق ، إضافة إلى ما في هذا الحلمنتيشي من تعريض بجزء من تراثنا الحضاري ـ الشعر ـ وتشويهه بحيث يمكن أن يؤثر في الناس بعامة والنشء وغير المثقفين بخاصة .

أما ما ينتظر من مستقبل لفنون الضحك فهو استمرار تقدم « التمثيليات » الدرامية والمسرح اللاهي والكاريكاتير ، وليست النكتة بمتأثرة سلبيًا بهذا الحال .

ولا تعني هذه الرؤية أن الحلمنتيشي قد انقرض تمامًا ؛ لأن بعض الفنون قد تزدهر في زمن وقد تخفت في آخر ، لكن لا تنقطع للأبد ما دامت جديرة بحمل مصطلح « فنون » .

فالمقامة ـ مثلًا ـ كفن عربي خالص ـ لم تنته تمامًا بعد الهمذاني والحريري ، بل قدم فيها المويلحي ـ حديثًا ـ إضافة جديدة ، والملاحم الشعرية ـ التي يمتد تاريخها إلى آلاف السنين ـ ما زالت في فتوتها ونشاطها في سائر اللغات .

وحديثًا من هذا الكلام الحلمنتيشي قال د. مصطفى رجب :

رحتُ في الصبح إلى الشغل بنفسٍ مش تمام
فإذا اليوم اجتماع بالمديرين العظام
كلهم بالعطر مغسول و« لبلب » في الكلام
فإذا خَلَّص شخص ، غيره في التو قام
وأنا أنظر حولي ، في وجوم ، وانسجام
فإذا أكبرهم سنًا على الكرسي نام !!
غمزوه ، فصحا يصرخ : إخواني الكرام
« نحن نبني مصر فامضوا في بناها باهتمام »

قال باقينا : سمعنا ، وأطعنا ، يا سلام
كل شيء مستقر ، وتمام في تمام !!

***

ومع الفنون الصحفية والإذاعية سماعًا ورؤية تتضح معالم فن ضاحك قديم جديد ، هو ما يمكن أن نسميه « القصة الضاحكة » ، ومصطلح « القصة » هذا نقوله مجازًا ، فليس شرطًا أن يقوم على بناء القصة بالمعنى النقدي الحديث ، لكنّ فيه حدثًا وأشخاصًا ، وربما الزمان ، ويصيب في هذا ما يصيب من الضحك ، وقد تجيء القصة نثرًا ، أو يغلب عليها الشعر أو تجمع بين هذا وذاك .

تتدرج مثل هذه القصص ـ من ناحية الحجم والبناء ـ من حكاية بسيطة تنتهي بضحكة إلى شيء أقرب ما يكون للقصة القصيرة بمفاهيم هذا الزمن : سئل أحد الظرفاء : إلى أين ؟ قال : إلى السوق لأشتري حمارًا ، فقيل له : قل إن شاء الله ، قال : وما وجه الاستثناء ؟! الدراهم في جيبي والحمير في السوق !! فلما ذهب سُرقت منه الدراهم ، فعاد حزينًا ، فقيل له : ماذا فعلت ؟ قال : سرقت الدراهم إن شاء الله !!

ثم تميل الحكاية إلى بعض التركيب ، فنرى نمطًا منها في كتاب « الشاعر عبد الحميد الديب .... حياته وفنه » ، حيث كان الديب بصحبة صديقه الدكتور عبد الرحمن عثمان في زيارة إلى منزل المرحوم طاهر حزين الذي كان يعجبه شعره ، فراعه أن يراه في ملابس رثة ، وحذاء متهرئ بالٍ ، فخلع عليه بذلة جديدة وحذاءً جديدًا لامعًا ، وصباح اليوم التالي قدم الشاعر بهذه الهيئة الجديدة الفخمة متباهيًا في مشيته ، أنفًا في تعامله مع أصدقائه ، واضعًا رجلًا فوق رجل ، حتى يكاد حذاؤه يلامس وجوههم ، كأنه ينتقم من حالته السابقة بإخفاء حذائه الممزق تحت الكرّسي ، ثم انفجر ضاحكًا لهذه الحالة التمثيلية التي رسمها وأنشأ يقول :

نَعْـلٌ تعـالى عـن الإكبـار والعِظَـم   تَـوَّجْ بـه الـرأسَ لا تلبسْـه في القـدم

لو كـان في رجـل «موسى» يـوم موعـده   لكـان أقـدسَ مـن وادٍ ومـن عَلَـم

في هذا المستوى من بساطة تركيب الحكاية ـ أو القصة ـ يقال: إن أينشتين كان لا يستغني أبدًا عن نظارته، وذهب ذات مرة إلى أحد المطاعم، واكتشف هناك أن نظارته ليست معه، فلما أتاه الجرسون بقائمة الطعام ليقرأها ويختار منها ما يريد، طلب منه أينشتين أن يقرأها له فاعتذر الجرسون قائلًا: إني آسف يا سيدي، فأنا أميٌّ جاهل مثلك!!

والنسيان عند أينشتين لم يكن يقتصر على نظارته الطبية التي تقوده فقط، بل قد ينسى طعامه نفسه، وقد دعا صديقًا له ليتناول الغداء معه، وبعد إعداده الطعام وضعه على المائدة، ثم دخل إلى معمله حتى يحين موعد حضور صديقه الذي كان يحمل مفتاحًا لبيت أينشتين، فحضر، وانتظر طويلًا خروج العالم من المعمل فلم يخرج، ولم يرد الصديق أن يقطع عليه أبحاثه فأكل وشرب وانصرف، وعندما خرج أينشتين من معمله، ناسيًا أنه قد دعا صديقه للغداء معه، وجد بعض الأطباق فارغة، فصاح قائلًا: يا إلهي، لقد تناولت غدائي، وأعود الآن لتناوله مرة أخرى!!

ماذا نرى من مثل هذه القصص الضاحكة لو عدنا للخلف عدة قرون لننظر في تراثنا العربي؟!

يحكى أن بشارًا قدم إلى بعض أصدقائه يومًا مغتمًا، فقالوا له: ما لك مغتمًا؟! فقال: مات حماري فرأيته في النوم، فقلت له: لِمَ متّ؟! ألم أكن أحسن إليك؟! قال:

سـيدي خُـذْ بي أتانـا   عنـد بـاب الأصـفهاني

تيمتني ببنانٍ وبِدَلٍ قد شجاني
تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان
وبغنجٍ ودلالٍ سَلَّ جسمي وبراني
ولها خَدٌّ أسيل مثل خَدِّ الشيفرانِ
فلذا مت ولو عشت إذًا طال هواني

فقيل له : وما الشيفران ؟! قال : ما يدريني !! هذا غريب الحمار ، فإذا لقيته فاسأله !!

فهذا حب حميري رومانسي لا يقل عن حب قيس بن الملوح الذي جُنَّ بليلى راعية الغنم التي كانت تجري بين الصخور حافية ، وشقوق رجليها تختفي فيها الثعابين !! لكن ـ رغم ذلك ـ حب الحمار كان أصدق من حب قيس ؛ لأن الحمار مات ـ رحمه الله !! فكان شهيد الحب ، ولم يكن مجنون الحب فقط !!

وهي حكاية من أبسط ما يصوغه الخيال العادي ، فبشار بن برد تخيَّل لو أن حمارًا أحب أتانا ومات بها عشقًا ، ثم نسج هذه الأبيات ، وقدمها في « لفافة » مشوقة.

ثم تميل القصة التراثية الضاحكة إلى شيء من التركيب من خلال هذه الأحداث : كان القاضي أبو القاسم التنوخي نائمًا في أحد الأيام فاجتاز واحدٌ غثٌ وأزعجه مما يصيح : شراك النعال ، شراك النعال ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل في البيت وأعطها لهذا يصلحها ويشتغل بها حتى لا نسمع مرة ثانية صوته المزعج ، ثم نام ، وأصلحها الإسكافي واشتغل بها إلى آخر النهار ومضى لشأنه ، فلما كان في اليوم الثاني فعل في المرة الأولى فلم يدعه ينام ، فقال للغلام : أدخله ، فأدخله ، فقال له : يا ماص بظر أمه [1] ، أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا

(١) سباب كان قديمًا يتردد على ألسنة العرب .

نتصافح بالنعال ونقطعها ؟! قفاه ، قفاه ، فقال : يا سيدي أتوب ولا أعود أدخل إلى هذا الدرب أبدًا » [١] .

ثم تبرز اللحظة القصيرة كعنصر من عناصر القصة الحديثة في حكاية الحطيئة حينما حضرته الوفاة ، واجتمع إليه قومه ، فقالوا : يا أبا مليكة ، أَوْصِ ، فقال : ويل للشعر من راوية السوء ، قالوا : أوصِ رحمك الله يا حطيئة ، ألك حاجة ؟ قال : لا والله ولكن أجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس أهلًا له ، قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأومأ بيده إلى فمه وقال : هذا الحُجَيْرُ إذا طمع في خير ، واستعبر باكيًا ، فقالوا له : قل : لا إله إلا الله ، وقالوا له : ما تقول في عبيدك وإمائك ؟ فقال : عبيدٌ قِن ما عاقب الليل والنهار ، قالوا : أوص للفقراء بشيء ، قال : أوصيهم بالإلحاح في المسألة ، فإنها تجارة لا تبور واست المسؤول أضيق ، قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر ، قالوا : ليس هكذا قضى الله ﷻ لهن ، قال : لكني هكذا قضيت .

قالوا : فهل شيء تعهد فيه غير هذا ؟ قال : نعم ، تحملوني على أتان [٢] وتتركوني راكبها حتى أموت فإن الكريم لا يموت على فراشه ، والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط ، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول :

لا أحــدٌ ألأم مــن حطيــه ... هجــا بنيــه وهجــا المُريــه

مــن لؤمــه مــات عــلى فُريــهْ [٣]

---

(١) طرائف من التراث العربي (ص ١٦٠، ١٦١) .

(٢) الأتان : أنثى الحمار .

(٣) الفُريَّةُ : الأتان .

هنا اللحظة المكثفة الحرجة : لحظة خروج الروح ، ومع ذلك نرى أبعاد شخصية البطل واضحة تلخص حياته كلها بما فيها من طمع وبخل وبذاءة لسان .

ونرى فيها جانبًا مضيئًا أيضًا حينما ساوى في الميراث بين الفتاة والصبي ، فأقر مبدأ سبق زمانه بأكثر من ألف عام ، ونرى في هذه القصة « بطولة حيوانية » أيضًا هي الأتان التي تُختم بها القصة ، فتكون آخر ما يشاهد المتلقي لهذا الحدث .

في « قصة » أخرى نرى الصراع أكثر وضوحًا ، وفيه ريح المفاجأة ، فقد غذا أشعب جديًا بلبن زوجته وغيرها من النساء حتى بلغ الغاية ، ثم جاء به إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد فقال : بالله إنه لابني ، قد ضرع بلبن زوجتي وقد حبوتك به ، فلم أرَ أحدًا يستأهله سواك ، فأمر به إسماعيل فذبح وتناوله الضيوف ، وقال إسماعيل لأشعب : ما عندي اليوم شيء ، لكن ذلك غير فائت لك ، فلما يئس منه أشعب قام من عنده فدخل على أبيه جعفر بن محمد مندفعًا يشهق حتى التقت أضلاعه ، ثم قال : أخلني ـ أي أريد أن أختلي بك ـ قال : ما معنا أحد يسمع ولا عين عليك ، قال : وثب ابنك إسماعيل على ابني فذبحه ، وأنا أنظر إليه ، فارتاع جعفر وصاح : ويلك ! ولماذا ؟ ونريد ماذا ؟ قال : أما ما أريد فوالله ما لي في إسماعيل حيلة ، ولا يسمع هذا سامع أبدًا بعدك ، فجزاه جعفر خيرًا ، وأخرج إليه مائتي دينار ، وقال له : خذ هذه ولك عندنا ما تحب !!

لقد أحال أشعب لبن زوجته إلى تجارة رابحة ، تدر منها الرضعة دينارًا كاملًا ، رغم أنه وزوجته لو كانا قد بيعا ما وصل ثمنهما مائة دينار !!

ثم تميل الحكاية ـ أو القصة ـ العربية التراثية الضاحكة إلى شيء من التعقيد أو العقدة حين نقف معها ها هنا : كان أبو سعيد ماهك بن بندار المجوسي الرازي من كبار كتاب الديلم ، وكان يكتب لعلي بن سامان أحد قواد الديلم ، فأراد الوزير أبو

محمد المهلبي أن يُنْفِذ ماهكًا في بعض الخدم ، فقال له وقد أراد الخروج من عنده : يا أبا سعيد لا تبرح من الدار حتى أوقفك على شيء أريده معك ، فقال : السمع والطاعة لأمر سيدنا الوزير .

ونهض من بين يديه ، فقال الوزير : هذا رجل مجنون ، وربما كال بي الشغل وضاق صدره وانصرف ، فتقدموا إلى البواب ألا يدعه يخرج من الباب ، فجلس ماهك طويلًا ، وأراد دخول بيت الخلاء ، فقام يطلب ذلك فرأى الأخلية مقفلة ، وكان قد تقدم الوزير بذلك ، وقال : كانت دار أبي جعفر الصيمري منتنة الرائحة لأجل خلاء كان بها لعامة الناس ، فوجد ماهك الخلاء الخاص غير مقفل ، وعليه ستر مسبل ، فرفع الستر ليدخل ، فجاء الفراش فمنعه ودفعه ، فقال : يا هذا أليس هذا بيت خلاء ؟ قال : بلى ، فقال : أريد أن أعمل فيه حاجتي فَلِمَ تمنعني ؟! قال : هذا خلاء خاص لا يدخله غير الوزير ، قال : فبقية الأخلية مقفلة ، فكيف أعمل وقد جئت أخرج فمنعني البواب ، أفأخرى في ثيابي ؟!! فقال الفراش : استأذن في دخول بيت الخلاء ليتقدم لك بذلك ويفتح لك أحد الأخلية ، فتقضي حاجتك .

فاشتد به الأمر ، فكتب إلى الوزير رقعة قال فيها : قد احتاج عبد سيدنا الوزير ماهك إلى بعض ما يحتاج إليه الناس ولا يحسن ذكره ، والفراش يقول : لا تدخل ، والبواب يقول : لا تخرج ، وقد تحير العبد في البين والأمر في الشدة ، فإن رأى سيدنا الوزير أن يفسح لعبده بأن يعمل ما يحتاج إليه في بيت الخلاء فَعَل إن شاء الله تعالى ، والسلام .

ودفع الرقعة إلى بعض الحجاب ، فأوصلها إلى الوزير ، فلم يعلم ما أراد بالرقعة ، فاستعلم ما الصورة فعرف بها ، فضحك واستلقى على ظهره ، ووقع على ظهر الرقعة : يخرى أبو سعيد أعزه الله بحيث يختار ، إن شاء الله تعالى ، فجاءه الحاجب

بها ، فأخذها ودفعها إلى الفراش وقال : هذا ما طلبت ، وهو توقيع سيدنا الوزير ، فقال الفراش : التوقيعات يقرؤها أبو العلاء بن أبرونا كاتب ديوان الدار ، وأنا لا أحسن أن أكتب ولا أقرأ ، فصاح ماهك في الدار : هات من يقرأ صك الخرا !! فضحك فراش آخر وأخذ بيده ، وحمله إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته !!

وإذا كان من حق قارئ هذه الحكاية أن يضحك ، فمن حقي أن أجزم بأن بها ملخص سقوط دولة العرب الكبرى في العصر الوسيط !! حين وصل بها الحال بأن يطلب المواطن حقًا من حقوق الطبيعة فلا يستطيعه إلا بإذن الوزير !!

وحين يأذن له الوزير يمنعه جهل موظفي الوزير ، فماذا لو كان الأمر قتالًا على ثغور أو دفاعًا عن محارم ؟! وماذا لو أراد هذا الإنسان ـ المواطن ـ أن « يستحم » ؟! لا شك في أنه كان سيحتاج إلى صك من الخليفة نفسه !! إنه « الروتين » الذي ورثناه من دولة كانت تقود العالم ، قبل أن يتسلل السوس وينخر في عقلها وعظامها .

وعلى الرغم من أن الحدث في الحكاية يبني على مسألة تافهة جدًا فإنه لا يمكن تجاهل ما فيه من « عقدة » بدأت تُرسَم خطوطها حتى وصلت إلى الذروة ، ثم أتى الحل بعد حين ، وهنا اللحظة ضيقة متوترة أيضًا .

هذا هو تراث نوع من المضحكات « القصة الضاحكة » ، فماذا عن حديثه لدينا كعرب ؟ إن النية في القديم لم تكن مبيتة لصياغة هذا النوع من الإضحاك بطريقة بذاتها ، أما في زماننا الحديث فقد أضحت هذه النية قائمة ، وسجل بعض الكتاب من أجيال عديدة قصصًا ضاحكة ـ ومرة أخرى نطلق مصطلح القصة مع بعض المرونة ـ من هؤلاء : محمد عفيفي ، محمود السعدني ، إميل حبيبي ، فتحي سلامة ، محمد مستجاب ، وأحدث هذه السلسلة : مجدي صابر ، ويوسف معاطي ، قدموا لنا ـ غالبًا ـ قصصًا سريعة ، وأحيانًا روايات طويلة كرواية « المتشائل » لإميل

حبيبي و« عريس فتكات » لمجدي صابر ، وللرواية هذه مكان بين الدراسات النقدية أفسح من مكانها هنا .

فماذا عن الحكاية أو القصة القصيرة الضاحكة ؟

كتب محمود السعدني يقول : « ما زلت أذكر كل شيء كأنما حدث بالأمس ، كُتَّاب الشيخ محمد وتلاميذه الفقراء ، أتعس تلاميذ على وجه الأرض ، جلابيب وشباشب وجزم برقبة وألواح إردواز ، وأصابع طباشير ، وفي جيوب بعضهم ملاليم ، والشيخ محمد قصير كأنه تلميذ نسيه أهله فشاب شعر رأسه ، مقوس تمامًا كأنه حدوة حصان انبرت من كثرة الاستعمال ، ليس له بيت فهو ينام في المدرسة ويسهر الليل بطوله في قهوة السروجي يلعب الكوتشينة وهو دائمًا يخسر ، وهو دائمًا يغادر القهوة آخر الليل يترنح ويلعن سنسفيل جدود الذين غلبوه ، ولكنه رغم ذلك كان شديد الحرص على شيئين اثنين في الحياة ولا شيء أكثر ، طابور الصباح في المدرسة وسط التلاميذ المهربدين المعمصين المرتعشين من البرد والجوع ، يصرخ معهم بصوته المسلوخ : مصر العزيزة لي وطن ، وهي الحمى وهي السكن ، ثم وقوفه عند الباب أول كل شهر يجمع مصاريف الدراسة وفي يده « خرزانة » لهلوبة ، المصاريف خمسة قروش صاغ ، ويا ويل الذي يحضر أول الشهر وليس معه شيء ، اللهلوبة إذن هي أسلوب التفاهم الوحيد ، وكنت والحق يقال : أنيقًا وسط المجموعة ، جلبابي مخطط ، وحذائي برقبة ، ومعي لوح إردواز ، وفي جيبي مليم وأحيانًا مليمان ! وكما كان الشيخ مواظبًا على الوقوف بالباب أول كل شهر ، كنت أنا الآخر مواظبًا على دفع الخمسة قروش ، ولم يكن ثمة تعليم ولا ثمة دراسة : مصر العزيزة لي وطن ، وهي الحمى وهي السكن ، وخطبة منبرية عن محمد علي باشا الكبير ، وكان الله بالسر « عليمًا » .

وكان يمكن أن تمضي الحياة في كتاب الشيخ محمد هانئة ولذيذة كما هي دائمًا ، لولا صدقي باشا ، ورغم أني طفل في السادسة ، وفي كتاب الشيخ محمد ، إلا أن السياسة ـ قاتلها الله ـ تتدخل أحيانًا لتفسد حياة الصغار : صدقي باشا طردوه من الوزارة في عام ١٩٣٣ ، وهبت مصر كلها تهتف بسقوطه ، وتهتف لسقوطه ، ومرت مظاهرة من أمام مدرسة الشيخ محمد ، وخرج جميع التلاميذ يتفرجون على المظاهرة ، وبقيت وحدي أرسم على لوح الإردواز جملًا بثلاث « رجول » وفجأة شعرت بمغص شديد في بطني ، فجلست وسط الحجرة وقضيت حاجتي في هدوء شديد وفي بهجة أشد ! ثم نهضت مرتاحًا وعدت إلى لوح الإردواز أرسم جملًا بثلاث « رجول » ، وبعد قليل عاد التلاميذ وعاد الشيخ محمد ، وبدأ كل شيء يأخذ مجراه ، ولكن الشيخ محمد توقف فجأة ، وأمسك أنفه وصاح صيحة مروعة وكأنه طارق بن زياد :

فيه كلب ميت في الفصل .

وركع الشيخ محمد على الأرض ، وراح يتشمم هنا وهناك ، ولأنه ضعيف البصر فقد راح يتحسس الأرض بإصبعه ، وفجأة غاصت يده في شيء طري ، فلما رفع يده إلى وجهه صاح مرة أخرى ويده مرفوعة إلى أعلى منعاصة ومعكوكة :

مين اللي عمل دي يا ولاد الكلب ؟

وخيم صمت رهيب على الفصل فلم يتكلم أحد وأعاد الشيخ صيحته وكررها أكثر من مرة ثم وقف في هدوء شديد ، ومسح يده في جبته ، وقال في منتهى الوقار :

الصدق منجٍ ، اللي عمل دي يقول وأنا مسامحه .

وصدقت الشيخ فرفعت إصبعي فخورًا كأني « غزوت عكة » ، وقبل أن يصل إصبعي إلى رأسي كانت عصا الشيخ محمد تسلخ جلد وشي بالعرض والطول .

ولم أحتمل كل ذلك فخرجت من كتاب الشيخ محمد أجري إلى بيتي وأقسمت وأنا أجري وألهث : ألا أقول الصدق !![1].

ونأمل ألا يكون الأستاذ السعدني قد بر بقسمه هذا !!

وقد يقول قائل : هذه قصة قصيرة شحمًا ولحمًا ، لكننا نراها مقطعًا من « سيرة ذاتية » فهي ـ رغم ما فيها من لحظة سريعة ، وشخوص ، ومرتكز للأحداث ، فهي مسترخية العبارات ، متعددة الجزئيات التي يمكن الاستغناء عنها ـ لو كانت قصة ـ فبينها وبين القصة القصيرة خطوة سواء أطالت أم قصرت .

وعلى هذا المستوى من العلاقة القريبة بين هذا النوع من القصص الضاحكة والقصة القصيرة بمعناها الفني الكامل تقف « حكايات مجنونة » التي قدمها مجدي صابر في كتاب كامل تحت هذا العنوان ، يصور فيها المبالغة التي قد تصل إلى حد التهويل[2] .

وإذا كان عنصر الإضحاك فيما عرضناه من « إبداع » السعدني في هذا المجال يغلب على ما سواه من الأحاسيس ، فإن الإضحاك لدى مجدي صابر يغلف بالأسى، ويترك ندوبًا في المشاعر والأفكار ، ويجعلنا ننكشف أمام أنفسنا ونسخر منا .

تحت عنوان « اقطع شجرة » كتب : « كان البرنامج التليفزيوني عن « حب مصر » قد استضاف وزيرًا له شدقان كبيران وتعلو وجهه حمرة صحة ، وكان صوته يتهدج انفعالًا عندما يجيء الحديث عن مصر ».

وقال المسؤول في شبه بكاء وتوسل : إنه إذا كان المشاهدون يحبون مصر مثلما

(١) ملحق جريدة « الوطن » الكويتية ، بتاريخ (٣١/ ١/ ١٩٩٣) .

(٢) انظر ما كتب تحت عنوان « من لم يمت بالسمنة مات بغيرها » من كتاب : « حكايات مجنونة لمجدي صابر ـ ط دار الأمين عام ١٩٩٣» .

يفعل هو، فعلى كل واحد منهم أن يبدأ بنفسه في زرع شجرة أمام منزله.

ولما كنت من الصنف الذي يبكي تأثرًا إذا ما كان الحديث عن حب مصر، لذلك فكرت في أن أقرن المشاعر بالعمل، وأن يكون مبدئي منذ تلك اللحظة هو أن «أزرع شجرة» وأن أبدأ بنفسي، ولذلك أسرعت إلى مشتل قريب واشتريت شتلة شجرة صغيرة، وفي نفس المساء كانت الشتلة واقفة في ذلك الركن الذي خصصته لها أمام مدخل المنزل على الرصيف.

ولكني في الصباح التالي اكتشفت أن أحد الجيران قام بتحويل شجرتي إلى عصا مقشة، فاشتريت غيرها وزرعتها في نفس المكان، غير أن جارة أخرى حولتها إلى «زعافة» للسقف، وقد عبرت الجارتان عن عمق نظرتها للاستفادة التي يمكن أن يحصل عليها الإنسان من الأشجار بوجه عام.

ولذلك - وفي المرة الثالثة - أقمت سياجًا أشبه بالقفص حول الشجرة ودعمته بالأسمنت، وفكرت أن أزيل القفص الحديدي حالما يشتد عودها، ويستحيل على البعض استخدامها كعصا مقشة أو زعافة، أو حتى حطبًا للنيران في الشتاء.

وفوجئت في اليوم التالي بالشجرة منزوعة من مكانها والقفص الحديدي محطمًا، وعمال البلدية وهم يشحنون الشجرة الصغيرة والقفص إلى سيارتهم الضخمة، فلما سألتهم ذاهلًا عما يفعلون قال لي كبيرهم: أنت إزاي تزرع شجرة وتحط حواليها قفص من غير ترخيص؟

ترخيص؟

أمال إنت فاكرها سايبة، كل واحد يعمل في الشارع اللي هو عاوزه، هي إيه فوضى، دي جنحة يا أستاذ وعقوبتها ممكن توصل للسجن.

ولما جاءتني الغرامة في الأسبوع التالي مهددة بالدفع أو الحبس أصابني غيظ

شديد ، وفكرت أنه إذا كانت البلدية تمنع زراعة شجرة دون ترخيص ، فليس أقل من أن أحافظ على بقية الأشجار في شارعنا ، باعتبارها تحمل ترخيصًا قانونيًا للبقاء في مكانها بعد أن سألت وتأكدت أن البلدية هي التي قامت بزراعتها .

وهكذا صار من مهامي اليومية المرور على أشجار شارعنا صباحًا ومساءً للاطمئنان على سلامتها ، وأصبت بالفزع عندما شاهدت ذات ليلة عددًا من الأشجار في الحي وقد تمددت فوق الأرض ، وهناك بعض عمال البلدية قد راحوا ينشرون جذوع بقيتها بمناشير ضخمة .

فلما اندفعت صارخًا إليهم أعترض على ما يفعلون أجابني رئيس العمال قائلًا : إحنا يا أستاذ بنفذ تعليمات .

أنهي تعليمات ؟

تعليمات المحافظة ، أصلهم حيسفلتوا الشارع ويعملوا رصيف من جديد علشان مقاول الرصف محتاج فلوس يجوز بنته ، وصرخت فيهم : تقوموا تقطعوا كل الأشجار علشان تعملوا رصيفًا جديدًا وتجوزوا بنت المقاول ؟

ولكن رئيس العمال زمجر فيَّ مهددًا : اتفضل روح شوف شغلك ، خلينا نشوف شغلنا ، إحنا لوما قطعناش كل الشجر في الشارع حيخصموا لنا حوافز الشهر ده كله ، يعني تبقى خسارة علينا كلنا .

وأثارتني إجابة رئيس العمال ، وفارت الدماء التي تحب مصر في عروقي ، فلما جززت على أسناني غضبًا ونطحت رئيس العمال في غيظ أشد ، أصر ضابط الشرطة في القسم على تحويلي للنيابة بتهمة الاعتداء على موظف حكومي أثناء تأدية وظيفته الرسمية .

دفعت الكفالة في النيابة وغادرتها ، وأصررت على الذهاب إلى ذلك الوزير الذي

كان يدعو لزرع شجرة ، ورأيت فيه سندي الوحيد .

فلما استقصيت عن عنوانه وذهبت إليه ، فوجئت بشجرة ضخمة وارفة عريضة أمام باب فيلته الرسمية وعشرة من العمال يجتثونها من جذورها بمنشار كهربائي ، فاندفعت صارخًا فيهم كالمجنون : انتو بتعملوا إيه عندكم ؟ فأجابني أحدهم : زي ما انت شايف ، بنقطع الشجرة ، فصرخت فيهم : وبتقطعوها ليه ؟

دي أوامر سيادة الوزير .

فسألتهم ذاهلًا : والوزير عاوزكم تقطعوا الشجرة ليه ؟

فأجابني رئيسهم : ما هو حضرتك عارف إن الشجرة بتلم العصافير ، والعصافير دي بتزقزق وتزعج النايمين ، وسيادة الوزير لازم ينام كويس علشان لما يصحى يعرف يصدر القرار المناسب في الوقت المناسب [(١)] .

ويبدو أن مجدي صابر لم يسمع القول المأثور : الوزراء يقولون ما لا يفعلون، ألم تَرَ أنهم في كل رحلة يهيمون، ويجنون من بدل السفر من الألف للمليون ؟!!

***

وقد برز فن من فنون الضحك يشبه القصص هذه في القضايا والموضوعات الساخنة التي يتناولها ، لكن يختلف عنها جذريًا في « الحجم » : ذلك هو ما يكتبه أحمد رجب في جريدة « الأخبار » وأصبح به معروفًا على مدى عدة سنوات تحت عنوان « نص كلمة » ، وهو يعتمد في بنائه لهذا الفن على التبرير غير المتوقع ، وإقامة علاقات بين النتائج والمسببات غير منطقية ، ثم إنه لا يتجاوز في مساحته خمسة أسطر غالبًا ، وهو من ناحية الحجم هذا يتداخل مع تعليقات الكاريكاتير التي تتسم

(١) مجدي صابر : حكايات مجنونة (ص٢٢٩ ـ ٢٣٢) .

بأنها معبأة بطعم لاذع يُضْحك ويترك مرارة في الفم ، ويدفع للتفكير مع هذا جميعًا ، وليس لهذا الفن المركَّز سوابق مستقرة محددة الملامح تجعلنا يمكن أن نلحقه بها ، وإنما أقرب تسمية من المقنع إطلاقها عليه هي :

« الومضة الصحفية الضاحكة ».

***

ولا يترك فن الزجل قضية طريفة باستطاعته معالجتها ، والمعول في هذا على قدرة الزجال نفسه ـ أي موهبته ـ وانغماسه في هموم الحياة وآمال الناس ، لأن الزجل يتخفف من كل مقتضيات اللغة العربية : من نحو وصرف ، وضرورة امتلاك معجم لغوي واسع ، فهنا اللهجة العامية ـ التي يملكها الأمي كما يملكها المثقف ـ هي أداة التعبير .

وقد وقف بيرم التونسي ـ أمير الزجالين ـ في وجه المدفع حين قال لفؤاد حاكم مصر حينذاك :

وجـابوك الإنجليـز يـا فـؤاد قعدوك

تمثـل عـلى العـرش دور الملـوك

وخلـوك تبهـدل في أمـة أبـوك

ومـين يلقـوا مثلـك مغفَّـل ودون ؟!

وهو لا تقع ملابسات الحياة اليومية عليه موقعًا عابرًا ، بل تتلقفها حواسه المبدعة ، وتصوغها في أداء تحريضي حين يقول :

أربـع عسـاكر جبـابرة يفتحـوا بـرلين

سـاحبين بتاعـة فجـل جايـة مـن شربـين

أنـا قلـت : إيـه الحكايـة؟ قـال : خالفـت الجـوانين

طب اشمعنى ميت ألف واحد في البلد سارحين
يشرَّطوا في الجيوب ويكسروا الدكاكين

ففي هاتين المقطوعتين تحدث عن جميع لصوص مصر : أكبرهم « فؤاد » . وأصغرهم « النشالون » !! فهو كان شوكة لكل خائن لص للوطن ، ولذا فلم يكن يستقر في موقع حتى « يجلوه » منه ، ليس في مصر فقط بل في تونس أيضًا :

والمغربي المسلم راخر
أبو زر فاشوك
لما انتقدته فزع قالّي
يلعن بابوك
وأنا اللي قصدي أشوف قيده
يصبح مفكوك
لقيته فرحان بيه راضي
طيب مبروك !!

وهذا جميعًا يدخل في إطار « الزجل البشري »، لكنّ هناك « زجلًا كلابيًا » ، كقول مصطفى حمام :

يا مدلعين الكلاب والآدمي منسي
ضحكي على الكلب بكاني على نفسي
وفضلت أفكر في سعد الكلب وف نحسي
وأقول لروحي يا ريت الدنيا تتشقلب
وأدخل في جنس الكلاب وألعن أبو جنسي

وهذا الكلام من قبيل « الحقد الإنساني » على الكلاب أولاد الكلاب ، فإذا كنت يا « حمام » قد رأيت كلبًا كابن الجاموسة جالسًا في سيارة فخمة على حجر امرأة ملونة الشعر والعينين ، وهو يتشمم صدرها ويلعق خدها ، وأنت تتخبط على قدميك في الشوارع تحت لفح الشمس ، فماذا يفيدك أنت ، ولست غير « حمام » إذا طرت وعلوت أو هبطت وانحطيت ؟!!

وإذا كانت هذه الطريقة الزجلية تدخل البيوت من أبوابها ، فإن هناك من يتسلل إليها من الخلف ، في صيغة الرمز ، عن الحمار يقول فريد طه :

حمار بيشكي ... ضهري انهرى م الشيل

وبقيت هزيل م التعب ... وانهد فيَّ الحيل

فاض كاس مرار الحمار ... طفح عيار الكيل

قال الحمار للحمار : يا حمار دا شيء معروف

طول عمرنا للشقا والبرطعة للخيل !!

فمن هذا الحمار الذكي ، ومن ذاك الحصان المنعم المبرطع ؟!! صاحب العقل يميز !!





معرض الكتا
البخلاء
سيبك منه .. ده إيدك
منه والأرض



بخلاء وطماعون. !!

كان الناس قديمًا يسمون الأشياء بأسمائها ، غير ما نفعل الآن ، فالمرأة الضخمة يسمونها « سمينة » ونسميها نحن الآن « ممتلئة » ، كأنها مثلًا « زير » أو « بلاص » !!

وكانوا يقولون عن المرأة « المسلوعة » : « نحيفة » و« ناحلة » ، ويقولون عنها في زماننا : « سيمباتيك » أو « جسمها فرنساوي » !!

والبخل في أيامنا هذه يسمونه « ادخارًا » ، والكذب « دبلوماسية » .

ولهذا قلت السخرية من هذه الطبائع الإنسانية غير القويمة ، وندر تسجيلها في كتب أو دراسات ، أما قديمًا فكان البخيل بخيلاً بملء فيه ، والطماع طماعًا بغير مواربة ، سألوا أشعب مرة : أرأيت من هو أطمع منك ؟! فقال : نعم ، كلب سار ورائي أربعة أميال ، فلم ينف الرجل عن نفسه تهمة ، لأنه لم يكن يراها تهمة ، ويقبل كل من يستخف به لهذا السبب ، لأن نباح الناس عليه لن يمنعه من التساقط على أية وليمة وملء معدته بأطايب الطعام ، وعلى الحاقدين السلام .

ويومًا طلبت امرأة من أشعب خاتمًا ، فسألها عن السبب ، فقالت له : لأذكرك به ، فقال أشعب : اذكري أنك سألتني ومنعته عنك !! [1] .

فأشعب يرى طمعه فيما بيد الآخرين وحصوله عليه ذكاءً منه وغباءً منهم ، وليس هو غبيًا حتى تحصل منه امرأة على خاتم ولو كان حديدًا ، ويبدو أن المرأة لم تكن على مستوى الخاتم ، كانت دميمة ، فلم تحرك لديه غريزة أقوى من غريزة

(١) ظرفاء ولكن حكماء (ص١٨) .

الطمع ، فالنساء بجمالهن يستطعن خلع ملوك من على عروشهم وإجلاس آخرين محلهم ، وليس مجرد خاتم .

وأشعب ـ أشهر مثل للطماع في التاريخ العربي ـ ممتلئ بهذا المرض في صحوه وفي نومه أيضًا ، يحكي هو عن نفسه يقول : « رأيت في النوم كأني أحمل بدرة « كيس يوضع فيه الدراهم » فمن ثقلها أحدثت ، فانتبهت فرأيت الحدث ، ولم أرَ البدرة »[(١)] .

ويتلبسه الطمع تمامًا حتى يكذب ويصدق نفسه ، فيقول : « أضجرني الصبيان يومًا ، فأردت أن أصرفهم عني ، فقلت لهم : إن بموضع كذا في جنوب المدينة عرسًا فامضوا إليه ، فلما تهافتوا وتبعهم بعض الفضوليين قلت في نفسي : لعل ثمة عرسًا حقيقة ، فرحت أعدو وراءهم »[(٢)] .

وهناك طماعون « درجة ثانية » ليسوا على مستوى أشعب ـ إمامهم ـ لكن أحوالهم تغيظ ، فقد ذكر المبرد أن قومًا استضافوا شخصًا « فكرهوه ، فقال الرجل لامرأته : كيف نعلم مقدار مقامه ؟ فقالت : ألق بيننا شرًا حتى نتحاكم إليه ، ففعل ، فقالت للضيف : بالذي يبارك لك في غدوك غدًا أينا أظلم ؟ فقال الضيف : والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرًا ما أعلم »[(٣)] .

وكان الحل الذي ينبغي على أهل البيت اتخاذه هو ترك المنزل له وحده .

ومعظم حالات الطمع تبدو في المأكل والمشرب ، فقد « تغدى أعرابي مع مزَّبد « هو صاحب النوادر أبو إسحاق المدني » فقال له مزبد : كيف مات أبوك ؟ فأخذ يحدثه بحاله ، وأخذ مزبد يمضي في أكله ، فلما فطن الأعرابي قطع الحديث ، وقال له :

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص٨٦) .

(٢) طرائف من التراث العربي (ص٣٠٢) .

(٣) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١١٥) .

أنت كيف مات أبوك ؟! فقال : فجأة ، وأخذ يأكل »[1].

وربما لا يهاب الطماع الموت من أجل قطعة حلوى ، فيذكر أن أعرابيًا ـ والأعراب دائمًا تأسرهم مظاهر الحضر ـ حضر عند الحجاج بن يوسف الثقفي «فقدم إليه فطيرًا طيبًا ، فلما أكل الأعرابي منه قليلًا وتذوق لذته ، قال الحجاج : من أكل هذا ضربت عنقه ، فامتنع الناس ، فجعل الأعرابي ينظر إلى الحجاج مرة وإلى الطعام مرة ، ثم قال : أوصيك أيها الأمير بالصبية خيرًا ، وابتدأ يأكل فضحك الحجاج »[2].

لكن من الطماعين من لا يكفيه المأكل ، بل يرسم الخطط ويدبر الأحداث ليستولي على « خميرة » كبرى .

« قال أبو الأصبغ : ألح أبو القماقم على قوم عند الخطبة إليهم ، يسأل عن مال المرأة ويحصيه ، فقالوا : قد أخبرناك بما لها ، فأنت أي شيء مالك ؟ قال : وما سؤالكم عن مالي ؟ الذي لها يكفيني ويكفيها »[3].

وليس الطمع سُبَّة ، ووسيلة تندر وإضحاك لدى العرب فقط ، بل هو مرض إنساني موجود لدى كل شعب بمقدار ، فمن الحكايات الصينية القديمة يقال : إن طماعًا صادف « رجلًا غنيًا ، فقال له الغني : ما رأيك أن أعطيك ٥٠ ألف جرام من الفضة ثم أضربك حتى تموت ؟ فكر الطماع برهة وقال : اضربني حتى « أقترب » من الموت ، ثم أعطني ٢٥ ألف جرام من الفضة »[4].

ولأن الطماع يرى نفسه ذكيًا ، فقد أراد أن يستغفل الرجل ويحصل منه على

---

(1) المرجع السابق (ص١٢٤) .

(2) طرائف من التراث العربي (ص٣٤٨) .

(3) أبو عمرو الجاحظ ـ البخلاء ـ (ص١٢٤) ـ تحقيق طه الحاجري ، ط دار المعارف عام (١٩٥٨م) .

(4) فكاهات صينية (ص٧٤) .

نصف ما اقترح عليه ويحتفظ لنفسه بالحياة والمال معًا ، لكن الطماع الصيني هنا ليس في شجاعة طماع العرب ، الذي لم يخش الموت على يد الحجاج ، وفضل الشهادة في حضن الفطير على أن يعيش بعيدًا عنه !!

وقد تتعدى مواقف الطماعين في روايتها حدود العقل والواقع ، فتذكر القصة الصينية أنه قد « قبض نمر على رجل فأسرع ابنه لإنقاذه حاملًا سكينًا لقتل النمر ، فصاح ذلك الرجل وهو في فم النمر : يا بني ، يا بني ، ابتر رجل النمر ، فقط ولا تقطع فروته لنتمكن من بيعه بسعر أعلى »[(١)] .

وإضافة إلى ما ذكرنا من أن الطمع في زماننا يتزيا بثياب مختلفة ، ويدخل تحت مصطلحات جديدة ، فإن ملاحظة ينبغي ألا تغيب عنا وهي أن المغفلين في زماننا أقل من مغفلي الأزمنة القديمة ، فلا يجد الطماع من يضحك عليه ، وأيضًا ظاهرة الكرم لم تعد مزدهرة ليزدهر حولها الطماعون والفضوليون ، كما أن هناك وسيلة أكثر سخاءً وكسبًا سادت هذا الزمن ، هي التسول !! فامتصت كل « العمالة الزائدة » في مجال الطمع بغير تدخل من وزارة القوى العاملة ولا صندوق النقد الدولي !!

***

وإذا كان أشعب يتربع على عرش الطمع العربي فإن « خالد بن صفوان » هو ملك البخلاء العرب بغير منازع ، وحين يمسك الفقير على لقمة خبز في يده فليس ببخيل ، لكن إذا رأى الثري سواه مادًّا يديه جوعًا أو استجداءً ولم يعطه ، فهذا هو البخل الذي عالجه الدين بالزكاة وعُشر المال ، وعالجه القانون بالضرائب ، وعالجه الشعب بالسخرية ، وهي ألذع علاج وأمضُّ سلاح ، يقال : إن خالد بن صفوان سأله « سائل فأعطاه درهمًا ، فاستقله السائل ، فقال : يا أحمق إن الدرهم عشر

(١) فكاهات صينية ص٧٤ .

العشرة ، وإن العشرة عشر المائة ، وإن المائة عشر الألف ، وإن الألف عشر العشرة آلاف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم ؟! »[١] .

وإذا كان قد جاد بدرهم للسائل ، فإنه قد لا يجود بأقل منه في مواقف أخرى ، فقد جاءه غلام « بطبق خوخ » ، إما أن يكون هدية ، وإما أن غلامه جاء به من البستان ، فلما وضعه بين يديه قال : لولا أني أعلم أنك أكلت منه لأطعمتك واحدة »[٢] .

وقد يبدو البخيل متناقضًا : فهو في العمل جاف اليد ، وفي الكلام طري اللسان متدفق الألفاظ ، فهذا أحد ولاة الخلافة العباسية بفارس « بينما هو يومًا في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب بجهده ، إذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعرًا مدحه فيه وقرظه ومجدَّه . فلما فرغ قال : قد أحسنت ، ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ، ففرح الشاعر فرحًا قد يستطار له فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ؟ اجعلها عشرين ألف درهم ، فكاد الشاعر يخرج من جلده ، فلما رأى فرحه قد أضعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ؟ أعطه يا فلان أربعين ألفًا ، فكاد الفرح يقتله ، فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت ـ جعلت فداك ـ رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحًا زدتني في الجائزة ، وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر ، ثم دعا له وخرج .

فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهمًا ، تأمر له بأربعين ألف درهم ؟ قال : ويلك أوتريد أن تعطيه شيئًا ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك بد ؟ قال : يا أحمق ، إنما هذا الرجل سرَّنا بكلام ، وسررناه بكلام . وهو حين زعم

(١) البخلاء (ص١٤٧) .

(٢) المرجع السابق (ص٢٦) .

أني أحسن من القمر ، وأشد من الأسد ، وأن لساني أقطع من السيف ، وأن أمري أنفذ من السنان جعل في يدي من هذا شيئًا أرجع به إلى بيتي ؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب ؟ ولكن قد سرنا حين كذب لنا ، فنحن أيضًا نسره ونأمر له بالجوائز ، وإن كان كذبًا ، فيكون كذب بكذب ، وقول بقول ، فأما أن يكون كذب بصدق وقول بفعل ، فهذا هو الخسران المبين »[1] .

وهذا الرجل أكثر كذبًا وخداعًا من المرشحين للانتخابات البرلمانية .

والبخل درجات ، أحطها من لا يكتفي بالشح على الناس ، وعلى أهله ، بل يمسك يده عن نفسه هو أيضًا ، وقد « زعموا أن رجلًا قد بلغ في البخل غايته ، وصار إمامًا ، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفداه واستبطأه .

وكان مما يقول له : كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل قد رفعت ، ومن رفيع قد أخملت ، لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى ، ثم يلقيه في كيسه ويقول له : اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه ، وإنه لم يُدخل فيه درهمًا قط فأخرجه ، وإن أهله ألحوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك ، ثم حمل درهمًا فقط ، فبينما هو ذاهب إذ رأى حواء ـ أي حاوي ـ قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : أتلف شيئًا تبذل فيه النفس ، بأكلة أو شربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله ، فرجع إلى أهله ورد الدرهم إلى كيسه ، وكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت ، والحياة بدونه ، فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه ، قدم ابنه ، فاستولى على ماله وداره . ثم قال : ما كان أدم أبي ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون في الإدام .

قالوا : كان يتأدم بجبنة عنده ، قال : أرونيها ، فإذا فيها حزّ كالجدول ، من أثر

---

(١) المرجع السابق (ص١٣١) .

مسح اللقمة ، قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا : كان لا يقطع الجبن ، إنما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى ، قال : فبهذا أهلكني ، وبهذا أقعدني هذا المقعد ، لو علمت ذلك ما صليت عليه ، قالوا : فكيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعها من بعيد ، فأشير إليها باللقمة »[1] .

والبخل قديمًا كان يرتكز على المطعم أولًا والملبس ثانيًا ، أما غير هذا من مظاهر الحياة فهو لعامة الناس متواضع قريب المستوى ، فالمركب كان الحصان أو الجمل أو البرذون أو الحمار ، والحمار بالذات كان هو « أتوبيس » ذلك الزمان ، والمساكن كانت الخيام في البوادي والمنازل البسيطة في المدن ، أما الطبقات الثرية : الحكام والتجار وقادة الجيوش فلم تكن قاعدة متسعة بل قلة قليلة .

في زماننا هذا تبدو عناصر البخل في أشياء كثيرة ، فمن يأكل الفول والطعمية ـ وقانا الله شرهما ـ ومعه ثمن أكلة كباب فهو بخيل ، ومن يلبس حذاء قماش ومعه ثمن حذاء جلد فهو بخيل ، ومن يركب سيارة « فيات » ويملك ثمن « المرسيدس » فهو بخيل ، ومن لا يصحب زوجته إلى « نيس » أو بلغاريا أو الإسكندرية للمصيف فهو بخيل ، وإذا كان بإمكانك أن تنفق على أربع زوجات ، ولست متزوجًا إلا بواحدة فسارع بإكمال الأركان الأربعة ، وإلَّا اتهمتك زوجتك الواحدة ـ في سرها ـ بالبخل !! ويمكنك أيضًا ـ حتى لا تعطيها فرصة لاتهامك ـ أن تطلقها وتريح نفسك من إنفاقها !!

من بخل هذا الزمان أن رجلًا قال لصديقه : لماذا أنت حزين هكذا ؟ فرد عليه : لأن ثمن البنزين قد ارتفع كثيرًا ، فسأله : هل أسرفت إذن واشتريت سيارة ؟ فرد في حدة : لا لقد اشتريت ولاعة .

---

(١) المرجع السابق (ص١٣١) .

كذابون .. حمقى .. أغبياء !!

نزل أعرابي على قوم بالشام فأكرموا وفادته ، وحين أراد السفر عبر لهم عن رضاه وشكره ، فمدح أميرهم بقوله :

أنت كالدلو ، لا عدمناك دلوًا   من كثير العطا ، قليل الذنوبِ
أنت كالكلب في الحفاظ على الودِّ   وكالتيس في قراع الحروب

ولو كان هذا البدوي قد مر على باب « البلاغة » ولو من بعيد لعلم أنه أحمق ، وأن ما قاله - رغم صدقه الفني - بله !! فقد ذم من حيث أراد المديح ، فهو لم يضع الكلام فيما يقتضي الحال ، وإذا كان هذا نوعًا من الحمق ، فإن الحمق - بصفة عامة - ربما يعني فهم الكلام والأحداث على غير الذي اصطلح الناس عليه ، والحكم على الأشياء بغير ما يحكم العقل القويم ، والدافع إلى الحمق قلة الخبرة بالحياة وتقلباتها في الزمان والمكان ، أما الغباء فهو قصور عقلي طبيعي ، حتى لو وضع الغبي في موقف التعلم لما استطاع أن يتعلم .

ومن الحمق القديم أنه « كان بأصبهان رجل حسن النعمة ، واسع النفس ، كامل المروءة يقال له : سماك بن النعمان ، وكان يهوي مغنية من أهل أصبهان لها قدر ومعنى تعرف بأم عمرو .

ولفرط حبه إياها وصبابته بها وهبها عدَّة من ضياعه ، وكتب عليه بذلك كتبًا ، وحمل الكتب إليها على بغل ، فشاع الخبر بذلك وتحدث الناس به ، واستعظموه وكان بأصبهان رجل متخلف بين الركاكة يهوي مغنية أخرى ، فلما اتصل به ذلك

ظن بجهله وقلة عقله أن سماكًا أهدى إلى عمرو جلودًا بيضًا لا كتابة فيها ، وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويحل موقعها عند من تهدى إليه ، فابتاع جلودًا كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية سماك ، وأنفذها إلى التي يحب ، فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر فيها تغيظت عليه ، وكتبت إليه رقعة تشتمه وتحلف أنها لا تكلمه أبدًا ، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتًا في هذا المعنى لتودعها الرقعة ، ففعل ، وكانت الأبيات :

لا عاد طَوْعَكَ من عصاكا وحُرِمتَ من وصلٍ مناكا

فلقد فضحت العاشقين بقبح ما فعلتْ يداكا

أرأيت من يهدي الجلود إلى عشيقته سواكا

وأظن أنك رُمْت أنْ تحكي بفعلك ذا « سماكا »

ذاك الذي أهدى الضياع لأم عمرو والصكاكا

فبعثت منتنة كأنك قد مسحت بهن فاكا

من لي بقربك يا رقيع ولست أهوى أن أراكا

لكنْ لعلي أن أقطع ما بعثت على قفاكا [1]

وإذا كان من بعث الجلود المنتنة إلى عشيقته المغنية أحمق فالأكثر حمقًا من بعث إليها الصكوك ، وتنازل لها عن بعض أملاكه ، لكن الصكوك هذه تطورت في عصرنا الحديث فتحولت إلى جنيهات ودولارات تلضم في خيط كالعقد ، وتوضع حول عنق الراقصات في الفنادق والملاهي !! أو ترشق حول أثدائهن التي لم يرها البشر وحدهم فقط ، بل رآها ، وعبث بها ، وملّها الليل والنهار والفرش والتراب !! إنه

(١) طرائف من التراث العربي (ص١٧١٠) .

أحمق حديث ، ولكل زمان حمقاه !!

لم يفهم العاشق الأحمق ما وراء البغلة التي حصلت على أحماها أم عمرو المغنية ، ولم يدرك إلا الظاهر من الحدث ، وربما يكون الحمق بعدم إدراك ما وراء الكلام أيضًا ، فيقال : إن رجلًا من مرو سمع « الحسن وهو يحث الناس على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويقول : ما نقص مال قط من زكاة ، ويعدهم سرعة الخلف ، فتصدق بماله كله فافتقر ، فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئًا بكر على الحسن ، فقال : حسن ، ما صنعت بي ؟ ضمنت لي الخلف ، فأنفقت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت ، ولا أرى منه قليلًا ولا كثيرًا ، هذا يحل لك ؟ اللص كان يصنع بي أكثر من هذا ؟ »[1].

وقد يأتي الحمق في شكل عناد وإصرار على أتفه الأشياء ، وقد يورث الحمق أيضًا فينتقل من الأب لابنه ، فيكون أحمق خلفًا لأحمق سلف .

« كان هناك أب وابنه متصفان بالعناد ، لا يتساهلان مع غيرهما ولو في أبسط الأمور ، وذات يوم استضاف الأب رجلًا ، فأرسل ابنه إلى المدينة لشراء اللحم ، وفي طريق العودة قابل الابن رجلًا ، وأبى كل منهما أن يتزحزح لغيره عن الطريق ، فوقفا هناك وجهًا لوجه ، وبعد وقت طويل قلق الأب لعدم عودة ابنه ، فأسرع في البحث عنه ليطبخ اللحم للضيف ، وبعد دخوله المدينة وجد ابنه يجابه ذلك الرجل ، فقال له : عد باللحم أولًا ، واصحب الضيف لتناول الغداء ، ودعني آخذ مكانك في مجابهة هذا الرجل »[2].

وقد يحيِّد الطمع عقل الإنسان ، فيدفع الطامع إلى الحمق كأنه مخدر ، فقد « كان

---

(١) البخلاء (ص٢٧) .

(٢) فكاهات صينية (ص٥٩، ٩٠) .

أحد ملاك الأقنان بخيلًا ، ولديه كثير من الطناجر ، ولكن لم يُعر أحدًا قط ولو طنجرة واحدة خوفًا عليها من التلف ، وذات يوم ذهب دنغبا « رجل حاد الذكاء من قومية التبت » إلى بيت هذا المالك ، فحياه وطلب منه أن يعيره طنجرة ، ثم ألح في الطلب ، فوافق المالك مكرهًا على إعارته طنجرة مدة يومين فقط ، وبعد يومين جاء المالك إلى بيت دنغبا ، فأعاد له دنغبا طنجرته وفي داخلها طنجرة صغيرة ، فاستغرب المالك وسأله : من أين جاءت هذه الطنجرة الصغيرة ؟ فأجاب دنغبا بلهجة حادة : هذه الطنجرة قد ولدتها طنجرتك ، فكلتاهما لك ، وبعد بضعة أيام عاد دنغبا إليه ثانية ليستعير طنجرة ، ففكر المالك : إذا أعرته طنجرتي سأحصل على طنجرتين كما حدث في المرة الأولى ، فوافق على ذلك فورًا ، وفي هذه المرة استعار دنغبا منه طنجرة كبيرة ، وبعد عدة أيام جاء المالك لاسترداد طنجرته ، فأعطاه دنغبا طنجرته وبداخلها طنجرة صغيرة ، فألح عليه المالك في السؤال : لماذا تلد طناجرنا التي أعيرك إياها ؟ تظاهر دنغبا بأنه مستغرق في التفكير ، ثم أجاب : في الواقع لا أعرف أي سبب لذلك ، لكن أعترف بأنك رجل محظوظ وأنني محظوظ أيضًا مع كوني فقيرًا ، وقد تلاقى المحظوظان فولدت الطنجرة ، قهقه المالك مسرورًا ، معتقدًا أن دنغبا على صواب وقبل مغادرته قال لدنغبا :

لا تتردد في طلب أي شيء مني .

حسنًا ، سأستعير منك طنجرة بعد أيام ، طنجرة كبيرة نوعًا ما .

بعد عودة المالك إلى البيت أخبر زوجته بالأمر ، فقالت زوجته : من المؤسف أن تلك الطناجر ليست طناجر ذهبية ، فلو كانت طناجر ذهبية لولدت طناجر ذهبية صغيرة ، ولأصبحت لدينا ثروة ما بعدها ثروة ، وذهب دنغبا بعد أيام إلى بيت المالك لاستعارة طنجرة منه ، فأعاره طنجرة ذهبية كبيرة حديثة الصنع ، ووجد دنغبا إثر

عودته إلى البيت أن هذه الطنجرة مصنوعة من الذهب ، فكسرها إلى قطع ، ووزعها على الفقراء الذين لا يملكون المال لشراء الطناجر ، انتهت المهلة فجاء المالك إلى بيت دنغبا مفعمًا بالأمل والثقة ، معتقدًا أن طنجرته الذهبية الكبيرة قد ولدت طنجرة ذهبية صغيرة ، ولكن ما إن دخل غرفة دنغبا حتى قال له دنغبا في كآبة :

يا لحظنا السيء ، لقد ماتت طنجرتك الذهبية الكبيرة وأصبحت شظايا لا فائدة منها ، فوزعتها على الفقراء .

ماذا ؟! مستحيل كيف يمكن أن تموت الطنجرة ؟!

عجيب ، كيف لا تفهم حتى هذا الأمر البسيط ؟ أليس كل من يلد يموت ؟!

غضب المالك غضبًا شديدًا بعد سماعه كلام دنغبا ، ولكن لم يُحر جوابًا ، وما كان منه إلا أن انصرف جارًا أذيال الخيبة » [1].

ودنغبا هنا هو جحا في موقف مشابه من الحكايات العربية ، و« الطنجرة » كانت مع جحا دينارًا وهذه الحكاية تلخيص لرغبة الشعب ـ أي شعب ـ منذ القدم في « الاشتراكية » ، في العدالة بين الأثرياء والفقراء ، لكن الأغنياء حريصون كل الحرص على أموالهم ، لأنهم لا يملكون من المواهب الإنسانية شيئًا ، هم جشعون حمقى ، أما الفقراء فيملكون المواهب والقدرات العقلية ، فيحاولون الإفادة من قدراتهم هذه في توفير ظل من العدالة بينهم وبين الأغنياء ـ بكسر الطنجرة الذهبية وتوزيعها عليهم ـ لكن ألا يخشى الفقراء بطش الأغنياء إذا تجرؤوا وطلبوا هذه الاشتراكية أو المساواة ؟! الإجابة قدمها دنغبا عمليًا بأن من يولد لابد أن يموت ، ومن يأخذ عليه أن يعطي ، ولذا لم يعد في يد « المالك » إلا الحزن الصامت فليمت بغيظه إذن !!

---

(١) المرجع السابق (ص١٨١، ١٨٣) .

تُرى ما الأسبق : حكاية دنغبا الصينية هذه ، أم حكاية جحا العربية ؟! سؤال تحتاج الإجابة الحاسمة فيه إلى مبحث دقيق مستقل ، عن التأثير والتأثر بين الحضارتين : العربية والصينية ، فالحكاية الصينية لم يحدد المرجع الذي أوردها نشأتها ولو بالتقريب ، ولكن ذكر أن كل محتوياته من فكاهات تعود إلى الفترة من ٢٢٠م إلى ١٩١١م ، ووسط هذه القرون الطويلة تتوه حقيقة السبق في مثل هذه الحكايات ، لكن المعهود فيما ينقل عن الحضارات الأخرى أن الناقل يضيف من عنده رتوشًا وهوامش كثيرة بحيث تتضخم الحكاية وتناسب البيئة الجديدة التي جلبت إليها ، وحكاية جحا سريعة مركزة ليست عليها تفسيرات ونوافل كثيرة ، أما الحكاية الصينية فقد مسحت كثيرًا من المسائل الهامشية بالنسبة لبنية الفكاهة ، فمنها نعرف إحدى الأدوات المنزلية « طنجرة » وعلاقة الأثرياء بالفقراء ، وقد تكون هناك علاقة بين رواية هذه الحكاية والثورة الشيوعية في الصين ، والعادات المعيشية «دخل المالك على دنغبا في غرفته ، وليس في الصالة أو الصالون مثلًا » .

ومن محصلة هذه الظلال جميعًا نلمح خيط الحكاية العربية يتسرب بسيطًا إلى العينين لتنسج حوله هذه التفاصيل الكثيرة المتشابكة ، كما هو الشأن بالنسبة لألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، وسيرة أبي زيد الهلالي ، التي تنقلت جميعًا بين الشعوب والأزمنة فتضخمت .

ومن الموضوعات الفكهة عدم تكيف الريفي مع طبائع أهل المدينة وسلوكهم ، وخاصة إذا كان يطأ المدينة لأول مرة ، وهذا مبعث السخرية من « الصعايدة » و«البحراوية » حين يزورون القاهرة ،فيتحدثون بلهجاتهم ، ويتصرفون بطرائق حياتهم التي تربوا عليها ، لكن ليس الريفي المصري هو موضوع الضحك وحده ، بل الفلاح الإيطالي أيضًا عنصر تسلية لأهل المدينة الإيطالية ، فيقال : إن قرويًا وصل « إلى المدينة

ليلتقي بأحد المحامين والعنوان معه ، فسأل رجلًا عن هذا العنوان ، فأخبره أنه بعيد ، وربما يذهب ولا يجد المحامي بالمكتب ، فالأفضل أن يتصل به تليفونيًا ، فسأل القروي :

تليفونيًا ؟! وكيف يكون ذلك ؟!

إنه أمر بسيط ! ها هو ذا التليفون .

هل يمكن أن تشرح لي ما يجب أن أفعله ؟!

نعم ، باليد اليسرى تناول السماعة وباليد اليمنى تطلب الرقم ، وتتكلم ، كان القروي معتادًا أن يتحدث بالحركات أكثر مما يتحدث بالكلمات ، فنظر إليه مندهشًا ثم قال : باليد اليسرى أتناول السماعة ، وباليمنى أطلب الرقم ، ثم بأي يد أتكلم ؟! »[(١)] .

والأحمق يرى نتائج الأحداث على غير ما يراه سائر الناس ، فقد « ذهب رجل إلى بيت صديقه ، حافي القدمين ، فعضه كلب هناك من رجله ، فصاح صيحة ألم ، ولمس بيده رجله المعضوضة ، فوجد الدم ينزف منها ، ولم يغضب هذا الرجل ، بل سر سرورًا عظيمًا ، وصاح : من حسن حظي أنني لم ألبس الجورب ، وإلا أتلفته عضة الكلب »[(٢)] .

وربما أتى الحمقى بالحلول « العبقرية » التي لا تخطر على ذهن إنسان ، بل على أذهان الحمير فقط !! فهذا رجل ذبح جملًا « وكانت سكينة صدئة فلم يستطع سلخه بها ، فراح يبحث عن المشحذ في كل مكان ، ووجده أخيرًا في الطابق الثالث من بيته ، فشحذ السكين حتى صارت حادة ، ثم نزل إلى الفناء لسلخ الجمل ، فإذا بالسكين تتثلم مرة أخرى بعد وقت قصير ، وهكذا ظل يتردد صعودًا وهبوطًا بين الطابق الثالث والفناء مما جعله يحس بالإنهاك ، فخطرت في ذهنه فكرة فقال في

---

(١) Leggiamo e conversiamo (ص٤٣) .

(٢) فكاهات صينية (٢٢٠، ٢٢١) .

نفسه : إنني في غاية البله ، لماذا لا أرفع الجمل إلى الطابق الثالث بواسطة حبل ، فأستريح من الصعود والنزول مرارًا وتكرارًا ؟! »[١].

وهاك حل « صينيًا » أكثر عبقرية من الحل السابق : « أدخل ثور رأسه في الجرة ليلتهم ما فيها من الحبوب ، ولم يستطع إخراجه ثانية ، ولم يجد أحد من أفراد الأسرة حلًا ، فأرسل الفتى في طلب خاله ، وحضر الخال فقال فور رؤية المشهد : هذا ليس صعبًا اقطعوا رأس الثور ! فقطع الفتى رأس الثور حسب رأي خاله ، وعندما وجد الجميع أن رأس الثور ظل داخل الجرة ، فسألوا خال الفتى عن كيفية إخراج الرأس فقال : أمر سهل ، اكسروا الجرة ، فكسر الفتى الجرة ، فتدحرج رأس الثور على الأرض ، أثنى الجميع على خال الفتى بأنه حلال المشاكل ، غير أنه أخذ يبكي بحرقة ، فسألوه عن سبب بكائه ، فقال بعد أن جفف الدموع على خديه : إني كبير السن وأيامي في الدنيا معدودة ، فمن ستجدونه بعد موتي لحل المشكلات التي تواجهكم ؟! »[٢].

ولا حرمنا الله من كبار السن من أمثاله ، « ليزدهر » على أيديهم « خراب » البشرية !!

***

هذا القصور العقلي المسمى بالغباء سر الإضحاك فيه هو مفاجأة الغبي لغيره بتساؤل أو تعليق أو تصرف لم يكن ينتظره ، وفيه من الطرافة ـ غير المقصودة ـ ما يدهش المتابع .

فقد لقي الشعبي « رجلاً وهو واقف مع امرأة يكلمها فقال الرجل : أيكما الشعبي ؟ فأومأ الشعبي إلى المرأة وقال : هذه »[٣].

---

(١) المرجع السابق (ص٥) .

(٢) المرجع السابق (ص١٧٣، ١٧٤) .

(٣) أخبار الظراف والمتماجنين (ص٧٩) .

وقال : سليمان الأعمش لابنه : اذهب فاشتر لنا حبلًا يكون طوله ثلاثين ذراعًا ، فقال : يا أَبه في عرض كم ؟ قال : في عرض مصيبتي فيك »[1] .

وإذا كان الحبل في عرض مصيبته فيه فعرضه كعرض السموات والأرض .

ولو تفكر « الأعمش » و« تبصر » حينًا لرأى ابنه الغبي هذا سابقًا لزمانه في دقته ، فكل ما له طول له عرض ، ومن التساؤلات الغبية أيضًا أن امرأة وضعت مولودها « بعد سبعة أشهر من الحمل » فقلق زوجها على نموه قلقًا شديدًا .

وذات يوم حدَّث أحد أصدقائه بهذا الأمر ، فقال له صديقه : لا تقلق على ولدك لولادته بعد سبعة أشهر فجدي كان خديجًا مثل ولدك فسأله الرجل في دهشة : لكن هل كبر جدك بعد ذلك ؟ »[2] .

أحيانًا يجيء الغباء موقفًا ، وقد سجلت الذاكرة الصينية بالذات كثيرًا من هذه المواقف ، ولا يعني هذا انتشار الأغبياء لدى هذا الشعب العظيم ، بل يعني قوة ذاكرته ، ورغبته في تكريم الأذكياء بتحقير الأغبياء ، ولجذوره الممتدة في أعماق الدهر ، وثرائه البشري الكبير .

من حكايات الغباء الصيني أنه « ذات يوم عزق رجل أرضًا ، فوجد فيها وعاءً مملوءًا بالفضة كتبت عليه العبارة التالية : « فيه ثلاثمائة أوقية من الفضة البيضاء » ، فأسرع إلى دفنه من جديد ، وهو في غاية السرور ، كي يأخذه إلى بيته بعد حلول الظلام حيث لا يراه أحد ، لكنه تخوف من أن يسرقه الآخرون ، فنصب إلى جانبه لوحة خشبية كتب عليها مقاطع صينية تقول : « ليست هنا فضة » ، وانصرف .

وبعد ذلك جاء جاره إلى الحقل وسرق هذه الفضة كلها بعد أن قرأ ما كتب على

---

(١) المرجع السابق .

(٢) فكاهات صينية (١١٢، ١١٣) .

اللوحة الخشبية وكتب بدوره العبارة التالية : إن جارك لم يسرق الفضة التي كانت في الوعاء »[1] .

وإذا اجتمعت اللصوصية والغباء والكذب في واحد من الناس لا ينقصه إلا البذلة العسكرية ليحكم دولة من دول العالم « النائم » !!

وطلب « مالك الأرض من كهرمانه شراء بعض التفاح من بستان الفواكه وأكد عليه عدة مرات قائلًا : اشتر لي تفاحًا حلوًا ، وإلا فلا تشتر ، بعد وصول هذا الكهرمان إلى البستان راح يختار التفاح من الأشجار واحدة واحدة ، وكلما اقتطف تفاحة قضمها ليتأكد من حلاوتها حتى ملأ سلته بالتفاح وعندما عاج إلى سيده وضع سلة التفاح على الطاولة وقال له : تفضل بالأكل يا سيدي ، فكل التفاح في السلة حلو »[2] .

وهذه صورة تمثيلية من فيلم ضاحك على الطريقة الصينية تسخر من رجال الإدارة الجهلة ، فقد « طلبت الإدارة الحكومية المحلية من أحد رجالها ذات مرة أن يرسل نسخة من الوثائق الهامة والعاجلة إلى مكان ما ، وأعطته جوادًا بدلًا من السير على قدميه كي لا يتأخر في إنجاز هذه المهمة الخطيرة بيد أنه لم يركب الجواد ، بل انطلق يعدو معه ، فدهش الناس لتصرفه وسألوه : لماذا تركض ولا تركبه ؟ فأجابهم لاهثًا : الجواد بأربع أقدام يركض أسرع من الإنسان ذي القدمين ، وإذا جمعت أقدامه الأربع إلى قدمي ، أصبحت جميعًا ست أقدام ، أفليست الأقدام الست أسرع من أربع ؟ »[3] .

---

(١) المصدر السابق (ص١٦، ١٧) .

(٢) المصدر السابق (ص٩) .

(٣) المصدر السابق (ص٦، ٧) .

وتستعرض هذه الحكاية غباء موظفي الحكومة أيضًا : « تسلم حاجب من حجاب المحكمة المحلية أمرًا بأخذ راهب مجرم إلى محكمة المقاطعة ، وقبل سفره عَدَّ بدقة ما سيجلبه معه من الأشياء الضرورية خشية نسيانها ، ثم ألَّف من أسماء هذه الأشياء أرجوزة كي يحفظها عن ظهر قلب :

رزمة ملابس ومظلة وغلٍّ ، ووثقة وراهب وأنا

كان يتلو هذه الأرجوزة بلا انقطاع في طريقه خوفًا من ضياع أي منها .

وجده الراهب المجرم بليدًا ، فأسكره في الفندق الصغير الذي نزلا فيه ، وبعد أن فقد الحاجب رشده حلق شعره كاملًا فأصبح أصلع الرأس ، ثم وضع الغل في رقبته ولاذ بالفرار ، وعندما استيقظ الحاجب من النوم أحس كأنه فقد شيئًا مما معه ، فترنم بالأرجوزة قائلًا : آه ! إن رزمة الملابس والمظلة موجودتان ، ثم لمس رقبته فقال : آه ! لم يُفقد الغل ووجد الوثيقة معه أيضًا ، ثم صاح فجأة في دهشة : يا سلام ! أين الراهب ؟ وانتابه القلق الشديد وهو يهرش رأسه ، وعندما لمسْ رأسه الأصلع بيده قال مسرورًا : من حسن الحظ أن الراهب لم يهرب ، ولكن أين أنا ؟ »[1] .

***

لا تسخر البشرية من سمات التفوق الذهني أو الجسدي ، بل تسخر من النقص فيها ، سواء أكان مكتسبًا كالكذب والنفاق ، أو أصلًا في الشخص كالقصر الشديد ، والغباء ، وسجل الإنسان سخريته من الكذب في رواية بعض حكاياته ، التي قد تكون كذبًا لفظيًا أو تهويلًا أو غيرهما .

والطريف أن بعض الكذابين يحرصون على الكذب حرصهم على حياتهم نفسها

(١) المصدر السابق (ص١٠ ، ١١) .

وأسمائهم ، وقد : « قيل لكذاب : تذكر أنك صدقت قط ؟ فقال : لولا أني أخاف أن أصدق لقلت : نعم »[1].

فبعض الناس يسعون إلى الشهرة بأية سبيل ، فإن لم تكن في البطولة والخير ففي الجبن والشر !!

والتهويل نوع من الكذب الذي يعرف مستمعه غالبًا أنه كذب ، لكن يستسيغ الاستماع إليه ، وقد تطور هذا الصنف من الإضحاك حتى أضحى عملًا دراميًا إذاعيًا على لسان « بيجو وأبو لمعة » وغيرهما من فشاري هذا الزمن .

وقديمًا « قال رجل لجليسه : في قريتي طبل كبير يمكن أن ينتشر صوته إلى مسافة ٥٠ كيلو مترًا بمجرد أن يقرع مرة واحدة ، فقال جليسه : في قريتي ثور كبير ، عندما يشرب الماء من النهر على الضفة الجنوبية يمتد رأسه إلى الضفة الشمالية ، فهز الرجل رأسه مستنكرًا : أين يوجد ثور بهذا الحجم الهائل ؟ فقال الجليس : إن لم يكن هناك ثور بمثل هذا الحجم ، فمن أين تجد جلدًا لطبلك الضخم ؟ »[2].

وهذا الذي يستنكر وجود الثور الضخم لم تمر عليه الحكاية الشعبية لدينا بأن الزلزال يحدث لأن ثورًا عظيمًا يحمل كرة الأرض على أحد قرنيه ، وكل عدة سنوات يريحه بنقل الأرض إلى القرن الآخر فتهتز ، وهذا يحدث بدون أن « تندلق » المحيطات والأنهار على اليابسة ، وهذا أكذوبة دينية تشبه كثيرًا من الخرافات التي لحقت بالدين ، وأصبح من يستخف بها أمام العامة من الجهلاء كأنه يستخف بالدين نفسه ، مثل وجود الجن وقدراتهم الخارقة في تحريك الجبال ، وحكاية « البراق » ذلك الحصان الذي يطير في الهواء !!

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١٢٧) .

(٢) فكاهات صينية (ص١٣٤، ١٣٦) .

وبعض الأسماء تزيف حقيقة حامليها ، فلا تشير إلى كنههم ، بل تؤكد عكس الواقع : فيسمى أحدهم « المهدي » وهو ملعون !! ويسمى بعضهم « سيدًا » وهو مسود مغلوب على أمره ، وبعضهم « جابرًا » ويحتاج لمن يجبر خاطره ، ويسمون أبناءهم أحيانًا « رشيدًا » وهو مولود حديثًا لم يرشد بعد ، وقد « أُدخل مخنث على العريان بن الهيثم وهو أمير الكوفة فقال : يا عدو الله أتتخنث وأنت شيخ ؟ فقال : مكذوب علي كما كذب على الأمير ، فقال : وما قيل فيَّ ؟ قال : يسمونك العريان ولك عشرون جبة »[1] .

وأعلى مراتب الكذب ـ أو أحطها ـ أن يتلبس الإنسان الكذب حتى يظنه الحق ، وقد « أراد جحا أن يبيع حماره فذهب إلى السوق وأعطاه للدلال ليبيعه ، فأخذ الدلال يدور به وينادي : هذا حمار سريع السير ، متين التركيب ، واسع الخطا ، لا يشعر راكبه بأي تعب ، وبينما الناس يتزايدون على الحمار إعجابًا بكل هذه المزايا ، قال جحا لنفسه : لابد أن الحمار به كل هذه الصفات ، وأنا لا أدري ، وفي لمح البصر اندفع بين المتزايدين ، وأخذ يتبارى معهم في رفع ثمن الحمار إلى أن رسا عليه البيع ، فأخرج نقوده من كيسه ثم أعطاها الدلال ، وتسلم الحمار وانصرف عائدًا إلى البيت سعيدًا بهذه الصفقة

وفي المساء جلس يقص على زوجته نبأ المزايدة فقالت له : وأنا سأحدثك عما هو أعجب من هذا ، لقد مر أمام دارنا بائع القشدة فناديته ، وأخذ يزن لي فغافلته ووضعت أساوري الذهبية في الكفة التي يضع بها المكاييل ، وهكذا أخذت من الوزن أكثر مما أستحق فلما انتهى حملت الوعاء فورًا ودخلت البيت دون أن أستعيد الأساور حتى لا يكتشف أني ضحكت عليه في الميزان ، فقال لها جحا وهو يغالب

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١٥٥) .

الضحك والسخرية : بارك الله فيك !! أنا من الخارج وأنت من الداخل ، وبهذا يعمر البيت !! »[1] .

إن حكايات من هذا القبيل لو صاغتها ـ صياغة حديثة ـ أقلام لكتاب المسرح والدراما من أمثال فتحي سلامة وأبو العلا السلاموني ويسري الجندي ، ويوسف عوف ، وإبراهيم محمد علي ، ويوسف معاطي ، وقدمتها للمسرح أو الإذاعة لأخرجتنا من عته بعض الممثلين ، وانعواج مؤخرة فؤاد المهندس رحمه الله !!

◆◆◆

(١) ظرفاء ولكن حكماء (ص١٥٣، ١٥٤) .

سرعة البديهة .. وحسن التخلص !

لسنا نبسم للقصور الإنساني فقط - بل نُسَر للتفوق البشري أيضًا ، ونسجله ـ كما نسجل عناصر الضعف ـ لكنا هنا نتعلم من إزكاء أذهاننا ، وتعميق قدرتنا على مواجهة الأحداث ، والالتفاف حولها ، وتوظيفها لما نبغي .

ومما نبتسم له هذا الذكاء الإنساني الذي يتدفق من أصحابه في عبارات كالبرق المتقطع فيبهر ويأخذ بالألباب ، هذا الذي يدخل تحت مسمى « سرعة البديهة وحسن التخلص » .

وإذا كنا نسعد جميعًا بأن نرى هذا التفوق البشري ـ المرتكز أولًا على اللغة ـ فإننا نراه ضروريًا لأصحاب السياسة والمفاوضين في المؤتمرات ، خاصة إذا كانوا يواجهون مفاوضًا داهية !!

والفارق بين سرعة البديهة وحسن التخلص مثل ورقة السيجارة ، فكلاهما قول عبقري غير منتظر يدل على فهم الشيء وما وراءه ، لكن حسن التخلص يومض بعد أن يبدو هذا الذكي منحصرًا في ركن كأنه لن يتخلص منه ، فإذا به ينسلت منه بحل مدهش أفضل مما يتوقعه المتابع .

وسرعة البديهة ليست خاصية مقصورة على زمن بعينه ، ولا شعب واحد ، بل البشرية في كل أزمنتها تأخذ منها بنصيب ، كما تأخذ من الحمق والغباء أيضًا .

وسواء أكان الزمن حديثًا أم قديمًا يستأثر الأدباء بالنصيب الأوفر من سرعة البديهة ، وبعضهم ـ من أمثال أمام العبد ـ يتفوق فيها على إبداعه الأدبي نفسه ،

يقال : إن الأديب الصيني سودونغ بوه حضر « مأدبة بسيطة أقامها جاره ، وكان على المائدة صحن فيه أربعة طيور صفراء مطبوخة ، فأكل أحد الضيوف ثلاثة منها تاركًا واحدًا للأديب ، فابتسم سو دونغ بوه وقال له مشيرًا إلى الطير الوحيد الباقي في الصحن : تفضل بأكله ، لا تدع الطيور الأربعة تفترق »[١] .

وسألوا الشاعر أبا العيناء : ما بال الحمير إذا أحست بالرجوع إلى مرابطها ، والقرب من دور أهلها ، أسرعت المشي إلا حمارك ، إذا قرب من دارك تخابث في المشي ؟ فقال : لعلمه بسوء المنقلب ، وليس أبو العيناء وحده الذكي بل حماره أيضًا ، واستضاف الشاعر اللباد أحد الغرباء ، فأكرم وفادته ، لكنه أهمل حماره الذي أرهقه السفر ، وقدم لمهرته هو علفًا ، فقال الضيف :

أنا في ضيافتك العيشة ها هنا فاجعل حماري في ضيافة مهركا

وليس من حق الحيوانات أن تستضيف أجناسها فقط ، بل هي تعشق بعضها أيضًا ، وفي الجاهلية قال المنخل اليشكري في المتجردة زوجة الملك النعمان بن المنذر :

ولقد أمر على الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الخنساء ترفل في الدمقس وفي الحرير

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري !

ومر ببشار بن برد قوم يحملون جنازة وهم يهرولون بها : فقال : ما لهم مسرعين؟! أتراهم سرقوها ، فهم يخافون أن يُلحَقوا فتؤخذ منهم ؟!

ومرض الأعمش[٢] فدخل عليه رجل ثقيل يعوده فقال له : ما أشد ما مرَّ بك

---

(١) فكاهات صينية (ص٥٥) .

(٢) الأعمش : هو أبو محمد سليمان بن مهران ، الذي ينتسب لبني أسد بالولاء ، تابعي مشهور ، كان عالمًا بالقرآن والحديث والفرائض وجاءت وفاته عام (١٤٨هـ) .

في علتك هذه ؟ قال : دخولك ؟!

وجشعُ ملاك المنازل قديم جدًا ، حتى إن الحكاية الشعبية عالجته على لسان جحا ـ الذي حمل كثيرًا مما لم يقل ـ فقيل : إن جحا سكن في دار ، فشكا إلى صاحبها أن يسمع فرقعة في سقفها ، فقال صاحب الدار : لا تخف ، إنه يسبح الله ، قال : وهذا الذي أخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا !!

ومر رجل من الحكماء برجل قائم في طريق ، فقال : ما وقوفك ؟ قال : أنتظر إنسانًا ، قال : يطول وقوفك إذن »[1] .

وإذا كان أشعب قد استأثر بثلثي الطمع العربي ، ونال جحا ثلثي الضحك ، و«فاز » خالد بن صفوان بتاج البخل ـ هو تاج من ريش البوم ، مرصع بنوى النخيل ـ فإن رجلًا اسمه مزبد عرف بسرعة البديهة .

مر به رجل « وهو جالس يتفكر فقال له : في أي شيء تتفكر ؟ قال : في الحج قد عزمت عليه السنة ، قال : فما أعددت له ؟ قال : التلبية ، فما أقدر على غيرها ، وزُفَّتْ إليه ـ من الزفت !! امرأة قبيحة فقيل له : بم تصبحها ؟ قال : بالطلاق .

ونظر إلى قوم مكتفين يحملون إلى السجن ، فقال : ما قصة هؤلاء ؟ قيل : خير ، قال : فإن كان خيرًا فكتفوني معهم ، وغضب عليه بعض الولاة فأمر بحلق لحيته ، فقال له الحجام : افتح فمك ، فقال : الأمير أمرك بحلق لحيتي أو تعلمني الزمر ؟ »[2] .

ويبدو أن « الأمراء » في كل زمان يكرهون اللحى وأصحابها !! ويومًا قال «الجماز لأبي شراعة : كيف تجدك ؟ قال : أجدني مريضًا من دماميل قد خرجت في

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١٥٧) .

(٢) المرجع السابق (ص١٥٩) .

أقبح المواضع ، فقال : ما أرى في وجهك منها شيئًا »[(١)].

وقديمًا أيضًا قال أبو سعيد بن دراج : « مرت بي جنازة ومعي ابني ، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول : بك يذهبون إلى بيت لا فرش فيه ولا وطاء ، ولا ضيافة ولا غطاء ، ولا خبز ولا ماء ، فقال ابني : يا أبت ، إلى بيتنا والله يذهبون بهذه الجنازة »[(٢)].

ومن أدباء هذا الزمن الحديث من يملك بديهة حاضرة ، سريعة الاستجابة ، وقذفاتها كطلقات الرصاص ، لكن العامية هي المسيطرة فيما سُجِّل من هذه المضحكات .

كان محمد البابلي يلعب الطاولة مرة مع صديق ، فلعب لعبة لم ترض منافسه ، فسخر منه قائلًا : بقي دي لعبة يا سي بابلي ، أمال إيه الفرق بينك وبين الحمار ؟ فرد البابلي فورًا : ما فيش فرق بيني وبين الحمار ، غير الترابيزة .

ومات لإمام العبد صديق كان يملك ورشة لحام ، وحين سمع الخبر بدا وجهه متأثرًا وقال : الله يلحمه !! وكان للعبد أيضًا صديق جزار ـ يبدو أن أصدقاءه جميعًا من خريجي مدرسة الصنايع ـ وهجر الجزار هذا عمله واحترف الأدب ، وكان الجزار يجلس مع العبد وحافظ إبراهيم ، فقال له حافظ : إزاي الحال ؟ فرد الجزار : الحمد لله ، وعاد حافظ يسأله : الجزارة الأحسن ولا الأدب ؟! فأجاب العبد على الفور : هوه لما كان جزار كانت الكلاب بتمشي وراه ، دلوقت لما أصبح أديب ، بقى يمشي ورا الكلاب !![(٣)].

وللشيخ عبد العزيز البشري مشاركته الثرية في هذا المجال ، كان يومًا في مأدبة

---

(١) المرجع السابق (ص١٥٩) .

(٢) انظر : من قصص الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

(٣) الظرفاء (ص٥١) .

عند الأباظية ، وذهب يغسل يديه بعد الغداء تاركًا جبته السوداء معلقة على أحد المقاعد وحين عاد وجد أحد الحاضرين قد رسم وجهًا لحمار بالطباشير على الجبة ، فقال البشري متسائلًا : مين فيكم اللي مسح وشه في الجبة ؟!!

وكثيرًا ما كان البشرى مرافقًا لحافظ إبراهيم في السهرات الخاصة والحفلات العامة ، وفي إحدى الرحلات دخل البشري على حافظ في غرفة النوم ، وطلب إليه أن يرتدي ملابسه : فقال حافظ : أنا لسه ما غسلتش وشي ، فقال له البشري : وشك مش عايز غسيل نفضه كفاية !! (١) .

وكان الشيخ عبد العزيز معتادًا استخدام صيغ مختلفة في القسم بالله ، فكان يقول مثلًا : أقسم بالله ثلاثًا ، وحق ذات الله العلية ، قسمًا بذات العزة والجلال ، وإذا استخدم قسمًا منها في أول الليل ظل يستعمله إلى آخره ، وفي إحدى الليالي لاحظ حافظ أن عبد العزيز البشرى استخدم كل صيغ القسم ، فسأله : إيه الحكاية ؟ هو ما فيش « يمين » نوبتشي الليلة ؟!!

وكان حمادة الطرابلسي صديقًا لمأمون الشناوي ، وكانت السمنة قد اتخذته لها مأوى ومقرًا دائمًا ، فوصفه مأمون في تضخمه فقال : كنت قاعد مرة مع الطرابلسي وشفته وهو « بيتخن » !!

وإذا كان الأدباء يستأثرون بجل هذا النوع من الذكاء الإنساني ، ويملكون القدرة على إظهاره ، بحكم امتلاكهم للغة ، واتساع أفق ثقافتهم وعقولهم ، فإن فئات أخرى لها باع « قصير » في هذه « الفرفشة » .

قال عالم ألماني لزميله مفتخرًا : لقد اكتشفت مادة تذيب كل شيء : الحديد ، النحاس ، الزجاج ، الخشب ، فرد زميله : تهنئتي لك ، لكن هل لي أن أعرف في أي

---

(١) من مقدمة كامل الشناوي لكتاب « الظرفاء » .

إناء وضعت هذه المادة ؟!

ومن بين الشخصيات التي لمعت في مجال النكتة ، وليست لها صفة عامة : المعلم دبشة الجزار ، والأسطى حسين الترزي ، كان الترزي يسير في الطريق ، فلمحه أحد أصدقائه وهو يقود سيارته الخاصة ، فدعا الترزي إلى الركوب معه لتوصيله إلى حيث يريد ، وكانت السيارة متهالكة فقال له الترزي : ما أقدرش علشان مستعجل !! أما دبشة الجزار فقد زار إحدى الفنانات بمنزلها ، فرأى عندها رمانًا أعجبه ، فقالت له : أفرط لك رمان يا دبشة ؟ فقال لها : فرطي لي في عرضك !!

وكان « وزراء زمان » مفرفشين ، لأنهم كانوا مثقفين ، مرني العقول ، واسعي الصدور ، أما أبناؤنا وزراء هذا الزمان فليست لهم « صدور » حتى تتسع ، وحفني محمود واحد من هؤلاء الضاحكين المضحكين ، كان وزيرًا للمواصلات ، وسمع صوتًا عاليًا يرتفع من الغرفة المجاورة لغرفة مكتبه ، فاستدعى الساعي وسأله : إيه الزيطة دي ؟ فقال الساعي : إن السكرتير يتكلم من الإسكندرية ، فقال حفني محمود : قل له بدل ما يزعق يتكلم في التليفون .

وبعد تفكر وتدبر ، وتدبر وتفكر عرفت سبب ازدهار الأدب العربي في السنين الأخيرة ، وحصول نجيب محفوظ على نوبل ، ونبوغ عشرات الشعراء الكبار والشباب ، ذلك أن الجزارين والترزية والسمكرية ، تابوا عن الأدب ، وغسلوا أيديهم منه وعادوا إلى ورشهم سالمين ، وعقبال مدرسي الجامعة وباقي المهن .

***

الصراع السياسي يدفع إلى بذاءة القول وطول اللسان ، حتى لو كان بين نخبة من أشراف قريش ، بني هاشم وبني أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان الذي انتصر على بني هاشم بالحرب كانت له حربه الدعائية أيضًا ضدهم ، وأحيانًا كان يمارسها بنفسه ،

فقد « قال معاوية لعقيل : إن فيكم لشبقا يا بني هاشم ، قال : هو منا في الرجال ، وهو منكم في النساء » [1] .

وللحق فهذا القول إهانة مزدوجة خلاصته أن قريشًا ـ أهل الشرف والسؤدد ـ شطر من رجالها فيهم شبق ، وشطر من نسائها أيضًا !!

ولا يستبعد أن يكون مثل هذا القول اختراعًا محضًا ، ومثله حادث يستخف بمعاوية ويهزأ من عقله ، وليس بعيدًا أن يكون من وضع الشيعة ، يقال إنه مر « على رجل وقد علق حماره في الطاحونة يديرها ، وقد علق بعض الأجراس في عنقه وفوق رأسه ، فسأل معاوية عن سبب ذلك ، فقال له الرجل : إن النوم يغلبني أحيانًا فتأخذني سنة منه وصوت الأجراس يدلني على أن الحمار يدور بالطاحونة ، فإذا توقف دق الأجراس فإنني أعلم أن الحمار قد توقف عن الدوران ، فقال معاوية : وماذا تصنع إذا توقف الحمار مكانه وأخذ يهز رأسه ليوهمك أنه يدور بالطاحونة ؟! فأجاب الرجل : يا صاحبي ، أنى لي بحمار له رأس مثل رأس معاوية ؟! » [2] .

ونادرًا ما تفتح نافذة للضحك ولا يطل منها لسان جحا ، سئل مرة : هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ قال : يجوز : قيل : وبعد بلوغ الثمانين ؟ قال : يجوز ، قيل : وبعد بلوغ المائة ؟ قال : نعم ، إذا كان له جار في العشرين .

ومثل هذا الرجل الذي يتزوج في المائة يضرب عصفورين بحجر واحد أنه يعطر داره بامرأة : يسمع صوتها وهو نائم دائمًا على سريره فيظل نائمًا !! وتناديه : يا جدو !! ويصادقه كل جيرانه من الرجال ، ويجعلون من منزله « البيت الكبير المريح » ، ثم إنه في النهاية يحصل على أطفال بغير عناء !! فمنّ الله علينا بعجوز كهذا !!

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص٧٤) .

(٢) ظرفاء ولكن حكماء (ص٢٣) .

وجحا يُسأل أيضًا : أيهما أفضل : السير خلف الجنازة أم أمامها ؟ فيقول : لا تكن في النعش ، وسر حيث تشاء !!

وجنازات أيامنا هذه لا يسير الناس وراءها وخلفها فقط ، بل يمينها ويسارها أيضًا لأنهم دائمًا أربعة يحملونها إلى القبر !!

وفي حسن التخلص هذا يبرز الأدباء أيضًا ، ويحملون في أجولتهم معظم ما خلفته البشرية من هذه المضحكات المعجبات ، « قال الجاحظ : سألني بعضهم كتابًا بالتوصية إلى بعض أصحابي ، فكتبت له رقعة وختمتها ، فلما خرج الرجل من عندي فضها ، فإذا فيها : كتابي إليك مع من لا أعرفه ولا أُوْجب حقه ، فإذا قضيت له حاجة لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك ، فرجع الرجل إليَّ ، فقلت له : كأنك فتحت الرقعة وقرأتها ؟ قال : نعم ، قلت : لا يضيرك ما فيها ، فإنه علامة لي إذا أرت العناية بشخص ، فقال : قطع الله يدك ورجليك ولعنك ، قلت : ما هذا ؟ قال : هذه علامة لي إذا أردت أن أشكر أحدًا »[1] .

ومشهورة جدًا هذه الأبيات التي قالها ثلاثة من الشعراء الشباب السيّع ـ أو الصيع بالعامية ـ ولم نعرفهم ولا عرفنا لهم غيرها ، قال راوي الحادثة : كنت عند رئيس الشرطة صباح أحد الأيام ، فجيء إليه بثلاثة شبان قبض عليهم يغنون ويضجون في ساعة متأخرة من الليل ، فسأل الأول : من أنت ؟ فرد :

أنا ابن الذي لا تنزلُ الدهرَ قدرُهُ وإنْ تزلتْ يومًا فسوف تعودُ

ترى الناس أفواجًا إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعودُ

فظنه رئيس الشرطة ابن أحد جواد العرب فأطلقه ، وسأل الثاني : فقال :

---

(١) طرائف من التراث العربي (ص٢٠٩) .

أنا ابن الذي خاض الصفوفَ بعزمه وقَوّمها بالسيف حتى استقلت
ركاباه لا تنفكّ رجلاه منهما إذا الخيلُ في يوم الكريهة ولّت

فقال رئيس الشرطة في نفسه : قد يكون أبوه أحد صناديد العرب ، فتركه ، وسأل الثالث ، فقال :

أنا ابنُ مَنْ دانت الرقابُ له من بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة فيأخذ من مالها ومن دمها

وحسبه رئيس الشرطة أحد أشراف العرب فخلَّى سبيله ، لما انصرف الشبان ، وكنت أعرفهم ـ هكذا يقول الراوي ـ قلت : أتعرف من هؤلاء ؟ قال : لا .

قلت : الأول ابن فوّال ـ بائع فول ، لا تنزل الدهر قدره ، والثاني ابن حيّاك ـ أو حائك ـ رجلاه في ركاب نوله ، والثالث ابن حجّام يأخذ من دم الناس ومالهم !!

وهذا الحادث من أطرف ما خلفه لنا التراث العربي في حسن التخلص ، وإنقاذ النفس من الأزمات .

وليس الأديب في المواجهات من هذا النوع منتصرًا دائمًا ، فهذا هو الفرزدق ، لا ينهزم من الشاعر الكميت فقط ، بل من أحد النبط غير الأدباء ، قال الفرزدق : « كنت أنشد بجامع البصرة ، وفي حلقتي الكميت بن زيد وهو صبي ، فأعجبني حسن استماعه ، فقلت له : كيف سمعت يا بني ؟ قال لي : حسن ، قلت : فسرّك أني أبوك ؟ قال : أما أبي فلا أريد به بديلًا ، ولكن وددت أن تكون أمي ! قلت : استرها عليَّ يا بن أخي ، فما لقيت مثلها ، وأما النبطي ، فإني لقيت نبطيًا بيثرب فقال لي : أنت الفرزدق ؟ قلت : نعم ، قال : فأنت الذي إذا هجوتني يموت فرسي هذا ؟ قلت : لا ، قال : فيموت ولدي ؟ قلت : لا ، قال : فأموت أنا ؟ قلت : لا ، قال : فأدخلني الله في حر أم الفرزدق من رجلي إلى عنقي ، فقلت : ويلك ! ولمَ تركت

رأسك ؟ قال : حتى أرى ما تصنع الزانية »[(١)].

وما دام هذا الرجل نبطيًا ، وليس بأديب ، فيتساوى عنده أن « يتهم » الفرزدق أمه بالعفة والشرف ، وأن يكشف لؤمها ودنسها !! فالذين يخافون الشعر إذا هجاهم أهل الشرف وأهل الذوق المثقف ، إنهم يملكون أعراضًا مصونة ، ويجب أن تصان ، ويدركون خلود الشعر بين الناس بما يحمل من خير وشر .

وقد يستند حسن التخلص إلى التلاعب بالألفاظ « قال يموت بن المزرّع : قال لي سهل بن صدقة ، وكان بيننا مداعبة : ضربك الله باسمك ، فقلت له مسرعًا : أحوجك الله إلى اسم أبيك »[(٢)].

هناك ظاهرة استوقفتني ، بعد كل ما وقع تحت يدي من مواقف « سرعة البديهة وحسن التخلص » هي أن النساء ليست لهن أية مشاركة في هذا المجال ، أيرجع هذا إلى انعدام اختلاطهن بالمجتمعات قديمًا وحديثًا ، أم أن حسن تخلصها يتم بساقيها الجميلتين ، وسرعة بديهتها تعبر عنها بحواجبها ، أم أن المرأة عملية جدًا ولم ترهق لسانها في « مسائل شكلية » واحتفظت بها لسلق زوجها ؟! والله أعلم والأزواج !!

ومن حسن التخلص حديثًا أن أحد أصدقاء المفكر الساخر برناردشو ذهب لزيارته ، وحين دخل عليه حجرته وجده يتحدث إلى نفسه ، فسأله الضيف مندهشًا : أتتكلم مع نفسك ؟! فرد عليه برناردشو : نعم هذه عادة لدي فقد اعتدت منذ الصغر أن أتحدث يوميًا مع شخص ذكي .

وسأله كاتب مبتدئ : أريد أن أكتب شيئًا لم يكن قد كتبه أحد من قبل ، فبماذا تشير عليَّ ؟ فأجابه برناردشو : الأمر بسيط ، اكتب رثاءك !!

---

(١) المرجع السابق (ص٣٢٨، ٣٢٩) .

(٢) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١٥٧) .

وحكاية أخرى لأديب شاب لكن مع الروائي الفرنسي اسكندر ديماس ، حيث عرض عليه الشاب أن يتعاونا معًا في كتابة إحدى القصص التاريخية ، فرد عليه ديماس ساخرًا : كيف يمكن أن يتعاون حصان وحمار في جر عربة واحدة ؟! فرد الشاب عليه لطمته فورًا : هذه إهانة يا سيدي ، كيف تسمح لنفسك أن تصفني بأنني حصان ؟!!

أديب آخر مبتدئ أراد أن يلقي على إمام العبد إحدى قصائده ، فهمس إليه العبد : طب استنى لما نروح خرابة أحسن حد يشوفنا !!

وقد يتبارى طرفان ذكيان بقصد أو بغير قصد ، ولابد أن يفوز أحدهما ، فيومًا عرض الرسام الفرنسي برنار بوفيه على ثري أمريكي أن يشتري إحدى لوحاته ، وهي لوحة جيدة تصور واجهة كاتدرائية ، فقال الأمريكي بعد التمعن فيها : يحيرني في لوحتك أنني لا أرى أي أشخاص فيها !! وصُدم الفنان بهذه الملاحظة الجاهلة ، فقال له في استخفاف : إن السبب في عدم رؤية من كنت تتوقع رؤيتهم أنهم يؤدون الصلاة داخل الكاتدرائية !! وتنبه الأمريكي إلى سخرية الفنان منه ، فقال له بسخرية أيضًا : حسنًا ، سوف أشتري لوحتك حينما يخرجون !!

ومباراة ثانية دارت بين حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري ـ وكثيرًا ما كانا يتباريان ـ وكان حافظ جالسًا بحديقة داره بحلوان ، وحين قدم إليه البشري بادره قائلًا : حين رأيتك من بعيد تصورتك واحدة ست ، فرد حافظ : يظهر إن نظرنا ضعف ، أنا كمان لما شفتك وأنت جاي افتكرتك راجل !!

أما هذه فمشادة أسرية بين محمد البابلي وابنه المسرف ، الذي ملّ أبوه كثرة إنفاقه فقال له :

انت بتودي الفلوس فين ؟

فلوس إيه ؟ هي دي فلوس ؟!

طب اسمع لما أقولك ، تبادلني ، يعني إنت خد مركزي وأنا آخد مركزك ، وتخلصني من أعبائك ؟!

أنا مستعد .

يعني أتنازلك عن الأرض ، وعن الفلوس ؟!

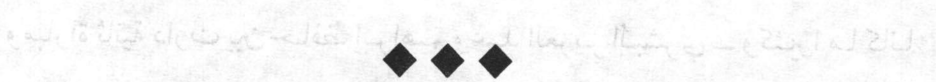
موافق .

بس بشرط ، أتنازلك كمان عن أمك .

أخيرًا ، نرى المرأة طرفًا في هذا النوع من الإضحاك ، قابل سليمان نجيب إحدى السيدات في ميدان لسباق الخيل ، فسألها عن اسم الحصان الذي تسابقت به ، فقالت له : إذا قلت لك اسم الحصان ، فهل تشاركني عليه ؟ فقال لها : أنا موش عاوز أشاركك ، أنا عاوز أشارك جوزك !!

ومن المؤكد أن سليمان نجيب كان يدعو الله في نفسه قائلًا :

يا ليتني كنت حصانًا !



يا قيس .. أنا مهر بنتي ليلى ..
٤ جمال زلمكة .. ٥ .. وصندوق
الدنيا ٧ أنظمة .. و دِش

مع النسوان !!

الإنسان أكمل الموجودات وأجملها ؛ لأنها صيغت جميعًا لأجله ، وهو الذي يمنح للأشياء الجمال ، فالوردة جميلة لأنه يراها هكذا ، والقمر جميل حسب رؤيته هو كإنسان له ، إنه مانح الجمال للجمال ، ولا شك في أن المرأة بها عناصر الجمال التي تعادل عناصر القوة لدى الرجل ، المرأة إذن أجمل الموجودات على الإطلاق .

ويبدو لي حقًا وصدقا في بعض الأحيان أن العالم كله لم يرسم هكذا إلا لتستمع به النساء !! ولا حتى جادت الطبيعة بنا نحن الرجال إلا لأجل المرأة !! ولأنها قد استأثرت بالجمال دونه ، وامتلكت القدرة على تحريكه من وراء ستار فإن الرجل بما لديه من عنجهية وهلفتة يدعى غالبًا أن المرأة قاصر ومخلوق ضعيف ، تافه ، مشوه العقل وما الأمر كله إلا حقدًا في حقد .

وعبر الرجل عن هذا الموقف ـ غير المنصف ـ تجاه المرأة الزوجة والعشيقة والحماة والنساء بعامة ، في صيغة من الاستخفاف قلما يتيح لها من خلاله أن تعبر عن نفسها ، وحتى أحداث الحب بينهما غالبًا ما يرويها الرجل على الرغم من أنها لا يمكن أن تتم بدون الطرف الأول : المرأة .

فالزواج بامرأة قد يعد في نظر بعض المفكرين عقابًا أكثر ردعًا من السجن ، وفي هذا يروي أن شابًا إنجليزيًا صدم فتاة بسيارته ، وبعد البرء من جراحها خيرته الفتاة بين تقديمه للمحاكمة أو الزواج بها ، فتحامل على نفسه وتزوجها ، وعلق برناردشو على هذا الحدث بقوله :

لو أننا عممنا هذه القاعدة لقل طيش أصحاب السيارات من الشباب والعزاب وندرت الحوادث .

وقد لا ترتقي المرأة إلى مرتبة الحيوان في عرف بعض الرجال ، فهذا رجل « استرالي » في الخمسين من عمره ينشر إعلانًا عن رغبته في الزواج من سيدة في مثل سنه تملك حصانًا ، وكان رجاؤه الوحيد هكذا : أرجو إرسال صورة الحصان !!

والأنثى تعرض في أسواق الزواج ، ولها دلالات ، « وقد جاءت دلالة إلى رجل فقالت : عندي امرأة كأنها طاقة نرجس ، فتزوجها فإذا هي عجوز قبيحة فقال للدلالة : غششتني ، فقالت : لا والله ، إنما شبهتها بطاقة نرجس لأن شعرها أبيض ، ووجهها أصفر ، وساقها أخضر »[1] .

وما سُجِّل لنا عن العلاقة بين الزوجين يصورها دائمًا متوترة ، فيها النفور ، والرغبة في الهروب ، فقد قال زوج في شكوى إلى قسم الشرطة : اشتريت أنا وزوجتي دجاجًا من السوق ، وأثناء عودتنا للمنزل فقدت زوجتي والدجاج ، وأنا الآن أبلغ عن الدجاج فقط .

وأحد الأصدقاء ظل فترة يطارد زوجة صديقه ، حتى ضاق ذرعًا به ، فقال له : هذا آخر إنذار لك ، إذا لم تتوقف عن مطاردة زوجتي فسوف أتركها لك .

وقالت امرأة إنجليزية لزوجها : كيف تتجرأ على تقبيلي في الطريق العام هذا الصباح ، إنه جنون منك ، فأجابها : لو كنت أعلم أنك أنت لما قبلتك فسامحيني !!

وهي عنيدة تتحدى زوجها ، وتدفعه لتعطيل أعماله وخلف مواعيده ، فهذان زوجان تشاجرا ، وتخاصما ، وفي إحدى الليالي وضع الزوج في يد زوجته قبل النوم

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص١٧٢) .

ورقة مكتوبًا فيها : « أيقظيني في السابعة صباحًا » ، وحين استيقظ في الصباح وجد الساعة قد بلغت العاشرة ، ووجد ورقة في يده مكتوبًا فيها : استيقظ ، فقد بلغت الساعة السابعة .

ويبلغ الكره مداه حين قيل لبعضهم : أتحب أن تموت امرأتك ؟ فقال : لا ، قيل : لِمَ ؟ قال : أخاف أن أموت من الفرح .

فهي إذا ماتت فسوف تقتله ـ بعد موتها ـ فما بالك لو كانت حية ، لا أقصد أنها من الزواحف ، ويقال : إن المطلب بن محمد كان « على قضاء مكة ، وقد كان عنده امرأة قد مات عنها أربعة أزواج ، فمرض مرض الموت ، فجلست عند رأسه تبكي وتقول : إلى من توصي بي ؟ قال : إلى السادس الشقي »[1] .

أي أن كل واحد من هؤلاء الرجال الخمسة لم يأخذ في يدها « غسلة » واحدة وعلقته بمشبك في حبل الغسيل !! وهذا ذنب الرجال « المخوخين » الذين تزوجوها منفردين ، ولم يتزوجوها بالجملة .

فما هو السبب في هذا التوتر الزوجي الدائم ؟!

السبب كما يرويه لنا ما خلّفه المجتمع الإنساني قديمًا وحديثًا لا يعود إلا إلى الزوجة ، فقد ظلت ثرثرتها تتدفق حتى في الفراش ، وحين مدت يدها لإطفاء النور ، قالت لزوجها : هل أقفلت كل شيء يا حبيبي ؟ فقال لها : نعم يا حبيبتي ، عدا فمك !!

وكثيرًا ما تؤدب طفلها الصغير « الزوج » بيد المكنسة أو القبقاب ، والتاريخ يذكر أن هذا الأدب النسائي القبقابي قد فازت به شجرة الدر على زوجها بالقاضية !! وفي الصين « ضربت امرأة زوجها ، الذي يخاف منها ، فاختبأ تحت السرير مذعورًا ، ولم

---

(١) المرجع السابق (ص٨٨) .

يجرؤ على الخروج ، فصاحت به : أسرع في الخروج ، فأجابها قائلًا : إذا الرجل الحقيقي ، قال : لا أخرج ، فلن يخرج »[1] .

واشتراكية الضرب الحريمي للأزواج غطت كل الأوساط ، فهذا « حاكم إحدى المحافظات يخاف من زوجته التي دأبت على شتمه وضربه لأتفه الأسباب ، وقد خدشت له وجهه ذات مرة ، وأخذ ينزف دمًا ، وفي اليوم التالي حضر إلى مقر عمله ، ورآه حاكم الولاية المشرف على شؤون حكام المحافظات ، فسأله قائلًا : كيف جرح وجهك ؟ فقال حاكم المحافظة مخفيًا الحقيقة : مساء أمس جلست تحت تعريشة في منزلي للتبرد ، فانهارت عليَّ فجأة ، وجرحت وجهي ، لم يصدق حاكم الولاية كلامه وقال : هذه الخدوش من زوجتك بكل تأكيد ، إن امرأة كهذه بغيضة وكريهة ثم التفت إلى رجاله قائلًا : اذهبوا واقبضوا عليها وقودوها إلى هنا ، واتفق أن سمعت زوجة حاكم الولاية هذا الكلام من خلف قاعة المقر ، فخرجت غاضبة وما أن رأى حاكم الولاية زوجته حتى قال لحاكم المحافظة : اذهب عني مؤقتًا ، ستنهار التعريشة في فنائي الخلفي أيضًا »[2] .

وأوامر الزوجة قضاء ، لا رادّ له ، لكنها ـ ولها الشكر ـ تمنح « هامشًا من الحريات » لرعاياها : الزوج ، وقد جلس صديقان يتذكران زوجتيهما ، وأخذ أحدهما يستعرض نفوذه المنزلي ، وقدسية تعليماته الزوجية لدى زوجته ، فقال : إنني آمر زوجتي فتطيع ، لقد طلبت منها بالأمس ماء ساخنًا فجاءت به فورًا ، أعجب الرجل « بحماشة » صديقه وسأله : أطلبت هذا الماء لتستحم به ؟ قال : لا ، لأغسل الأطباق !!

---

(١) فكاهات صينية (ص١٤١، ١٤٢) .

(٢) المرجع السابق (ص٢٠٢، ٢٠٣) .

ويحل شرع الإسلام للرجل أن يقترن بأربع نسوة ، وليس للمرأة كذلك لكن إحدى نجمات هوليود عبرت عن قناعتها وزهدها في الأزواج فقالت : إنني لا أريد أسرة كبيرة سوف أكتفي بزوجين فقط !! نعم العقل أيتها المرأة الهوليودية .

وأقرب المقربين إلى الزوجة هو رئيس هيئة أركانها ، وصاحب خططها : أمها ـ وقانا الله الشر ـ ولهذا قد تلخص العداء التقليدي المشروع بين الزوج وحماته في هذا السؤال والإجابة عنه : قال أحدهم لصديقه : ما الفرق بين المصيبة والكارثة ؟ فرد : المصيبة أن تغرق حماتك ، والكارثة أن ينقذها شخص ما !!

ووسط هذا الركام من تقبيح المرأة وتسفيه ذوقها وعقلها تتسلل إلينا ومضة من امرأة أديبة هي أجاثا كريستي حين سئلت : لماذا تزوجت واحدًا من رجال الآثار ؟ فقالت : لأنني كلما كبرت ازددت قيمة عنده !!

ولهذا النكد الزوجي الدائم ـ الذي لم يدفع أحد الأزواج للوقوع فيه ، هم اختاروه طائعين غالبًا ـ يؤثر مجموعة من الناس ـ وخاصة ذوي الفكر والعلم ـ حياة العزوبية والوحدة ، ويقدمون في انفرادهم غذاءً للبشرية أخلد من الأطفال الذين يتدحرجون زرافات ووحدانا من بطون النساء ، نتذكر الشاعر العتّابي الذي سألوه : لم لا تتزوج ؟ فقال : وجدت الصبر عنهن أيسر من الصبر عليهم [1] .

وأبو نواس الذي دفعه أقرباؤه للزواج دفعًا ، وزفوا إليه زوجة ، وحين عادوا ليهنئوه « بالصباحية » أعادها إليهم ، ولم يكن قد مسّها بخير أو بشر .

وجان بول سارتر الذي عاش مع سان دي بوفوار بدون مراسيم الزواج وقيوده ، وعباس العقاد الذي منح قلبه لعشيقته « سارة » فلفته في ورقة جريدة ، وباعته لمطعم كبدة !!

---

(١) ظرفاء ولكن حكماء (ص١١٧) .

أما المرأة المعشوقة فحالها لدى الرجل مختلف كل الاختلاف ، هي ممتعة ، آسرة ، ذكية ، تستدعي أن يجن لأجلها قيس ، وأن تحارب أثينا إسبرطة بسببها ، ويظل العاشق المتيم بكل ما فيها من جمال - وقبح - يتابعها من النافذة ويغني لها « شحات الغرام » وإذا التقيا فملعونة الدنيا وما فيها ، لأجل رشفة منها ، قال ابن قيِّم الجوزية : «قال محمد بن يحيى المدني : سمعت عطاء يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولًا كاملًا ، يفرح إن رأى مرآها ، وإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار فاليوم يشير إليها ، وتشير إليه ، فإذا التقيا لم يشكوا حبًا ، ولم ينشدا شعرًا وقام إليها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة وأصحابه »[(١)] .

ومالك أنت يا بن قيم الجوزية ممتعضًا من تطور هذه العلاقة البشرية ، كما تتطور كل الكائنات الحية ؟! لا عيب أن يقطع الرجل والمرأة المسافة بينهما في غمضة عين ، بل العيب أن يتلظى كل منهما شوقًا ، ويحوما ، ويطوفا ويدورا حول « الموضوع » حتى يضيع العمل ويفنى العمر ويموت كل منهما مجنونًا أو فاشلًا ومريضًا بالانفصام في الشخصية .

وابن قيم الجوزية - هذا الرجل الثقة - يلخص لنا تطور الحياة الاجتماعية في الدولة الإسلامية من خلال هذا الموقف الذي صوره ، كانت الحياة الإسلامية - حينها - مزدهرة ثقافيًا ، واقتصاديًا ، واجتماعيًا ، وكانت الناس بغير عقد ، شأنها في كل الدول المتقدمة المالكة زمام القيادة والسمو .

وإذا عدنا بالتاريخ إلى الوراء - قبل ابن القيم - نتوقف عند حادثة طريفة هي أن الشاعر العرجي واعد « محبوبته عند شعب من شعاب عَرْج الطائف إذا نزل رجالها

(١) ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥٠هـ) : أخبار النساء (ص٣٤) ، شرح وتقديم عبد مهنا ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ عام ١٩٩٠ .

يوم الجمعة إلى مسجد الطائف فجاءت على أتان لها ومعها جارية لها وجاء العرجي على حماره ، ومعه غلام له ، فواقع المرأة [١] ، وواقع الغلام الجارية ونزا [٢] الحمار على الأتان فقال العرجي : هذا يوم قد غاب عذّاله » [٣] .

والرجل مهما كان قدره يستخفه الفرح إذا أمكنته المرأة التي يحبها من نفسها ، فقد « حكى الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، فقال : دخلت مع شيخنا أبي إسحاق الزجّاج على القاسم بن عبد الله الوزير ، فورد إليه الخادم فسارّه بسرّ استبشر له ثم نهض ، فلم يكن بأسرع من أن عاد وفي وجهه أثر الوجوم ، فسأله شيخنا عن ذلك لأُنْس كان بينهما ، فقال له : كانت تختلف إلينا جارية لإحدى القينات فسمتها أن تبيعني إياها ، فامتنعت من ذلك ، ثم أشار عليها أحد منْ ينصحها بأن تهديها إليَّ رجاء أن أضاعف لها ثمنها ، فلما جاءت أعلمني الخادم بذلك ، فنهضت مستبشرًا لافتضاضها فوجدتها قد حاضت فكان مني ما ترى ، فأخذ شيخنا الدواة من بين يديه وكتب :

فارس ماض بحربته حاذقٌ بالطعن في الظُّلَم
رام أن يدمى فريسته فاتقته من دم بدم [٤]

فهذا « وزير » ويجلس مع اثنين من أجل العلماء ، ثم يتركهما فجأة ، وينط كالطفل إلى فتاة صغيرة ولو كانت زوجته لهرب منها !!

وللحق فإن النساء أيضًا يعتريهن النهم إلى الذكر والشبق للحاجة الغريزية ، وقد

---

(١) واقع المرأة : ضاجعها وجامعها .

(٢) نزا : جامع الحيوان الحيوان .

(٣) طرائف من التراث العربي (ص٢٣٧) .

(٤) المرجع السابق (ص١٣٢) .

تلتهب هذه الحاجة فلا يكفيها رجل ولا اثنان ولا طابور ، كما قال أبو نواس :

ومظهـــرة لخلـــق الله حبًـــا وتُلقـــي بالتحيـــة والســـلام

أتيـــتُ فؤادهـــا أشـــكو إليـــه فلـــم أخلـص إليـه مـن الزحـام

فيـا مـن لـيس يكفيهـا خليـل ولا ألفـا خليـل كـل عـامَ

أراك بقيـــة مـــن قـــوم موســـى فهـم لا يصـبرون علـى طعـام

وللحق أيضًا فإن الرجل ـ أحيانًا ـ تنتابه حالة « مرضية » من « العفاف » فلا يرغب من المرأة إلا في أقل القليل « قال أبو عثمان :

قد ترى الأعرابي ، وظاهره الجفاء ، فما هو إلا أن يعشق حتى تجده أرق من الماء وألطف من الهواء ومع ذلك يلقى أحدهم عشيقته فيترشفها ويعانقها من فوق الثياب ويمنعه التكرم ويحجزه الورع عن وطئها وإن أمكنته .

ويقتصرون على الحديث والقبل واللمس »[1] ، وهذا أمر طبيعي للهوة الواسعة بين أهل البداوة والتحضر .

وقد تكتفي المرأة بالمغازلة الكلامية من حبيبها إذا لم يكن فيه لها أمل !! وربما استنطقته هي هذه المغازلة ودفعته إليها دفعًا ، تقول فتاة يابانية لحبيبها : ألا ترى أن عيني مثل النجوم ؟ قال : أجل ، قالت : وأن أسناني مثل حبات اللؤلؤ ؟ قال : أجل ، قالت : وأن شعري مثل سنابل القمح ؟ فرد : أجل .... أجل ، فقالت : أوه حبيبي ، ما أجمل العبارات التي تقولها لي !!

وهي ذكية أيضًا ، وما دامت ليست زوجه ، فقد ألحّ شاب إيطالي بالطريق في متابعة فتاة جميلة ، ومغازلتها ، فالتفتت إليه سائلة : لِمَ تتبعني ؟ قال : لأني مفتون

(١) أخبار النساء (ص٣٧) .

بجمالك ، وعشقتك من أول نظرة ، قالت : إن أختي الأجمل مني قادمة ورائي وهي جديرة بحبك ، ونظر الفتى خلفه ليرى الأجمل ، فإذا بها عجوز دميمة شمطاء ، فرد على الفتاة : لماذا تكذبين عليَّ ؟ قالت له : لأنك أنت أيضًا تكذب عليَّ ، فلو أنك تحبني حقًا لما آثرت عليَّ أخرى ، ولا نظرت للخلف باحثًا عن فتاة تكون أجمل مني !! إنها خسارة لهذا الإيطالي لا تفوقها خسارة إلا أن يحرم من فطيرة بيتزا في أحد الأيام .

***

لا تقتصر العلاقة بين الرجل والمرأة على الزواج والعشق ، فهناك الزمالة والمصالح الحياتية الأخرى التي تربط حياتهما بغير انفصام ، ولعل أبرز هذه العلاقات الكثيرة رباط الزمالة الحديثة في العمل ، وهي علاقة قائمة على الميني جيب ، والمكياج و«الزنقة» في المواصلات ، ونسج التريكو ، وإعداد الملوخية في المكاتب من ناحية المرأة ، وقائمة على الغمز واللمس و« الرسم » من ناحية الرجل ، إنها علاقة مثالية جدًّا ، يظهر كل طرف فيها ما ليس فيه من الميزات ، ويسلم الطرف الآخر بهذه الميزات ويستسيغها ، ويفيد منها ما دام لم يقع الزواج وتحدث الورطة !! ويمكن أن تتطور هذه العلاقة في العمل إلى الأمومة .

والعمل في الزمن الحديث لم يعد عنه غنى للمرأة المتطورة في بلادنا العربية ، فهي كل يوم مضطرة لتجميل وجهها وشد جلده والتعطر ، والسير في دلال بعيدًا عن أعين الزوج الممل !! إنها تجد فسحة من الوقت - في مكاتب العمل - لتجهيز طبيخ اليوم التالي ، وأحيانًا إعداد بديل جاهز للزوج المشاكس !! لكن قلما تجد زوجًا مشاكسًا لزوجته بسبب العمل ، لأنه يفيد ويستفيد ، فإذا فرج عن زوجته - بالعمل - كربة ، فرجت عنه زوجات غيره كربة من كربات منزله .

من حكايا زمالة العمل هذه - وخاصة في العمل السياسي - أن ونستون تشرشل

خطب يومًا في البرلمان الإنجليزي ، فهاجم المرأة وكال لها الاتهامات ، فصاحت في وجهه إحدى عضوات البرلمان قائلة : لو كنت زوجي لوضعت لك السم في القهوة ، فرد فورًا ، ولو كنت زوجك لشربته فورًا !!

ثم إن للمرأة « لسانها السليط » الذي تستطيع أن ترد به سموم الرجل فقد « دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان ذات يوم ، ولما نظر إليها وجدها شمطاء بدا عليها الكبر ، وكادت تولي ، وينتهي أجلها ، فقال لها : ما الذي رأى فيك «جميل» ، فأحبك ، وشغف بك ؟ قالت بثينة : الذي رآه الناس فيك حين استخلفوك !! »[(١)] .

ولها لدغاتها التي تفت في عظام الرجل فقد « كان علي بن المحسن بن علي ، أبو القاسم التنوخي ظريفًا نبيلًا ، تقلد قضاء عدة نواح منها المدائن ، وأذربيجان وغيرها ، وكان جيد النادرة اجتاز يومًا في بعض الدروب فسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر بنتك يا أختي ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع القاضي التنوخي وضرب بالسياط ، فرفع رأسه إليها وقال : يا بظراء[(٢)] صار صفعي تاريخك ؟! ما وجدت تاريخًا غيره !! »[(٣)] .

وفارق الزمن الذي يعني فارقًا في المفاهيم والمظاهر يتلخص في هذه الحكاية الإيطالية : « توقف عجوز ينظر بدهشة إلى فتاة ترتدي بنطلونًا ، لم يصدق عينيه ، فاتجه إلى أقرب المارة وسأله :

تُرى ، هل هو شاب أم فتاة ؟!

إنها فتاة .

---

(١) من قصص الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

(٢) البظراء : ذات البظر ، وهي العضلة الناتئة بين شطرتي فرج المرأة .

(٣) طرائف من التراث العربي (ص١٦٠) .

وترتدي زي الرجال ؟! لكن كيف يسمح لها والداها أن تخرج بهذا الزي ؟!

إنها ابنتي أيها السيد !!

آه معذرة ، لم أكن أعرف أن حضرتك والدها .

أنت رجل وقح ، أنا والدتها »[1] .

ويبدو أن هذا العجوز الإيطالي اسمه : حسنين !!!



(١) Leggiamco e conversiamo (ص٢٧) .



رجل الحمار !!

على الرغم من أن الضحكة ـ في بعض طرائقها ـ قد تؤلف نفسها بنفسها ، فتنفجر فجأة على أحد الألسنة الحكيمة ، أو في الموقف غير المعد مسبقًا ، فإن بعض أشكالها يقتضي الجلوس والتفكير والتدبير والتطوير ، وكذلك بعض الأماكن كمعامل لتفريخ عناصر الإضحاك ، ففي المدينة يتبوأ المقهى مقامًا كبيرًا في هذا المجال وكذلك الصالونات الأدبية ، والصياغة الغالبة على ما يفرز في هذه الأماكن هي السرعة والخفة والاعتماد على ذكاء المتلقي وتوهج ذهنه ، ولهذا يشاع في المضحكات المسجلة على شرائط كاسيت أو تلقي في أفراح المدن لأمثال شكوكو وفكري الجيزاوي وحمادة سلطان والفار ، شاع الروح السريع بحيث تجد الاستجابة لدى من يرغب المضحك المحترف في إضحاكهم وخاصة أنه قد قبض مقدم الثمن ، وإذا لم تنفشخ أشداقهم أكثر فربما لا ينال غير حمرة الطماطم المعفنة تغطي وجهه ، وفرقعة اللطمات الساخنة تدفئ قفاه !!

وفي الريف كانت المصطبة المأوى المثالي لإلقاء النكات والسخرية والقفشات مع كركرة « النرجيلة » و«الجوزة» وطعم الشاي الأسود الذي يذيب الكبد ، ويدلدل الرجال أرجلهم من فوق المصاطب وهم يتابعون مضحكًا ريفيًا غالبًا لا يمتهن هذا العمل ، إنما هو من « غلابة » القرية الذين يتطلعون إلى الجلوس مع كبار القوم على المصطبة ، فيتخذ الإضحاك وسيلة إلى هذا الارتقاء !! وربما يتفرغ بعضهم للإضحاك فينام نهارًا تحت أي حائط أو في خص ببعض الحقول ، ويدور في المساء

على البيوت العامرة بالكركرة والأصوات الخشنة فيتقوت العشاء والإفطار ويقوتهم ابتسامات فظة أو رقيقة !!

أما النساء فيقاطعن جلسة المصطبة مجبرات بحكم التقاليد لكنهن يقرفصن خلف الأبواب قريبًا من جلسة الدردشة وتتولى آذانهن التقاط ما تفيض به ألسنة الرجال من قفشات ونكات ، وكثيرًا ما تقع إحداهن صريعة هوى أحد هؤلاء المجتمعين أمام البيت على المصطبة لأن صوته أكثر غلظة أو لسانه أحد نطقًا ، أو أنه قريب العمدة !! فكم من حكايا الهوى الريفي ولدت وعششت على المصاطب .

وإذا كانت هناك مضحكات تنبع من الواقع غالبًا ، فإن جل مضحكات الريف تصاغ في الإطار الأسطوري والتخريفي ، فتتكئ على حكايا الجن والعفاريت وبركات الأولياء ، وهم يرون ما يقدمونه من هذه التصانيف بصيغة قصصية فيها الاسترخاء والتمهل ، وفيها اصطناع التوثيق ، وهم في هذا ربما كانوا متأثرين بالقُصَّاص الذين كانوا يجلسون في المساجد ـ عهد الدولة العباسية ـ يروون الأحاديث والحكايا ، ويسندونها لناس من المختصين أو غيرهم .

ولا نرى طفلًا ريفيًا في مصر لم يشاهد شجرة أو حجرًا ، أو قبرًا وسط الحقول والمباني يتبرك به آباؤه وأهله ويطلقون عليه أسماء كالشيخ العجمي والشيخة مريم ، وقد يتطور الخيال الريفي ليذكر أحدهم بثقة لا يعتريها التردد أنه شاهد في إحدى الليالي المظلمة الشيخ العجمي والشيخة مريم يسيران بفانوس يحمله الشيخ المتقدم أمام الشيخة ويرتديان ملابس خضراء ، وهما قصيران كالأطفال ، ثم يختفيان فجأة !! وينبري واحد وثلاثة وأربعة لتأكيد الرواية وذكر مشاهداتهم هذه !!

ولكل إنسان عفريت ، بمجرد قتله يظهر عفريته ـ الذي يكون أعمى في حياته ـ فيكحل عينيه بدم رفيقه المقتول فيبصر ، ويبدأ في ممارسة أعماله العفريتية ليلًا .

فأحيانًا تراه نخلة قصيرة انزرعت أمامك فجأة ، وكلما اقتربت منها ترتفع للسماء حتى تصل إلى النجوم ثم تتهاوى فجأة بلا حس ولا خبر !! وقد يظهر العفريت في هيئة ثياب بيضاء تغطي الأرض على مساحة شاسعة ، تنحسر ، وتمتد وترتفع لأعلى ، وتهبط لأسفل ، وربما تحول العفريت إلى شخص يرتدي ملابس بيضاء ويكبر أمام عينيك حتى يقطع رأسه السحاب ، وربما تحول إلى صاروخ من النيران ، وإذا أقرأته السلام لا يرد ، بل يهز رأسه بهمهمة غير مفهومة .

وللقطط والكلاب نصيب من هذه التهيؤات العفريتية ، حتى إن الأمهات يحذرن الأطفال من ضرب القطط ليلًا لأنها جنيات تخرج تلقط رزقها ليلًا من الآدميين ، أي إن الجن القادرين يتسولون من البشر الجائعين ، يا لهم من جن سخفاء عديمي النظر .

أما الحمار فله نصيب كبير من حكايا المصاطب ، فهو ليس كائنًا عُتُلًا يحتمل الضرب والجوع ، إنما هو قد يكون عفريتًا إذا امتطيته ليلًا التصقت به فإذا ظهره حقل من الشوك ينغرس في فخذيك وفي ...... !!

ويطير بك الحمار قافزًا الترع والبحار ، ويتخذك لهوه طوال الليل ، فلا تعود إلى أهلك إلا كتلة باردة « ملبوسة » بالعفريت ، لكن هذه الحالة الحميرية ـ لكثرة تكرارها ـ وجد لها الفلاح حلًا ، هو أن يحمل معه مطواة أو « ميبر » ـ أي الإبرة الكبيرة التي يحاك بها الغبيط ـ وبمجرد أن يقفز على ظهر الحمار العفريت يغرس هذا الميبر في قفاه ، فيفقد خصائصه العفريتية ويتحول إلى حمار مستأنس مطيع ، يتحدث إليك ، وإذا اقتربت به من الكلاب والأضواء رجاك أن تطلق سراحه ؛ لأنه يخشاها ، ثم لا يظهر لك بعدها أبدًا ، ومن فعلوا هذه الفعلة البشرية التي تفوقت على العفاريت كثيرون جدًّا ، وكلهم من الأموات الذين لم ترهم ، ولا تستطيع أن

تسأَلهم .

ومن الكلاسيكيات العفريتية الحميرية أن « الواد روبي بن إسماعيل فرج » كان يعتزم ري حقله فجرًا ، فنام مبكرًا في منزله ليستيقظ قبيل الفجر ويذهب إلى الغيط لريها ، واتفق مع « محمد أحمد شعبان » أن يأتي إليه ويوقظه في التوقيت المطلوب ، وبعد استغراقه في النوم طرق الباب وفتح « روبي » فرأى « محمدًا » يستحثه على سرعة مغادرة المنزل إلى الحقل لأن الفجر قد بص بعينيه .

فخرج روبي ومعه محمد على سبيل الونس ، ولأن الشتاء كان قارص البرودة فقد جمع روبي حطبًا وبعض كيزان الذرة ليسويها ويأكل مع محمد ويتدفأ كلاهما ، وأثناء الدردشة في أمور الدنيا ، وهما يمدان أيديهما إلى النار لاقتباس الدفء رفع « محمد » رجله ليدفأها أيضًا ، ووقعت عين روبي على رجل محمد فما هي برجل آدمية ولا تشبهها إنما كانت رجل حمار بحافر وشعر ، فصرخ روبي وأدرك أن العفريت قد خدعه ، وهب جريًا إلى داره ليكمل رحلة النوم !!

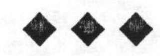
وبعد أن استرخى جسد روبي على الفرن وأكمل لف الغبيط على جسده ، ونام ، سمع طرقًا على الباب ، فهب وفتح ، فإذا محمد أحمد شعبان أمامه يوبخه على تأخيره كل هذا الوقت عن ري أرضه وقد أذن الفجر وأوشكت الشمس على البزوغ ، فحمل روبي فأسه بسرعة ، وخرج مع محمد ، لكن لسعة البرد لم ترحمهما فجمع حطبًا ، وأشعل نارًا ومد يديه يتدفأ وهو يحدث محمد عن هذا المقلب الذي أوقعه فيه العفريت فتلبس شكله وحين نظر إلى رجله وجدها رجل حمار ، فرفع محمد رجله وقال له : أكانت رجل العفريت مثل هذه ؟!

فإذا بها نفس رجل الحمار التي رآها منذ ساعة ، فبصق في عبه وجرى إلى داره ورفض أن يفتح بابه حتى أذنت الديوك واستيقظت البنت « مكاسب » زوجته

لتجده منفوخ الجسد من الرعب .

هذه الحكاية تروى في كل أقاليم مصر الزراعية تقريبًا ، لكن بطلها في الفيوم «روبي» ، وفي المنوفية «متولي زهران» و«إبراهيم عبد المنعم» ، وفي أسيوط محمد توني ، وفي سوهاج محمود الطهطاوي ، وفي المنيا محمود مطر ، وسيد حسين ، وفي الشرقية أمير أباظة ومحمود كريم ، والسيد المخزنجي ، وفي كفر الشيخ أحمد الشامي ، وفي قنا محمد جبريل ..... !!

أما حكايات أمنا الغولة ، وست الحسن والجمال ، والشاطر حسن فقد انقرضت جميعًا بعد أن تحولت أمنا الغولة إلى «أمنا أمريكا» وست الحسن والجمال إلى ليلى علوي وهيفاء وسيمون وشيرين وسعدية بنت عب سميع ، وأصبح الشاطر حسن : الخائب حسن !!





مره واحد صعيدي.. !!

أصبحت النكتة وأخواتها هذا الزمان سهام الضعفاء، ودواء الفقراء الذين لا يملكون قوة يدفعون بها عن أنفسهم ظلمًا، ولا مالًا يقيمون به أودًا فاستخفوا بكل ما هو مستقر ثابت؛ لأن الثبات معناه بقاؤهم في الحضيض، وسخروا من أنفسهم علهم يتحركون وينافحون الأقوياء عن حرماتهم وقوتهم، فانتشرت النكتة السياسية التي تسخر من الحكام وأولي الأمر ـ وأفرد لها كاتب مثل عادل حمودة مؤلفًا كاملًا ـ وتدفقت النكتة الاجتماعية، والنكات الإقليمية التي « تُدبج للصعايدة » مبتدئة بعبارة: « مرة واحد صعيدي »، واصفة طرائق تعاملهم مع وسائل المدنية الحديثة وخاصة حينما يقبلون على القاهرة، ورغم أن هذه السخرية من الصعايدة توحي بالحط من شأنهم، فإنها تلمح من بعيد بهذا الاضطهاد الذي يعانونه في قراهم ونجوعهم من البيئة الخشنة الجافة، ومن فقدان الرعاية الحديثة، وعدم الاهتمام بمساواتهم مع مواطني المدينة، فيصطدمون بهم وبطرق حياتهم المتطورة عنهم بعض الشيء.

وربما تتناول النكتة بعض السمات التي يظن الناس أنها ملتصقة ببعض الأقاليم كالبخل الدمياطي والدهاء المنوفي والفهلوة الإسكندرانية و« الهجس » البورسعيدي وتصاغ كل منها في الأداء اللهجي المناسب للإقليم الذي تصور طبائعه، وليس مستبعدًا مثلًا أن يؤلف صعيدي نكاتًا على الصعايدة، ويقال: إن مواطني المنيا دعوا « منولوجستًا » لإحياء حفلة، وكان صعيديًا ومشهورًا رغم ذلك يواصل السخرية من الصعايدة وبعد الحفل ربطوه في نخلة، وقدموا له مؤخر

أجره لطمات وبصقات وشلاليت ، فتحولت العبارة التقليدية بعد ذلك على لسانه من « مرة واحد صعيدي » إلى « مرة واحد بلدينا » .

ونشأ في السنوات الأخيرة عنصر إضحاك جديد هو « الفزورة » التي تقوم على سؤال مركز وإجابة أكثر تركيزًا باللهجة العامية وبعيدة كل البعد عن المنطق والإجابة المتوقعة ، ومن هذه الفوازير :

إيه الفرق بين الفيل والنملة ؟

إن الفيل رجله بتنمل لكن النملة رجلها ما بتفيلش .

إيه الفرق بين الليمونة والزيتونة ؟

إن الليمونة ممكن تنعمل لامونااته ، لكن الزيتونة ما تتعملش زيتوناتة .

ليه النملة بتذاكر فوق الشجرة ؟

عشان بتحضر دراسات عليا .

ذهبت النملة مع عريسها الفيل إلى المأذون لإتمام عقد الزواج ، مالت النملة هامسة في أذن المأذون ، فماذا قالت له ؟

أرجوك انقذ الفيل اللي في بطني .

شيء أزرق مر من أمام عينيك فما هو ؟

ذبابة تلبس بنطلون الجينز .

شيء أبيض يجري على الأرض ، فما هو ؟

صرصار يذهب لأداء الحج .

دخان أبيض يجري على الأرض فما هو ؟

صرصار يركب موتسيكله .

ليه الصعيدي لما بيدخل الحمام بيسيب الباب مفتوحًا ؟

عشان ما حدش يبص عليه من خرم الباب .

***

وربما كان التلميح دافعًا للإضحاك ، لكن هذا النوع من الضحك يدور في إطار شبه سري ، أي لا يذاع في إذاعة ، ولا يسجل في شرائط كاسيت ، ويتعفف الابن أن يقوله أمام الأب أو يسمعه منه ، ولكن النساء يضعن رءوسهن في رءوس بعضهن ، ويفيض كبتهن في مجتمعنا بحارًا من هذه التلميحات ، وكذا يفعل الرجال فيما بينهم ؛ وهذه الحالة من السرية تعد تسرية عن النفوس ، وبديلًا للممارسة الصحية للعلاقات بين الرجل والمرأة .

وكلما كان المجتمع أكثر انغلاقًا في هذه الوجهة كانت النكتة الجنسية أكثر فيضًا وسفورًا ، وقد تكون بذيئة ، وربما تخفَّتْ في الألفاظ والتعبيرات العادية ، لكنها مشحونة برغبة وأبعاد يفهمها المتلقي كما يفهمها الملقي .

من هذه الابتسامات الجنسية الوقور أن فتاة وقفت في البلكونة ، وانتظرت الواد بتاعها ، ولما جه نده لها بكلاكس العربية : انزلي ، قالت له : أحسن بابا يشوفني ، فشخط فيها : انزلي ، راحت نازلة ، وقال لها : ادخلي العربية ، فقالت : لحسن بابا يشوفني ، قال لها : ادخلي ، دخلت ، ولما وصل لحد بيته وقال لها : ادخلي قالت : لحسن بابا يشوفني ، فقال : ادخلي ، راحت داخلة ، ففتح حجرة النوم وقال لها : ادخلي ، قالت : لحسن بابا يشوفني ، فقال : ادخلي راحت داخلة .

فدخّلها وقفل الباب بتاع أوضة النوم كويس ، وطفى النور ، وقال لها ضاحكًا : ها ها ها ، شوفي ساعتي بتنور في الضلمة ازاي ؟!!!!

لما عرف الراجل من الجيران إن مراته بتخونه ، وقف في الضلمة تحت بير السلم ، ولما جه الراجل اللي كان عند مراته ينزل طلع له الزوج في الضلمة وقال له : « بخ » ،

فاتخض الراجل ، فقال له الزوج : كل يوم من ده !!

والسخرية هنا ـ رغم التلميح الجنسي ـ من الرجال المخوخين أزواجًا وغير أزواج ، وإذا كان الصعايدة ، يحظون بقدر « محترم » من السخرية فإن الذين ينافسونهم في هذه السخرية هم « عيال » مصر الجديدة والزمالك « المايصين » المدللين المائعين .

***

ومما يقال عن الصعايدة : مرة واحد صعيدي اشترى عربية بيجو عشان يشتغل عليها ، وبعد ما شحنها بالركاب بدأ يسوق بنفسه ، فزاد من سرعة العربية فاتفزع الركاب ، فقال له واحد منهم : حاسب يا اسطى شوية ، فقال له الصعيدي : ع تفهم في البيجو ؟ فقال له : لأ ، فقال له : يبقى تسكت ، وزاد السرعة أكثر ، وبعد فترة قال واحد من الركاب : حاسب يا اسطى شوية ، فقال له الصعيدي : ع تفهم في البيجو ؟ فقال له : لأ ، فقال له الصعيدي : يبقى تسكت ، وبعد فترة زادت سرعة العربية جدًا ، فصرخ الركاب بخوف ، وقال واحد منهم للسواق : ما تحاسب يا أسطى شوية ، فقال له الصعيدي : ع تفهم في البيجو ؟ فقال له : أيوه ، فقال الصعيدي : طب تعالي والنبي وقفها عشان أنا م بفهامش في البيجو !!

واحد صعيدي نزل مصر ، ووقف يتفرج على الساعة اللي في ميدان العتبة ، فشافه حرامي وسأله : عايز تشتري الساعة دي ؟ قال له : يا ريت ، فأخذ منه الفلوس ، وقال له : استنى بقه لما أروح أجيب سلم علشان أديها لك ، ومشي وسابه ، فرجع الصعيدي للبلد وقال لواحد صاحبه ، فقال له : أنا حانزل مصر وانتقم لك ، ونزل مصر ، ووقف جنب الساعة ، فشافه الحرامي وسأله : عايز تشتريها ؟ فقال له يا ريت ، وخد منه الحرامي الفلوس ، وقال له : استنى لما أروح أجيب سلم علشان أنزّل لك الساعة ، فرد

الصعيدي : استنى إنت هنا ، هو أنا عبيط ، أنا اللي ع أروح أجيب السلم .

وإذا كانت السخرية من بلدياتنا الصعايدة تركز على توهم سذاجتهم ، واستغلال هذه السذاجة كعيب عقلي ، فإن السخرية لم تترك العيوب الخلقية الأخرى كالطول الفارع والقصر الظاهر والسمنة الزائدة والنحافة المفرطة ، وفي النحافة مثلًا يقال : واحد رفيع اشترى قماشة مألمة ، فصلها على قلم واحد .

رفيع يبص من خرم الباب بعنيه الاتنين .

ومن حكايا القرع يقال : واحد أقرع عنده شعرتين بس في دماغه ، راح للحلاق قال له : اعملي تسريحة حلوة ، قام الحلاق وهو ماسك المقص غصب عنه قص شعراية من الاتنين ، فبص له الراجل وقال : شاطر قصيت شعرة وفاضل شعرة ، طب لو سمحت افرقها لي من النص .

وربما اتكأت الضحكة على البعد اللغوي ، بهذا النوع من الجناس كأن يقال : كان الرجل يمشي حزينًا جدًا ، وكان يبكي في الطريق ، فقابله رجل آخر وسأله : إيه ؟ فيه إيه ؟ مالك ؟ فرد قائلًا : يا أخي الدنيا دي كلها مآسي ، فقال له الرجل : ليه ، هو انت مآسك كام !!

وقد تخرج النكتة عن كل هذه العباءات ، وتبعد عن السياسة والجنس واللغة والسخرية من الصعايدة والدمايطة لتصلح « نكتة بيضاء » تبغي الإضحاك والإقناع النفسي وإذا استخفت ـ أحيانًا ـ فهي تستخف بالهروب من الواجب ، أي سخرية الإنسان من نفسه ، فمثلًا : مدرس في الفترة الصباحية سأل تلميذه : قول يا ولد مين اللي قتل سليمان الحلبي ؟ فرد التلميذ : والله ما أنا يا بيه ، تلاقيه واحد من ولاد الكلب بتوع الضهر .

واحد راح للحلاق عشان يحلق ذقنه ، وكان الموس تلم ، وكل ما يجي يمشيه على

وشه يتعور ، فيحط له على التعويرة قطنة ، وبعد شوية بص الراجل لنفسه في المراية فلقي على الجنب الشمال كله قطن ، فبص للحلاق وقال له : انت زرعتلي الفدان ده قطن ، ازرعلي بقى الثاني ذرة !!

المدرس : لماذا تأخرت ؟

التلميذ : بسبب اللافتة.

المدرس : أي لافتة ؟

التلميذ : لافتة تقول : تمهل ، أمامك مدرسة .

الدكتور : ماذا تأكل في الغداء ؟

المريض : لا تكلف نفسك يا دكتور ، هات ما عندك !!

كان الرجل متعبًا فجلس داخل سيارته ، وراح في سبات عميق وبعد ربع ساعة سمع صوتًا على زجاج النافذة ففتح عينيه ونظر إلى الرجل الذي قال له : من فضلك كم الساعة الآن ؟ فرد الرجل بضيق : الثالثة وربع وبعد ربع ساعة استيقظ من نومه على صوت يد امرأة تطرق زجاج النافذة فالتفت إليها ، فقالت : من فضلك كم الساعة الآن ؟! فرد بغيظ : الثالثة والنصف ، وبعدها بربع ساعة أخرى تكرر الموقف ، فكتب ورقة يقول فيها : ليس معي ساعة » ولصقها على زجاج النافذة ، وبعد قليل سمع صوت شخص يدق النافذة فصاح بدهشة : ماذا تريد ؟ فرأى رجلًا يقول له : الساعة الآن الرابعة تمامًا !!

وأكثر هذه التسالي تركيزًا ، وأقلها شيوعًا لقلة مادتها هو هذا النوع من المفارقة حين يقولون مثلًا : واحد سوداني ماشي ، فوقع اتقشر ، واحد صيني ماشي وقع اتكسر .

***

ومن الملاحظ أن هذه المضحكات بسائر أنواعها موزعة ـ في صياغتها ـ ما بين اللغة الفصحى واللهجة ـ أو اللهجات ـ العامية ، لكن العامية هي الغالبة ، لأن تأليف النكات في المواقف الضاحكة ليس مقصورًا على المثقفين ، بل ربما خرج بالفطرة من أفواه الأميين ، ولأنه في معظمه يلقى شفاها ليس مكتوبًا لكن بعد انتشار وسائل التوصيل المكتوبة « الصحف » أصبح هناك من يؤلف لتنشر هذه الأعمال مكتوبة ، وهناك من يلتقط العامية ويهذبها لينشرها قريبة من الفصحى .

هذا مع النظر إلى أن الهوة ليست كبيرة بين عامية هذه المضحكات ولغتنا الفصحى ، فمثلًا حين تقول الجارة لجارتها البخيلة : لو سمحتي سلفيني مية جرام سكر ، الجارة البخيلة : كان على عيني ، لكن للأسف ما عنديش ميزان ، نرى إعادة كتابتها فصيحة هكذا :

لو سمحت « تسمحين » سلفيني مائة جرام سكر .

كان على عيني ، لكن للأسف ما عندي « ليس عندي » ميزان !!

فلفظة « مائة » تخفف إلى « ماية » ومعروف أنها تنطق ـ سواء بالنبر أو بدونه ـ بغير الألف ، وتكتب أحيانًا « مئة » فتخفف إلى « مية » وحدث تشديد لحرف الياء ، فأضحت في العامية « ميّة » ولفظة « سمحتي » الياء الأخيرة فيها إشباع للكسرة تحت التاء ، ولا تظهر إلا في الكتابة ، وأصل التعبير « ما عنديش » هو « ما عندي شيء » وحذفت الهمزة الأخيرة مع إلحاق الشين بياء « عندي » وتعبير « كان على عيني » من التركيبات المستحدثة التي لا تتنافى مع الفصاحة ، واعتاد عليها الذوق ، ومفرداتها جميعًا فصحى ، وإن كان يجري عليها التسكين ، وخاصة كان وهو شائع في العاميات .

وهذا مثل آخر : « كان فيه فلاح فقير قوي ، وكل يوم يقعد يصلي طول الليل ، ويدعي لربنا ، ويقول : يا رب ابعت لي جاموسة والنبي يا رب .

وفضل يعمل كده شهر : كل يوم يسهر طول الليل يصلي ويدعي لربنا ويقول : يا رب أنا عايز جاموسة ، وبعد شهر صحي من النوم الصبح لقي حمار واقف جنبه ، فقال : ليه كده يا رب ؟! إنت مش عارف الحمار من الجاموسة ؟!! » .

فنرى هنا الألفاظ كلها فصيحة ، لكن تركيب العبارة حدث له بعض التغييرات ، فسكنت الألفاظ « شهر » بدلًا من « شهرًا » ، « حمار واقف » بدلًا من « حمارًا واقفًا » ، وتغيرت دلائل الألفاظ فحلت محل ألفاظ أخرى ، فقيل مثلًا : كان فيه فلاح فقير قوي ، والفصحى : كان هناك فلاح فقير جدًا ، وعبارة « فيه » هنا ـ وهي كثيرة الاستعمال في مثل هذه الصيغ ـ تعني ، في هذا المكان ، أو الزمان ، ولفظة « كده » هي « كذا » أو « هكذا » ، « ابعت » تحولت الثاء إلى تاء ، وهي قريبة منها في المخرج ، « يدعي » بدلًا من « يدعو » ، « عايز » أصلها : عاز يعوز وعائز وأعوز ويعوزني .... « صحي » تحولت الألف إلى ياء والأصل « صحا » ، والتركيب « ليه » ربما جاء من عبارة : لم هذا ؟؟ فحذفت الميم من « لم » وأشبعت كسرة اللام مع دمج الحرف الأول من هذا بها .

والتركيب : مش عارف ، منحوت من العبارة : ما شيئًا نعرفه ؟! فتحولت فتحة « ما » الطويلة إلى ضمة ، والشين من « شيء » وحذفت بقية العبارة ، ولفظة «فضل» حلت محل « ظل » ، وفي هذه النكتة نرى لوازم زائدة في العبارة العامية كقولهم : وكل يوم يقعد يصلي فـ« يقعد » هذه زائدة ، وحدث بعض التغيير في عبارة «بجانبه» ، فانتقلت إلى « جانبه » ثم حذفت الألف أيضًا .

هكذا يبدو الكثير من العبارات الضاحكة تقف على الحد الأوسط بين اللغة الفصحى واللهجة العامية لأنها تصاغ لجميع الثقافات والطبقات والمجتمعات ، وتجمع ما فرقته السياسة ، وصراعات الحياة ، ورغيف الخبز .

مضحكو
هذا الزمان

محاولة لنقد الكاريكاتير:

قد تتوقف عيناك مندهشتين، وتقفز من شفتيك قهقهة عالية أو بسمة مختلسة، وأنت ترى أحد رسوم الكاريكاتير، وإذا سألتك: لماذا تضحك ؟! فربما لا تقول إلا: إنه رسم جميل، وإذا استطردت ستشرح ما وراءه من أبعاد وأفكار، وقدرته على معالجة قضية ما تخصك أنت، ثم تصمت كأنك قد أجبت على السؤال كل الإجابة، والحق أنك أجبت بعض الإجابة فقط، وتحدثت بتعبيرات انطباعية ذاتية، قد تختلف من شخص لآخر حسب ثقافته وعمره وانتمائه الاجتماعي والاقتصادي، وحسب جنسيته أيضًا.

فحينما يصور رسام زحام المواصلات في القاهرة فأنت تتنفس الصعداء بارتياح وتبتسم بصدق لأنه عبر ـ بسخرية ـ عن همّ مكنون بداخلك، إذا كنت مصريًّا وقاهريًّا على وجه التخصيص.

أما إذا رأى مواطن سويدي هذا الرسم فلربما يتعاطف مع هؤلاء القوم «المتخلفين» الذين هم نحن !! وقد ينظر إلى الرسم باستخفاف وسخرية من البيئة التي أنتجته، ولكنه ـ غالبًا ـ لن يبتسم، لأن الأمر لا يهمه قدر اهتمامه بقضية الانتحار وشيوعها مثلًا، أو أية قضية تعدّ إفرازًا طبيعيًا لبيئة السويد.

والأمر كذلك بالنسبة لصغير السن الذي «ينبسط» وتستهويه السخرية من الآباء و«رجعيتهم» في وقت ينفر فيه الآباء من نفس الرسم الذي يصور هذه الحالة ومن المؤكد أن الزوجات النكديات كنْ شديدات الحنق على محمد حاكم وهو

يسخر منهن في بعض رسوماته التي تضحك الآخرين وقد يكون رصيد الدعاء على مصطفى حسين من المغنين بالعيّ الضفدع والكثيرين من المغنين الشباب ، قد يكون هذا الرصيد قد تجاوز في ثقله رصيد أمريكا من الذهب !!

فالأحكام على فن الكاريكاتير ذاتية ، أي أنها تأخذ من « النقد » هامشًا ضئيلًا ، هو الانطباع ، أما التقييم العلمي المقنن فهو غائب عن هذا الفن الذي أضحى يحتل موقعًا رفيعًا بين فنون الإضحاك القديمة والحديثة .

وعلى الرغم من أنه « فن » كالشعر ، والمسرح ، والقصة فهو لم يحظَ بنظرية لنقده ، رغم أن نقد سائر الفنون التشكيلية الأخرى كالتصوير والنحت أضحى أمرًا محسومًا ، وله مدارسه واتجاهاته وأئمته .

وحين سألت الفنان زهدي - رحمه الله !! - عن إمكانات إنتاج نظرية لنقد الكاريكاتير قال : يمكنكم أنتم كأدباء - تجيدون التنظير والكلام - أن تفعلوا هذا ، أما نحن فلنا الإبداع .

وإذا كان الحكم على هذا الفن - كغيره - لا يخلو من الذاتية فإنني حاولت مزج هذه الذاتية - أو ذوقي الخاص - بشيء من الموضوعية والتقنين لاستنباط مرتكزات واضحة الحدود للحكم على رسم الكاريكاتير ومقارنته بغيره ، وربما أكون قد أصبت بعض الإصابة أو فشلت بعض الفشل ، لكنه في كل حال الاجتهاد الذي لا يستقر إلا بمتابعته وتقييمه - هو أيضًا - من آخرين لينتهي الحوار حول هذا الوضع بنظرية أو نظريات لنقد الكاريكاتير .

ماذا إذن تكون إجابتي لو طرحت أنت عليّ السؤال الذي طرحته أنا منذ بدء هذا الكلام ؟! أي ما رأيي في هذا الرسم أو ذلك ؟!

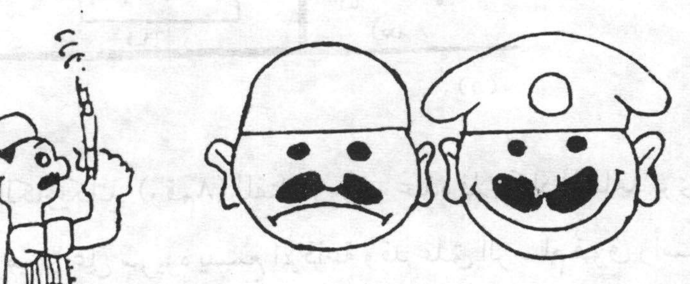
إن لي زوايا سأنظر منها ، ورؤية سأكشف بها قيمة عمل من هذا القبيل ، وثقله

في موازنته بعمل غيره ، وأول ما يستوقفني بإعجاب في هذا الإطار هو ندرة التعليق أو انعدامه على العمل المرسوم ، فتبدو الخطوط لغة كاملة مستقلة بذاتها ، وسوف تكون حينها لغة الناس جميعًا : علماء وأميين ، شرقيين وغربيين ، غير مستعينة بفن آخر - كالبلاغة مثلًا - في توصيل الموقف وإضاءته بقوة .

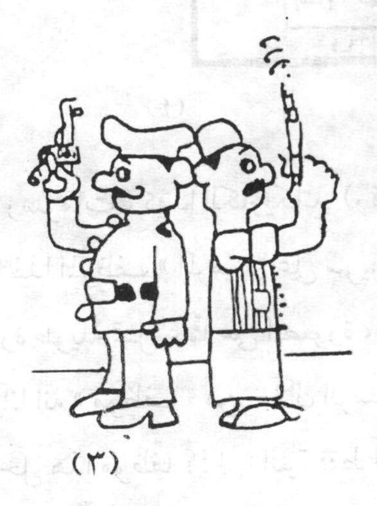
وهذه خمسة نماذج للفنان بهجت ، لا تحمل ثلاثة منها (أرقام ١ ، ٢ ، ٣) ، ولو حرفًا واحدًا ، لكن يكاد يكون كل منها ملخص تاريخ طويل من الاضطهاد والظلم ، ثم نرى رسمين اثنين احتوى كلاهما على كلمة واحدة ، لكن اللغة أحيانًا تفرض سيطرتها ، فيتعامل معها الفنان في تركيز وإحكام فتفوز بالبطولة أمام الخط في هذا الرسم (رقم٦) ، لبهجت أيضًا .



(١)



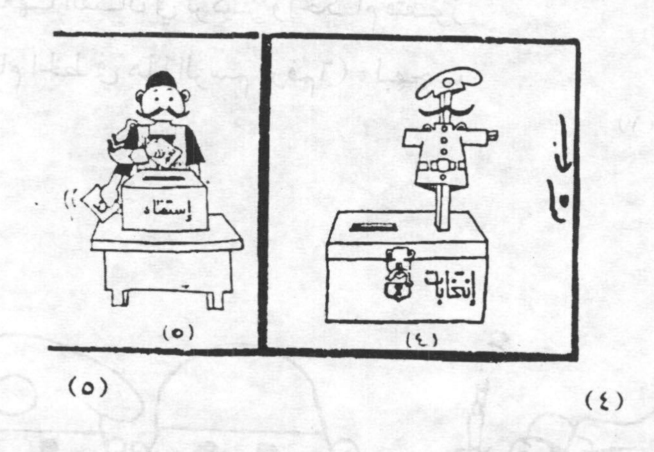
(٢)



(٣)

وقد لا تغني الكلمة عن الخط ، ولا الخط عن الكلمة ، فإذا رفعنا أحدهما أصبح الآخر عديم المعنى تقريبًا ، ففي مجلس وزراء بهجاتيا (رقم٧) يكاد الرسم يفقد قيمته إذا رفعنا التعريف الذي أعلاه ولا قيمة للتعريف بغير هذا الرسم الذي يؤكد أن مجلس وزراء بهجاتيا مجرد « بلاليص » بلا عقول ولا ملامح ، وأن الديكتاتور بهجاتوس ، هو في الحقيقة مجلس وزرائه أيضًا .

على طرف نقيض من هذه الميزة نرى كثرة الكلام عيبًا ، حيث يبدو الرسم مصنوعًا كرسم توضيحي فقط ، وليس حاملًا معنى في ذاته ، ويمكن حينها الاستغناء عنه والاكتفاء بالتعليق وحده ، أو على الأقل ـ تفهم أبعاد الكلام بغير



(٥) (٤)

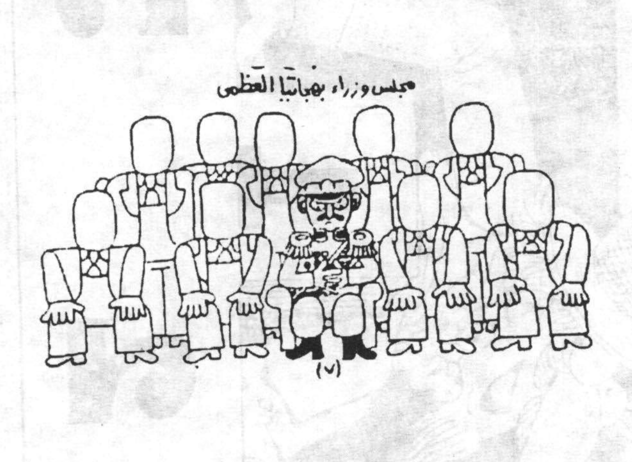
رسومات ، كهذا الكاريكاتير (رقم٨) للفنان رءوف عبده فلا يكاد المشاهد يرى أثرًا لهذا الموظف « المرمي » على سريره يسمع الإذاعة وقد علق الرسام فوق رأسه عبارة طويلة تمثل عبئًا على الصورة ، كما تمثل الديون نفسها عبئًا على الموظف ، ثم ما أدرانا أنه « موظف » من خلال الرسم هذا ؟! أي الملامح وضعها الرسام ليكون الرجل هذا موظفًا ؟! إنها النية فقط التي شاءت أن تكون الصورة لموظف ، كنية

الشاعر الذي يخطئ تبيان غرضه ، فيعوض عجزه بشرح قصيدته ذاكرًا أنه كان يقصد كذا ، وفي هذا المجال ليست الأعمال بالنيات .

وللفنان حجازي رسمان يتقاسم البطولة في أحدهما الصورة والكلمة بشكل متزن و في الثاني يمكن الاستغناء عن الخطوط جميعًا ، والاكتفاء بالكلام فقط ، ودليل الاستغناء عن صورة ما ـ إضافة للمعنى الكامل الذي يعطيه الكلام ـ هو إمكانية استبدالها بأخرى ولا يحدث خلل ما ففي الرسم الثاني يجلس رجل وامرأة .



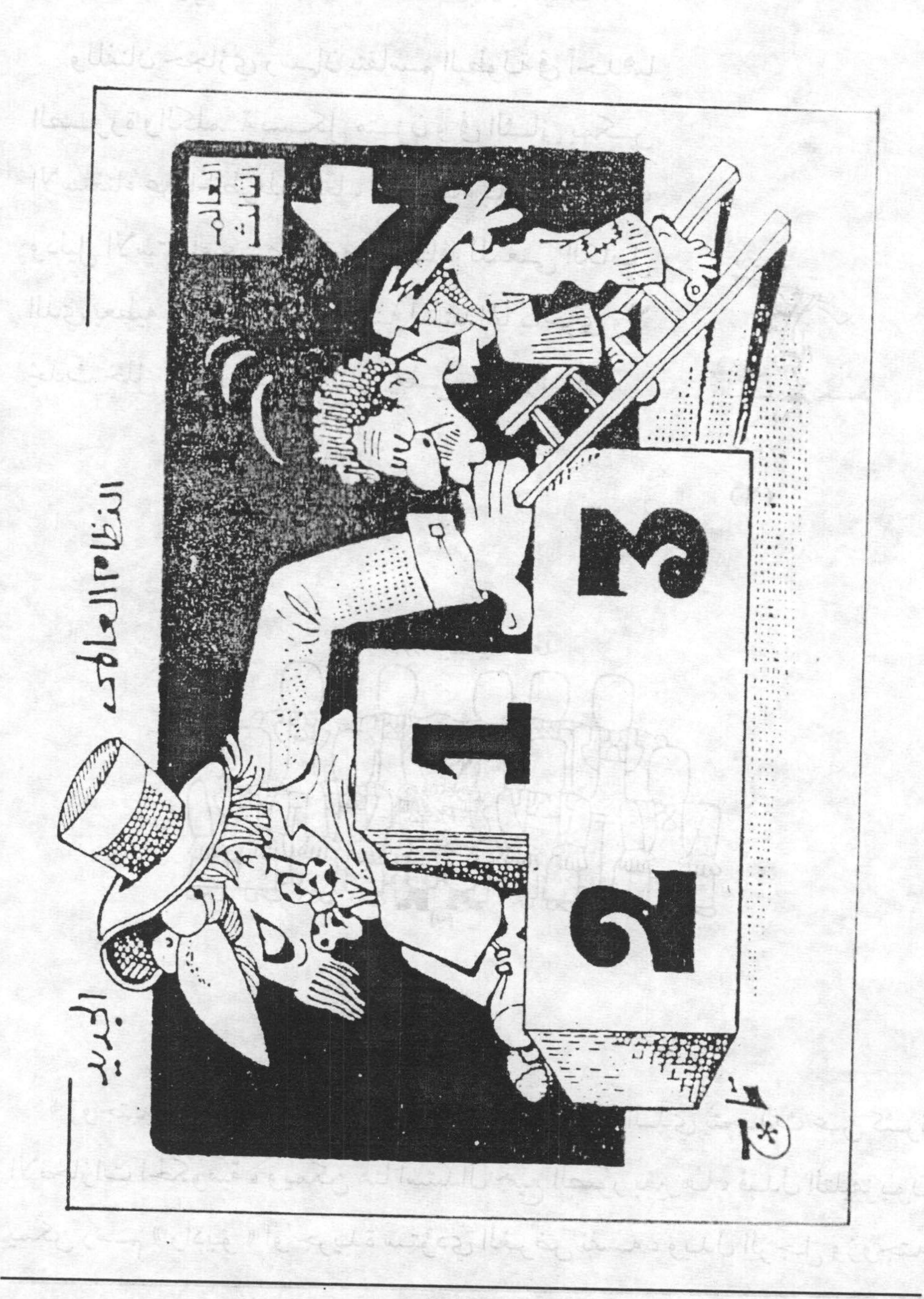
(٦)



(٧)

« زوجته مثلًا » ، في المنزل يشاهدان التليفزيون الذي يتحدث عن كثرة الإنجازات الحكومية ، ويمكن هنا استبدال جميع الصور بغيرها ، فبدل التليفزيون يمكن رسم « راديو » أو جريدة ستؤدي الغرض نفسه ، وبدل الرجل وزوجته

يمكن أن يرسم شاب وفتاة أو أم وابنها ، أو اثنان من الموظفين في مكتبهما .!!





(١١)

وفـن الكاريكـاتير يجسـد حالاً دافعًا للتأمل والخوف ، أو التفاؤل أو التشاؤم ، هو ـ ككل فن ـ يحاول خلق نفسية جديدة غير التي كان عليها الإنسان قبل مطالعته ذلك رغم أن الإضحاك في فن الكاريكاتير داخل في صميم طبيعته ، ولا يتنافى مع أبعاده الفكرية والاجتماعية ، وأعظم الفن ما يضحك الإنسان حتى البكاء وما يبكيه حتى الضحك .

***

ثم يأتي عنصر الإبهار أو الإدهاش ميزة بارزة من ميزات رسم على آخر ، والفن بعامة يبدو أكثر تأثيرًا واقتحامًا للنفوس إذا حمل لها ما لا تتوقعه ، فتنبهر به ، وتنشط له عواطفها ، وتحيد عقلها لتلقيه بالقلب متأثرة مسلمة بما يحمله هذا الفن المبهر ، حتى إن الناقد يضطر لأكثر من قراءة للعمل الإبداعي ـ شعرًا أو نثرًا أو لوحة تشكيلية حتى يتخلص مما وقع فيه من إبهار حيد عقله عن الحكم الهادئ الموضوعي .

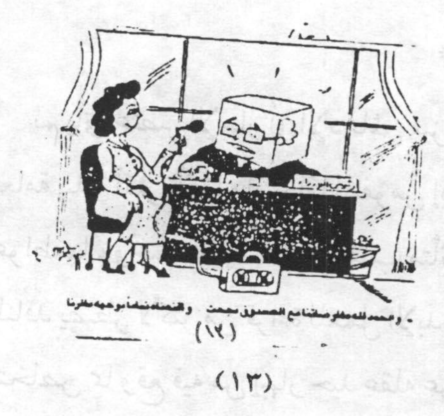
ففي قضية مثل المفاوضات بين صندوق النقد الدولي وحكومة مصر عبر كثيرون من رسامي الكاريكاتير عن تسليم الحكومة بشروط الصندوق بعدة طرائق ، لكن

الفنان عمرو سليم لم يقف عند حد تصوير تفاوض بين طرفين أحدهما يمثل لرؤية الآخر ، بل اندمجا معًا وانمحت شخصية أحدهما لمصلحة الآخر (رقم١٣) ، فقد تحول عقل المسؤول إلى « صندوق » فأين ذهب عقله إذن ؟! الله والحكومة أعلم !!



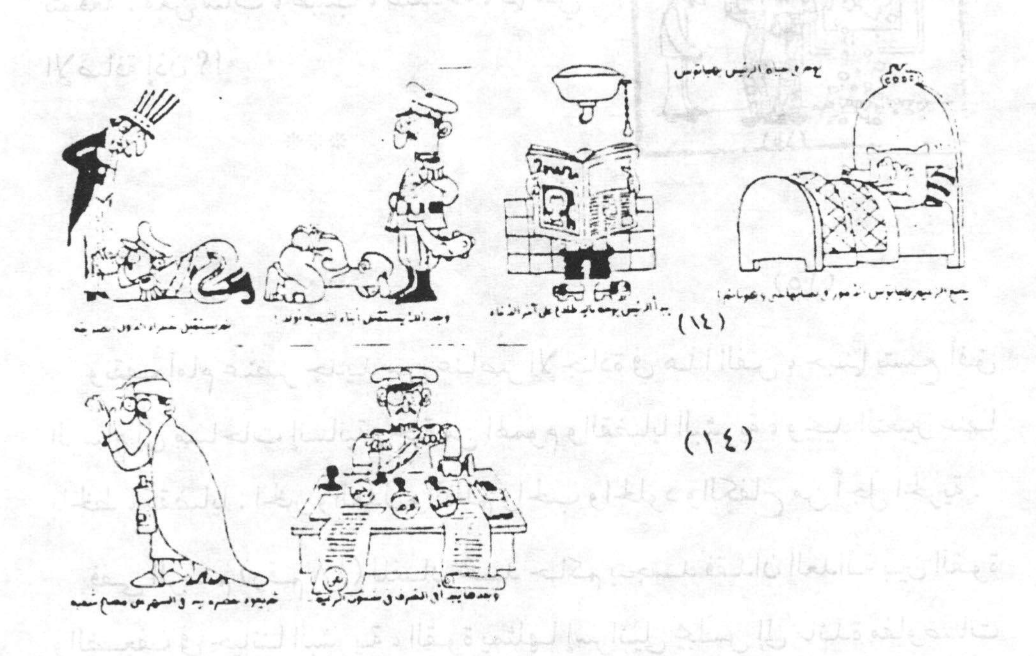
(١٢)

وانظر هذا اليوم النادر المتفرد الذي لا يقع في حياة إنسان إلا « الرئيس بهجاتوس » أحد شخصيات الفنان بهجت والذي يلخص « فنون الديكتاتور » بسائر أشكالها ، ففي هذا اليوم (رقم١٤) كل الأشياء مقلوبة رأسًا على عقب ، ومهما تخيلنا من جهل هذا « البهجاتوس » وغبائه وتسلطه وعمالته وفساده لن نستطيع رسم هذه الصور الست التي صاغها له بهجت : ابتداء من نومه حتى بداية سهرته « على مصالح شعبه » ، مرورًا بقراءة الصحف في الحمام ، واستقبال أبناء شعبه « بكل ترحيب » ، واستقبال سفراء « الدول الصديقة » « بكل عزة وإباء » ، ثم التصرف في شؤون الرعية وأرزاقهم وحرياتهم وأعمارهم أيضًا ، إنه الإبهار العظيم في الرسم .



(١٣)

ثم ننبهر ببهجت أيضًا وهو يقدم فكرة جديدة عن « موضة » انهيار العمارات الحديثة في مصر (رقم١٥) لكنه لا يرسم عمارة تتساقط ، بل يقدم رسمًا هندسيًا لعمارة ، والرسم يتساقط ويتناثر من فوق الورقة نفسها ، تأكيدًا « لعبقرية » الهدم ، هدم اللاشيء بعد أن انهدم كل شيء .



وإذا كانت الأفكار الطريفة المبتدعة عنصر جودة في فن الكاريكاتير ، فإن هناك رسومات تفتقد إلى هذا الإبداع الذي يبهرنا ، فتراها كالخبز البائت « أبو خمسة قروش » لسطحية الفكرة وربما سذاجتها فالرسم رقم (١٦) للفنان محسن ماذا يحمل من فكرة أو موقف أو طرافة ؟!

لا شيء !! هو يذكر مثلًا عاميًا بشكل حرفي ، ثم « يرسم له » رسمًا لا هو مضحك ولا هو باعث على التفكر أو التأمل .

وكذلك الشأن بالنسبة لرسم الفنان نزيه (رقم١٧) الذي هو مجرد « ترجمة » بالخطوط لما يتهم به أحدنا غيره ـ إذا كان محشرج الصوت ـ بأنه « بالع ضفدعة » وترجم هذه العبارة بغير أي خيال ، فلم نرَ فيها إلا ما نتوقعه : مغن شاب ، طبيب ، ضفدعة ، فما هي الإضافة إذن ؟!



(١٥)

***

ونقف أمام عنصر جديد من عناصر الإجادة في هذا الفن ، حينما يتسع أفق الرسام إلى مساحات إنسانية رحبة من الهموم والقضايا البشرية ، ويجيد التعبير عنها بالخط ، كقضايا : الخير والعدل والظلم والحب والخلود والكفاح من أجل الحرية .

ففي الرسم (رقم ١٨) للفنان محمد حاكم يتجسد فقدان العدالة بين القوة والضعف في حياتنا البشرية ، القوة يمثلها إسرائيلي يجلس إلى مائدة مفاوضات « السلام » وفي يده بندقية ، ومع هذا ينادي الطرف الآخر « الضعيف » في صيغة قسرية تهديدية بالجلوس إليه « ليتفاوضا » .

وفي موقف سياسي مشابه : المواجهة بين القوة الظالمة والضعف المظلوم يجسد الفنان مصطفى حسين هذا التناقض ، مضيفاً إليه « النفاق » الدولي (رقم١٩) من خلال هذا الاعتداء الصربي المنظم ، والدماء المسلمة التي يخوض فيها العنصريون الصرب بتواطؤ أو بصمت أو بمباركة مما يسمى « الشرعية الدولية » !!

(١٦)

(١٧)

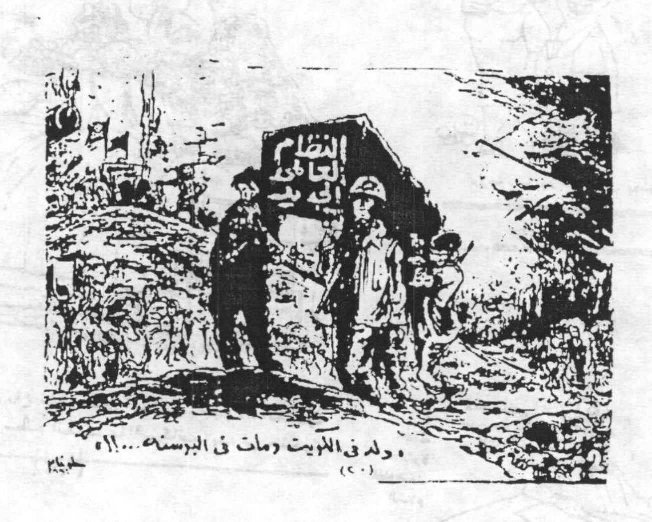
ويلخص الفنان طوغان القضية من « الشرعية الدولية » في رسم يكفي عن كتابة عدة مقالات (رقم ٢٠) .



(١٩)

وهذان الرسمان تأكيد للخط الحر الذي يتخذه فن الكاريكاتير بالتعبير عن الهموم والقضايا الإنسانية بصرف النظر عن هدف الإضحاك ، لكن الفنان محيي الدين اللباد يقودنا إلى الضحك المثقف ، في الوقت الذي يعمق فيه التعبير عن فكرة

العنف ، ويستقصي جذورها وأبعادها (رقم٢١) ، فلا يراها مقصورة على مواجهة الآخر والعدوان على حياته ، بل هي عدوان على النفس



(٢٠)

أيضا .. والنفس هنا ليست فردًا بل هي الإنسانية كلها التي تسير خطواتها حثيثا نحو العنف إلى حد قتل الذات لأتفه سبب ، ويبدو الغباء سيدًا دافعًا لهذا العنف غير المبرر ، منذ ثلاثين عامًا كان الإنسان ينظر للأمور بالمنظور الصحيح ، فيهش - مثلًا - الذباب عن وجهه « بالمنشة » ثم تطور



(٢١)

العلم وفسد الذوق ، فراح يستخدم الغازات السامة أو « البيروسول » ؛ ولأن الذباب قادر على التكيف مع الظروف - ربما أكثر من قدرة الإنسان نفسه كما يشير الرسم - فقد ظلت الذبابة ضيفًا على وجه هذا الشخص الذي رسمه اللباد مفتول العضلات ، ناقص المخ ، ويستخدم في المرحلة الثالثة السلاح « السكين » في مواجهة من؟! في مواجهة ذبابة ، فإذا به يقطع بالسكين أنفه هو ، وتبقى الذبابة آمنة على الجزء المقطوع ؛ ولأن الذبابة تملك قوة إرادة أكبر من الإنسان ، وعقلًا أرقى من عقله ، فقد انتقلت - في الآونة الأخيرة - من الجزء المبتور إلى الجزء إلى الأصل ، وكان لابد للإنسان من التخلص من هذا الأصل : من نفسه !!

وقريب من ميزة احتواء الأفكار الإنسانية الكبرى ، الاتكاء على المضامين الخالدة ، التي لا تتزلزل قيمتها ولا تتزحزح بمرور الزمن ، ولا بتغير المواقع ، ففي الإبداع الأدبي ما زلنا نتداول - بإعجاب - ملحمة الإلياذة ، وملحمة الأوديسا ، وقصائد امرئ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وبشار بن برد ، وأبي نواس ، والمتنبي ، وشوقي ، وما زلنا ننبهر بالأهرام ، وأبو الهول ، وقلعة صلاح الدين ، والمسجد الأموي ، ومسجد السلطان حسن ، هكذا يمكن أن يعجب القادمون بعدنا ، والبعيدون عنا ، بالأفكار والمضامين الخالدة لفن الكاريكاتير ، خاصة أنه ما زال فنًا فتيًا لم يستنفد أغراضه - ولا أظنه سيستنفدها - وقد أنست به العيون ، وائتلفت معه المشاعر ، وتحاورت معه العقول ، ليس هذا الزمان فقط بل ابتداء من سلسلة الكاريكاتير الذهبية في مصر ، منذ المؤسسين الأجانب : سانتوس ، رفقي ، شوقي ، صاروخان .

والرواد المصريين : رخا ، زهدي ، طوغان ، رمزي ، عبد السميع .

ثم الموجة الأولى : حسن حاكم ، صلاح جاهين ، بهجت ، حجازي ، مصطفى

حسين ، دياب ، اللباد ، محمد حاكم ، البهجوري ، إيهاب ، ناجي ، الليثي ، ماهر داود .

وتلتها الموجة الثانية : تاج ، محسن ، عادل البطراوي ، رمسيس ، عمر شعبان ، رؤوف عياد ، رؤوف عبده ، عز العرب ، جمعة ، جودة ، نزيه ، محمد عمر .

وآخرها هذه السلسلة المتدفقة بالإبداع من جيل الشباب : سمير ، عمرو سليم ، محمد عز الدين ، محمد عبد الحليم ، نبيل صادق ، نبيل السملوطي ، حسني ، عمرو فهمي .

هذه المضامين الخالدة نرى نماذج لها حين يصور الرسام استحالة التقدم إذا كانت البيئة تفرخ في أبنائها عدم المبالاة ، كما صور هذا الفنان تاج (رقم٢٢) بتجسيد الإهمال والاستخفاف والاستهانة بكل شيء في صورة لفظة « معلهش » التي أضحت كتلة حديد ضخمة تعجز الإنسان عن الحركة للأمام ، وكذا صور الفنان بهجت استحالة التقدم لأي شعب إذا لم تكن حكومته نابعة منه وتعبر عنه (رقم٢٣) .



(٢٢)

وتسير حسب رغبته ومصالحه لا في الاتجاه المضاد ، الذي قد يؤدي يومًا ما إلى تمزق الوطن نفسه إلى قطعتين !!

***

وإذا كان الكاريكاتير يستقي مادته من الواقع ، فإنه يعيد عجنها في إناء خيالي من الخطوط ، ويعول على تجسيد المعنويات بطرائق طريفة فيها مبالغة تتجاوز رسوم الفنان التشكيلي ـ المصور

الواقعي على وجه التحديد ـ فالأنف قد يتضخم ليصبح خياره ، والجسم قد ينتفخ ليصبح كذلك الرجل الإقطاعي القديم برميلي الجسد الذي صوره دياب في أكثر من عمل ، وهو محروس بخفير يشارك جسده « الخشبي » المشفوط في تبيان نفخة ذلك الإقطاعي القديم .

فالمبالغة مادة ضرورية وأحد أعمال هذا الفن الذي يحمله إلى ركنه الجمالي الخاص به ، بعيدًا عن فروع الفنون التشكيلية الأخرى ، وعلو المبالغة يعطي للرسم الكاريكاتيري قدرة أكبر على التعبير والتصوير .



(٢٣)

فلننظر هذه المبالغة الطريفة التي ساقها بهجت في « المهرجان الشعري » في بهجاتيا (رقم٢٤) والتي صاغها بالخطوط والحروف معًا ، وكل أدى دوره وأضاف إلى سواه ولا يمكن هنا الاستغناء عن الكلام أو اجتزاؤه لأنه « مهرجان شعر » أي كلام في كلام ، لكن الفنان جعله كلامًا في كلام في رسوم !!

في كتابته « لقصائد » الحب البهجاتوسية جاء كلامه موزونًا ، ولست أدري أكتبه بهجت بنفسه أم استأجر « شاعر روبابيكا » ليكتبه له ؟!!

وهو في الحالين حافل بالمبالغة التي تنتزع الضحكة المرة .



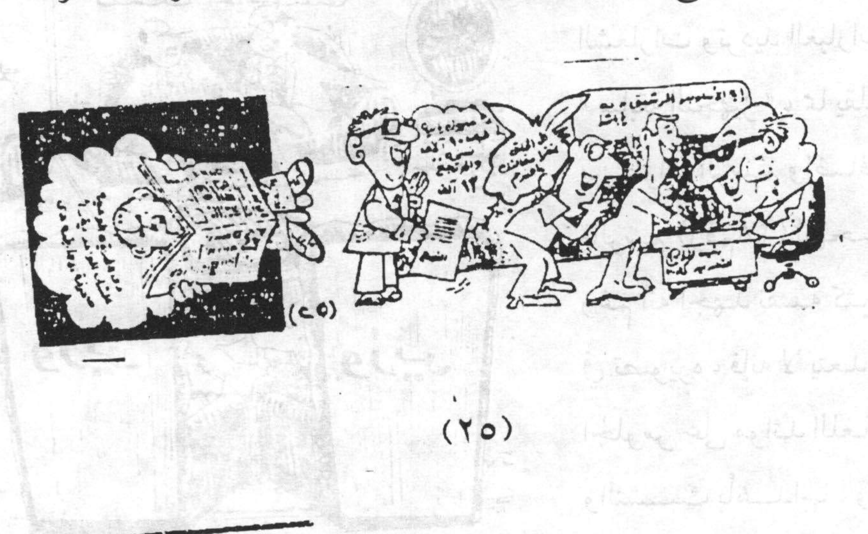
(٢٤)

أما في الرسم فنرى « الانفعال » العظيم على وجوه الشعراء وهم يلقون في لحظة واحدة « معلقاتهم » العبقرية !! ويتنافسون في مدح ولي نعمتهم ، مالك الفلوس والنفوس ، والشاعر الأول يحمل الورقة في يده - كورقة الكلينكس - وهي أطول منه ، ثم إن النفاق والمنافقين طريقهم واحد وطريقتهم واحدة : الثلاثة يرفعون الأيدي و« يفشخون » الأفواه عن آخرها ، ويرتدون الأحذية « موضة قديمة » منذ أيام الجاهلية !! ثم يزداد طول الورقة : الكلينكس ليتقاسمها اثنان من المنافقين كل يقرأ من ناحية ، فالنفاق شبيه ببعضه ، ثم نرى « تعاطفًا جماعيًا » من هذا الصنبور الذي أصبح منافقًا كشعراء بهجتوس ، وأصبح يخر اسم الطاغية بدلًا من المياه .

ولأن النفاق أحد المصائب الكبرى المعششة في سماء الدول المتخلفة وأرضها ونفوس أبنائها ، فقد صوره المبدعون بسائر أجناسهم وهذا وجه آخر من وجوه النفاق عبر عنه الفنان تاج في رسمه (رقم ٢٥) ، ولم ينس أن يصور الحقيقة على الوجه الآخر لتبدو المبالغة والهوة الواسعة بين النفاق والواقع .

***

ويؤخذ على الرسم الكاريكاتيري أن يكون مجرد تصوير لنكتة من النكات ، أو قفشة أو تعبير شائع ، ولا يضيف رؤية جديدة ولا لمسة جمالية تزوق الفكرة .



(٢٥)



(٢٦)

ففي الرسم (٢٦) للفنان بهجت قائمة كلامية بالمآخذ على الحكم يمكن أن يقدمها بدون هذا الرسم التوضيحي للعسكري الذي يرقص !!

ويؤخذ على الفنان جمعة التعبير الشائع « فلان صيَّف بدري » كناية عن ترك موقعه أو منصبه ، أو إقالته منه ، فينسج حوله مجموعة من الوزراء ، وكأن المسألة لا تتجاوز الرغبة في الرسم فقط ، ذلك في رقم (٢٧) .

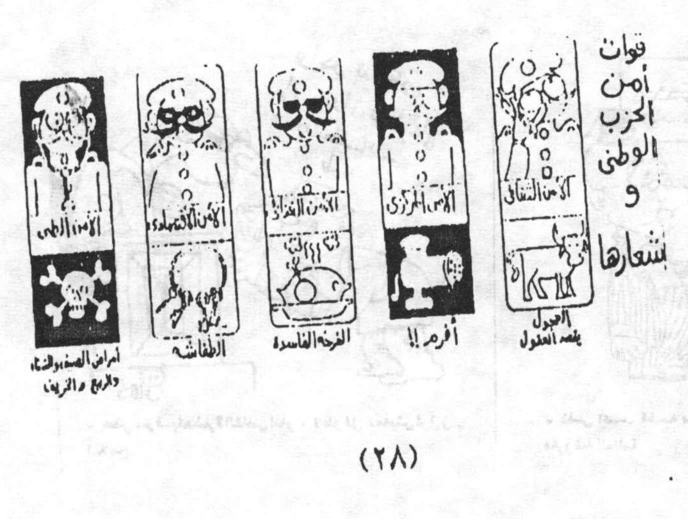
وقريب من هذا المعنى في المآخذ على الرسم الكاريكاتيري رفع الشعارات وترديد العبارات « سابقة التجهيز » ، مما يقلل من طرافة الرسم وإضافته فالرسم (رقم٢٨) لبهجت رغم أنه أجهد نفسه كثيرًا في تصويره ، فإنه لا يتعدى الجلوس على موائد اللغة ، والتشبث بأهدابها ، ولا فرق بينه – كرسم – وبين الرموز والتصميمات



(٢٧)

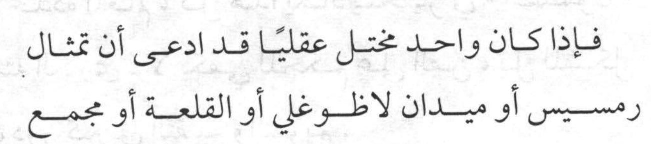
والشعارات المرسومة لأية هيئة أو مؤتمر أو منظمة أو علبة أدوية مثلًا !! ثم أين الفرق بين تصويره للأمن الغذائي والأمن الاقتصادي مثلًا ؟ لا شيء سوى ثغرتين في نظارة الصورة الثانية ، وفي هذه الحالات يحاصر الرسام نفسه في دائرة مغلقة عليه يصعب كسرها والتحليق بخياله بعيدًا عن قطرها .

وكذلك يبدو الرسم متهافتًا حين يرغب بهجت في الهجوم على نائب مؤنثة نايبه !! فيشبهه « بالمنشار » مرددًا القول الشائع : « طالع واكل نازل واكل » ، ولا جديد فيما قال (رقم٢٩) ولا فيما رسم هنا .



(٢٨)

والنمط القديم من الشعر العربي « شعر المناسبات » يعيد تكراره بعض رسامي الكاريكاتير في بعض أعمالهم ، وكأنهم ينتظرون الظروف والمناسبات لالتقاط رزقهم !! والعيب هنا هو الجري وراء الأحداث لا المشاركة في صنعها ، على اعتبار أن فنان الكاريكاتير مبدع ، يفكر لشعبه ويضيء له الطريق بتنبؤاته الفنية كالشاعر والقصاص وغيرهما من المبدعين ، كما أن الارتباط بمناسبة ـ وخاصة إذا كانت محلية ـ تنزع عن الرسم سخونته في المستقبل ، واحتمالات فهم الأجيال القادمة له والتعاطف معه ، وهو لن يصلح ـ بعد أن تتغير ظروف حياتنا ـ إلا كمادة تاريخية ، لا كإبداع فني .



(٢٩)

فإذا كان واحد مختل عقليًا قد ادعى أن تمثال رمسيس أو ميدان لاظوغلي أو القلعة أو مجمع التحرير ملك له ولأجداده فهل نظن السنين القادمة ـ بل والقرون القادمة ـ

ستحتمل وجود مثل هؤلاء المتخلفين عقليًا ليصورهم الفنان محسن في كاريكاتير ؟! (رقم ٣٠)..



ـ حتى شوف ياحضرة القاضي اناو . لاظوغلي . مفيش فرق في الملامح



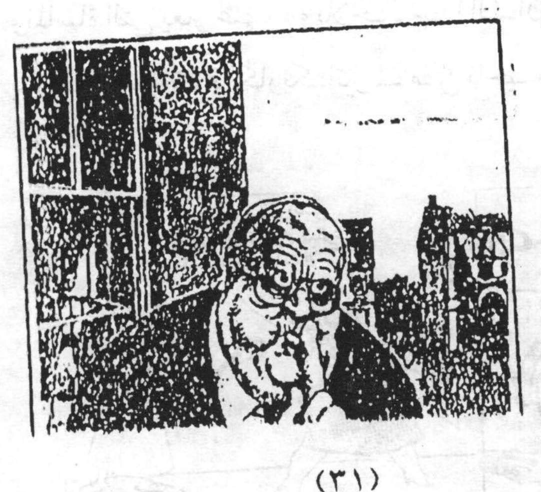
ـ نفس الكسب الشبه مبنى . المجمع . علشان الجره اوهى مفروشة للطلبة .

(٣٠)

سوف تتساءل الأجيال القادمة قائلة : هل هؤلاء بشر مثلنا ؟! وحينما يرون كاريكاتير محسن لن يضحكوا منه بل سيحيلونه إلى علماء الجيولوجيا !!

كل هذا الذي اجتهدنا في استعراضه من ميزات ومآخذ على فن الكاريكاتير في محاولة لنقده على مرتكزات محددة المعالم ، كل هذا يكاد ينحصر في « المضمون » والمضمون وحده ـ رغم قيمته الكبرى ـ لا يكفي للحكم على الفن ، بل للشكل الذي يصاغ به هذا المضمون دور كبير في التقييم والتقويم .

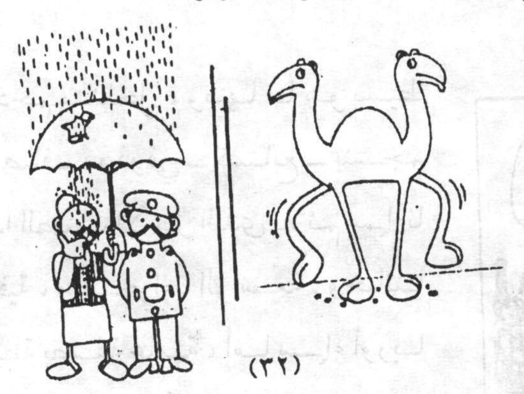
ومن مميزات الشكل في هذا الفن بساطة الخطوط ، وعدم تشابكها ، حتى لا تقع العين على غابة سوداء تصرفها عن الخروج بموقف سريع حاسم بمجرد وقوعها على الرسم ، فليس الكاريكاتير فزورة ، ولا مسألة رياضية معقدة ، ولا رسمًا هندسيًا متشابكًا ، وهذا التعقيد ربما أدخل الرسم الكاريكاتيري في



(٣١)

التصوير الواقعي فمحا شخصيته ، فهل يستطيع المشاهد أن يرى في هذا الرسم الكاريكاتيري (رقم٣١) ملامح مهمة تبعده عن فن التصوير ؟!

لكننا أمام رسم كهذا (رقم٣٢) للفنان بهجت نرانا أمام السهل الممتنع ، الذي يدفع الكثيرين إلى محاولة تقليده ، فإذا فعلوا خاب مسعاهم ، نحن أمام عدة



(٣٢)

خطوط قليلة ، لكنها تحمل مضامين عظيمة تخترق القلب وتحتوي المشاعر بمجرد وقوع العين عليها وكذلك يبدو الفن سهلًا ممتنعًا ، ومعبرًا بأبسط الوسائل من خلال هذين الرسمين (رقم٣٣) ، (رقم٣٤) ، لمحمد حاكم وعمرو سليم .

وزحام الخطوط والأحبار لا يفقد العمل جاذبيته فقط ، بل ربما دفع المشاهد إلى النفور منه ، كما هو الحال في الرسم (رقم٣٥) ، رغم جلال الموقف الذي يصوره ،

والمأساة التي يعبر عنها ، ويلاحظ بهذا الشأن أن الحكم هنا متداخل فيه الذوق بدرجة كبيرة ، فالكاريكاتير ـ من ناحية الخط ـ مدارس : منها ما هو



(٣٤)

(٣٣)

مزدحم متداخل ، ومنها ما هو بسيط هادئ صاف ، وذوقي ـ كمتابع ـ ينسجم مع هذا الصنف الأخير الذي يلائم سماءنا الصافية ، وصحراءنا الواسعة ، وحياتنا البسيطة بصفة عامة ، أما سماء أوربا وأمريكا وروسيا ، وأرضها ، وطباع ناسها فغير ما نحن عليه .



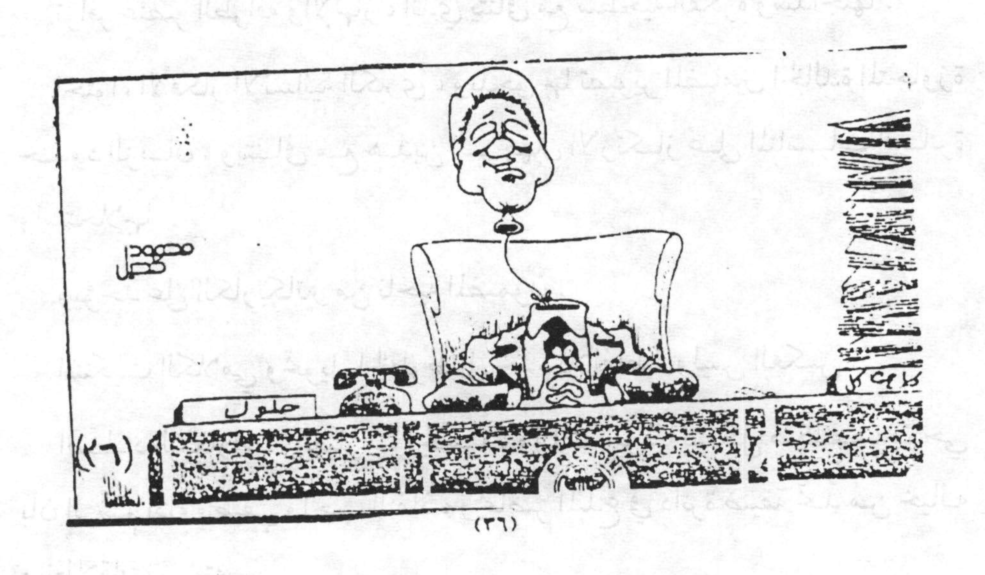
ملامح البوسنة لوموند ـ فرنسية

(٣٥)

ومما يحسب للرسم ـ على مستوى الشكل ـ التشكيلات المبتدعة غير التقليدية ، ففي جل ما نرى من رسومات للأجسام البشرية تبدو أعضاؤها مرتبطة ببعضها .

أما الفنان محمود كحيل فقد فصل رأس بيل كلينتون ـ رئيس أمريكا ـ عن جسده القابع في الكرسي ، ورفع الرأس أعلى ليكون في مستوى المشكلات المتراكمة على حكمه وعليه ، ولا يقابلها من الحلول شيء تقريبًا (رقم٣٦) .

ونقف منبهرين أمام هذا التشكيل الذي صاغته ريشة بهجت بأن بنيت خيمة للسكنى من الجرائد (رقم٣٧) التي تمتلأ كلها بتأكيدات عن توفير المساكن للشعب ، ولما لم يجد هذا الشعب ـ متجسدًا في واحد منه ـ ما تدعيه الحكومة من حل لأزمة الإسكان جمع الصحف المكتظة بتصريحات المسؤولين وبنى بها خيمة لنفسه يقيم فيها !!



(٣٦)

(٣٦)

***

وإذا كان لنا أن نلخص ما أجملنا في النظر إلى الرسم الكاريكاتيري من ناحية الشكل والمضمون، في محاولة لتقييمه سلبًا وإيجابًا فإننا نقول إن من ميزاته على مستوى المضمون:



علشان بس تصدقلي ان تصريحات الحكومة مش أي كلام

(٣٧)

ندرة التعليق أو انعدامه، وطبيعي أن الاتكاء على اللغة والاستفاضة فيها مما ينفي هذه الميزة.

توافر عنصر الطرافة والإبهار، الذي يتنافى مع سطحية الفكرة وسذاجتها.

احتواء الأفكار الإنسانية الكبرى، ويلحق بها تصوير المضامين الخالدة المتجاوزة حدود الزمان، ويتنافى مع هذين الوجهين الارتكاز على المناسبات العابرة واستحلابها.

ويؤخذ على الكاريكاتير من ناحية المضمون:

التنكيت الكلامي وتحويل الخطوط إلى خدم للألفاظ، وليس العكس.

اصطياد الشعارات والعبارات الجاهزة، واللف حولها بشكل متكلف، يوحي بأن الرسم أداء وظيفي واجب النفاذ، ويحاصر المبدع في دائرة ضيقة تحدّ من خياله وانطلاقات ريشته.

وعلى مستوى الشكل تعلو قيمة العمل إذا توافرت فيه:

التشكيلات المبتدعة التي لم يتعودها المتلقي ولم يتوقعها في التعبير عن فكرة ما.

المبالغة في رسم الخطوط ، وإطلاق الخيال في صنع الجديد بغير منطق طبيعي يأنف مثلًا أن تكون كف اليد في حجم الجسد كله !!

بساطة الخطوط ، وعدم ازدحام مساحات اللوحة « بالشخبطات » والتقاطعات ومطبات الريشة والبقع السوداء !!

ومما يحمد في هذا المجال ـ شكلًا ومضمونًا ـ رسم الدراما الكاريكاتيرية من خلال شخصيات يختلقها خيال الفنان ـ مثل « كمبورة » مصطفى حسين والسماوي والأليط له أيضًا ، و« نكدية » محمد حاكم و« إقطاعي » دياب ـ وبناء حوار بالريشة على لسان هذه الشخصيات يضيف كل مرة شيئًا جديدًا يتابعه المشاهد .

وإذا شئنا الحكم على عمل فإننا نتكئ على هذه العناصر جميعًا : شكلًا ومضمونًا ، وما الأمر ـ أولًا وآخرًا ـ إلا محاولة لا تكتمل إلا بجهود الآخرين في مناقشتها والإضافة إليها فهل أنتم فاعلون ؟!!

١١/١١/١٩٩٣

حزين عمر

القاهرة

طوغان

- بعد نصف قرن من المشاكسة .

تاب عن الشعر واتجه للرسم بالصدفة !!

- عبد الناصر مدح رسوماتي في مجلس قيادة الثورة !!

- اكتشفت صلاح جاهين ، وقدمته !!





ستون عامًا من التاريخ والكفاح ، والفن تلخصت في اسمين اثنين « أحمد طوغان » ، وإذا كان لم يدرس الفنون الجميلة ، دراسة أكاديمية فإن البندقية ، والريشة ، والقلم قد تعاونت جميعها في صياغة شخصية هذا الفنان الذي بدأ شاعرًا ، ثم تاب الله عليه توبة غير نصوح ، فأصبح رسامًا !!

وبين هذا وذاك ظل يقاتل إلى جانب الجزائريين في ثورتهم ضد الفرنسيين خمسة أشهر .

الحياة هي التي صاغته ، وقادته ، وقدمته للقارئ العربي ، والصدفة كانت ـ كما يذكر ـ أحد محركات حياته الثرية التي عشناها معه في دردشة ، سألته في أولها :

حكايتك مع الكاريكاتير ، متى وكيف بدأت ؟

– بدأت منذ عام ١٩٤٢ ، وقبل رسمي للكاريكاتير كنت أقدم أعمالًا عادة : بورتريهات ، ولوحات طبيعية ، ثم بدأت أعجب برسوم رخا ، وأقلده ، وأرسم الكاريكاتير ، تلك السنة كانت مشحونة بالأحداث : الحرب العالمية الثانية كانت مازالت مشتعلة ، وفي مصر تيارات سياسية متعددة تطالب بحقها في الحرية من جلاء الإنجليز باعتبارهم محتلين لأرضنا ، وغير هذه أحزاب كثيرة متعددة الاتجاهات .

في هذا الجو كان الكاريكاتير السياسي يؤدي دورًا كبيرًا ، فبدأت أمرن نفسي لخوض هذا المجال .

وبعد مجهودات ، ولف على الصحف ، وإحباطات وتفاؤل ، وفشل ، ونجاح ، التقيت بالأستاذ رخا فمد لي يده وساعدني وشجعني ، وقال لي : ستكون رسامًا جيدًا ، بعدها بدأت العمل بالصحافة .

الرجل الضخم !

حكايات الرفض في بدايتك كانت متعددة أتتذكر من رفضوك ؟ وماذا قالوا لك ؟

- أتذكر أنني ذهبت إلى إحدى المجلات ، بتوصية من أحد الباشوات ، زميل أبي الذي كان ضابطًا ، ورأيت شخصًا ضخمًا - كنت تلميذًا بالمدرسة الثانوية - وأحمل معي رسمًا، كنت قد قضيت الليل كله فيه شطبًا وتصليحًا ، قال لي البواب : إلى أين أنت ذاهب ؟! فقلت : إلى رئيس التحرير ، قال : لماذا ؟ قلت : رسام ومعي رسومات ، فنادى عليَّ أحد الجالسين - وكان هو الرجل ضخم الجثة فذهبت إليه وقدمت له ما بيدي ، فقال : الرسم ليس شيئًا بسيطًا ، وليس أي فرد بإمكانه أن يرسمك ، ألست تلميذًا ؟ عليك بالالتفات إلى مدرستك ، ودعك من موضوع الرسم هذا !! ومزق الرسم ورماه ، وقد عرفت أنه رسام وبعدها اختفى من الساحة ، وهذا مصير أمثاله !!

ما اسمه ؟!

- لا أقول اسمه ، لأنه ما زال يعيش حتى الآن !!

الجو العام في ذلك الوقت بالنسبة للكاريكاتير كعمل فني وواجهة ومصدر للدخل المادي ، أين هو من حالته الحالية ؟!!

هو حاليًا في ازدهار كبير ؛ لأنه - في بدايتي - لم تكن هناك صحف يومية بها كاريكاتير ، كان هذا الرسم يدخل في بعض المجلات فقط ، أما الآن فهو مادة أساسية وضرورية وبدأت الناس تلتفت إليه ، وبدأ الرسام يستقر ماديًا واتسع الميدان لرسامين كثيرين ، ووسائل النشر أضحت أكثر ففي التليفزيون وفي جميع الصحف له مكان .

وفي اعتقادي أن الاهتمام بهذا الفن سيزداد ويتطور ، وما زال المجال يحتاج لمجلات ساخرة كثيرة والمستقبل في اعتقادي متسع ، والناس تريد أن تنكت ، وتقرأ نكتة وتبتسم .

قبضايا

عنصر من عناصر الكاريكاتير الطريفة هو هذه الشخصيات الرمزية يخترعها الفنان فماذا عن شخصياتك ؟!

- قدمت بعضًا منها ، فأثناء الحرب الأهلية اللبنانية صورت بعض رجال السياسة في شكل « قبضايات » يتصرف الواحد منهم كالفتوة وهو يرتدي ثوب السياسة ، وكذلك قدمت شخصية « هنكار » الحاكم المستغل للشعب .

هل هناك سمات محددة تتحكم في نجاح أو فشل هذه الشخصيات جماهيريًا ؟

- لو درست الشخصية وقدمتها للجمهور ، فيجب أن تقدم بخصائصها ، فمثلًا « البكاش » يجب ـ لكي تصوره ـ أن تعرف تصرفاته وخصائصه وشكله المناسب لطبيعته .

هذا يقتضي أن يكون رسام الكاريكاتير رجلًا شعبيًا ، مع الناس في الشارع والحقول وعلى الأرصفة .

إذا لم يكن شعبيًا فلن يصدقه أحد ولن يقنع القراء ، ولن يجيد رسم شخصياته .

الكاريكاتير فن أم حرفة ؟ ألا يمكن لأي فرد أن يتعلمه ؟

- هو فن ، وهو شأن الفنون جميعًا ـ لابد أن ينطوي على قدر من الموهبة لدى ممارسته ، فلو جربنا على خمسة أطفال ذكاؤهم عادي ، فمع الوقت والممارسة يمكن أن نخرج منهم الموسيقي والرسام والكاتب والشاعر .

لماذا لا توجد « رسامة » كاريكاتير ؟

- لأن الكاريكاتير أحيانًا يكون « وقحًا » !! « قليل الأدب » أحيانًا مشاغب ، مقاتل ، وهذا لا يتوافر في البنات .

هل هناك إمكانية لظهور رسامات كاريكاتير لدينا ؟!

- حتى الآن لا يوجد ، ولست أدري أيكون في المستقبل أم لا ، المسألة متوقفة على « النظام العالمي الجديد » .

الرسام مفكر

هل هناك حدود فاصلة بين مؤلف النكات والشائعات ، ورسام الكاريكاتير ؟!

- من ينكت لا يستطيع الرسم ، أما الرسام فيجب أن ينكت ويرسم أولًا ، وثانيًا يملك القدرة على السخرية ، والرسام أساسًا مفكر ، وينفذ الفكرة بالرسم .

رسام الكاريكاتير ليست وظيفته التنكيت ، بل التوعية عن طريق السخرية ، إلى جانب أنه قادر على التنبؤ بالحدث قبل وقوعه ، فمثلًا أتذكر أنني حينما دخل الروس أفغانستان ، رسمت صورة لاثنين من الجنود الروس يقول أحدهما للآخر : « كويس قوي إننا عرفنا ندخل ، تفتكر ها نعرف نخرج » ، وبعد ثماني سنوات من رسمها كان الروس يعانون في الخروج من أفغانستان ، ولو ظلوا وقتًا آخر لطلبوا أن يدفعوا مالا حتى يتركهم الأفغان يخرجون !!

عشت ثورة الجزائر رسامًا ، ومقاتلًا كيف بدأت علاقتك بها ؟!

- كنا نصدر مجلة بسيطة ونحن أطفال في القاهرة ، وقابلنا مواطنًا جزائريًا كان ضابطًا بالجيش الفرنسي ، وهرب منه ، وجاء إلى مصر لاجئًا سياسيًا ، وكان عضوًا في حزب « البيان » الجزائري وزعيمه « مصالي الحاج » ، هذا الضابط كان يطبع مجلة في مصر ، ويسربها إلى الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، التقيت به في المطبعة ، وبدأت أرسم للجزائريين المناهضين للاستعمار ، ومن حينها درست وعايشت هذه الثورة ، وتنبأت بكل ما حدث ، كنت أرسم للمستقبل أي على أساس أن ما أرسمه

سوف يحدث بعد ذلك ، لكني للأسف لا أحتفظ من كل هذه الرسومات بشيء .

أيام المجد

أكان لك دور في حرب الجزائر غير الرسم ؟!

- سافرت ، وعشت معهم ، وحاربت ، وبعد عودتي للقاهرة وضعت كتابًا اسمه «أيام المجد في وهران» عن جهاد الجزائريين رجالًا ونساء وشيوخًا ، وأثبت فيه أن العالم الغربي جميعه كان يحارب الجزائريين أما بتسليح الفرنسيين أو بالمعونة المالية أو الدعاية والإعلام ، أو بالمتطوعين كان لدى الفرنسيين فرقة تسمى «الفرقة الأجنبية» ولديهم «لواء ألماني شرقي» وغيرهما ، وظلت إقامتي هناك حوالي خمسة أشهر .

وقد عبرت عن هذه المرحلة كاريكاتيريًا عام ١٩٥٩ فكنت أكتب وأرسم في جريدة الجمهورية ، ونشرت حوالي ثلاثين صفحة يومية عن الثورة الجزائرية بالرسومات ، وكان لهذه الرسومات صدى كبير لدى القارئ العربي .

صدفة

لماذا تبت عن الشعر ؟!

- لم أتب ، كان صمتي عنه بالصدفة !! وكل شيء بالصدفة ، فمثلًا قد يقود رجل ابنه ليعلمه حرفه الميكانيكي ، وأعطني ابنك أعلمه عندي ، وهكذا تغير نمط حياتي بسبب الصدفة ، وبالصدفة أيضًا مارست الرسم ، كنت أعرفه قبل ذلك لكنني اتجهت إليه كلية بالصدفة .

من أستاذك ومن تلاميذك وأقرب الرسامين إليك ؟

- أستاذي رخا ، تعهدني وشجعني ، وظللت على علاقة وطيدة به ، أما الزمالات والصداقات ومن عايشتهم وتأثرت بهم فكثيرون منهم : زكريا الحجاوي ،

محمود السعدني ، يوسف إدريس ، صلاح جاهين ، وأنا الذي أحضرت صلاحًا من المدرسة ، واكتشفت أنه رسام كاريكاتير ، وقدمته للحجاوي وكنا نصدر مجلة اسمها « مجلة الأسبوع » ، حين كنا صغار السن ، فرسم فيها صلاح أول عمل له .

حاكم فنان حقيقي

أقرب الرسامين إلى قلبك ؟

- أقربهم إلى قلبي حسن حاكم ، لأنه فنان أصيل وحقيقي .

الحياة بغير كاريكاتير كيف تكون ؟

- صعبة جدًا ، غير محتملة لابد من وجود السخرية ، لكي يستطيع الإنسان اجتياز الحياة عليه أن يسخر منها .

ألم تكن الحياة موجودة و« ماشية » قبل وجود الكاريكاتير ؟!!

- هو قديم جدًا ، في الأقصر ترى على جدران المعابد الأثرية رسومات كاريكاتيرية منها مثلًا رسم للقطط في السجن والمفتاح في يد الفأر !! وتجد الملك ضخمًا جدًا جدًا والأسرى صغار أمامه !! وفي الأقصر أيضًا مدينة للفعلة ـ الذين كانوا يبنون المعابد ، وكانوا مغتاظين من المهندس المشرف عليهم ـ فرسموا على الحوائط أنه حمار يمسك برجلًا !!

هل أنت مبتسم دائمًا ؟

- أقاوم كل شيء بالسخرية ، وأحيانًا أغضب ، لكن لفترات لا تطول ، ودائمًا التمس العذر للمخطئ ؛ لأن الدنيا قاسية والحياة صعبة .

مشكلة كاريكاتورية

أتتذكر عملًا جر عليك متاعب سياسة أو اجتماعية ؟

- بعد توقيع المعاهدة بين مصر وإسرائيل بدأ اليهود يعاملون الفلسطينيين

معاملة قاسية معتمدين على تحييد مصر ، فهاجمت الإسرائيليين بصفة يومية في رسوماتي بالجمهورية ، حتى قدمت رسمًا فيه نجمة داود ، وفي قلبها شارة النازي ـ الصليب المعقوف ـ وبيجن يرتدي بذلة النازي ، فقدمت وزارة الخارجية الإسرائيلية احتجاجًا لمصر على هذا الرسم ، واتهمت بأنني أفسد العلاقة بين مصر وإسرائيل ، وأضرب السلام في منطقة الشرق الأوسط ، وهاجمني بعض الصحفيين وكان المطلوب أن أفعل شيئًا ما « لإصلاح » ما « أفسدت » لكنني لم أفعل !!

أشهر كاريكاتير قدمته طوال تاريخك الفني ؟!

- كاريكاتير رسمته عن محمد مصدق رئيس وزراء إيران الأسبق ، حين تولى الوزارة ، وبدأ صياغة خط وطني لبلده ، وتحرير إيران من سيطرة الاقتصاد الغربي ، فحدث انقلاب ضده وطردوه من الحكم ، وادعوا أنه مخرب ومخرف ، وسجنوه ، فرسمت صورة في السجن وبابه حديد مكون من علامة الدولار والإسترليني .

وأتذكر أن عبد الناصر أطرى على هذا الرسم ، ومدحه في مجلس قيادة الثورة ، وكان قد نشر بالجمهورية التي صدرت ١٩٥٣ ، ومنذ أول يوم خصصت مساحة ثابتة للكاريكاتير ولم يسبقها في هذا التقليد إلا جريدة الأخبار ، التي عملت بها أول إصدارها ، وكان موجودًا معي صاروخان ورخا وظللت بالأخبار حتى قيام الثورة ، ثم انتقلت إلى الجمهورية قبل إصدارها بستة أشهر أي فترة الإعداد لها .

ألم تدرس في كلية الفنون الجميلة ؟

- لم أدرس ، لكنني درست أساسيات الرسم ومكوناته وحدي .

ألن تقدم لوحات تصويرية غير الكاريكاتير ؟!

- لا وقت لدي لهذا ، ولكني كنت أمارس التصوير قبل عملي بجريدة يومية تستنفد كل وقتي .

لو خيرت بين أن تكون شاعرًا ورسامًا للكاريكاتير ، فأيهما تختار ؟!

- لا أستطيع المفاضلة لكن الرسم قاعدته أكثر اتساعًا ، يعرفه الأمي ، ولو أمكن رسم الكاريكاتير بغير تعليق لكان أفضل ليطلع عليه أكبر عدد من الناس ، بعكس الشعر ، إلا إذا كان شعرًا شعبيًا له جمهوره .

من نجد

اسم « طوغان » ماذا يعني ؟!

- أنا أصلًا من الجزيرة العربية ، من نجد أنتمي لقبائل القديديين ، جئنا إلى مصر منذ زمن طويل ، ربما مئتي عام ، واستوطنا في الجيزة ، وطوغان أحد أبناء رئيس قبيلة اسمها « النجمة » موجودة الآن في سقارة والهرم ونزلة السمان ونزلة البطران ، وقد كنت معفى من الجندية فلم ألتحق بالجيش ، بصفتي من القبائل العربية التي كانت تواجه الأعداء دائمًا ، وفي مقدمة المدافعين عن مصر بغير الالتحاق بجيش نظامي ، وآخر رئيس لقبيلتنا كان اسمه « رحيم البطران » ، من نزلة البطران ، وكان يرتدي العقال ، ويحمل السيف ، ورأيته في طفولتي وكانت لهم تقاليدهم ومحاكمهم ، لكنهم ذابوا الآن في الوسط العام ، ولم نعد قبائل .

أما معنى اسم « طوغان » فهو « الصائد بالصقر » أي يملك صقرًا ويصيد به ، وهو اسم أحد أجدادي .

وما هو الاسم بالكامل ؟

- أحمد ثابت أحمد طوغان .

أكانت هذه مهنته فعلًا ؟

- لا أدري ربما لم تكن هذه مهنته ، لكنها مجرد تسمية .

حسن حاكم

- عيوب البشر ليست من صناعتهم .

فكيف نسخر منها ؟!

- لم أبكِ لموت أبي ، بل ضحكت !!

- أقول لابني : اعمل ولو رقَّاصة !!



يتحدثون دائمًا بالقلم ، ويتحاورون بالخطوط ، ويقاتلون على الورق ، فتضحك من أعمالهم ويدمع قلبك .

رسامو الكاريكاتير هل هم ساخرون في حياتهم كما في أعمالهم ؟ كيف تكونوا ولمعوا وهل يفعلون ما لا يقولون ، أم إنهم كالشعراء يقولون ما لا يفعلون ؟!

الفنان حسن حاكم بين فنانينا العرب ـ في هذا المجال ـ يتمتع بعدة خصوصيات أولها أنه رسام كاريكاتير بالصورة وباللفظة أيضًا .

قلت :

فنان الكاريكاتير ساخر من عيوب الآخرين ومضخم لها ، هل يمكن أن يتوقف عند عيوبه الشخصية ؟!

قال : أنا ـ كرسام كاريكاتير ـ لا أسخر من أحد ، فهذا الفن خطوط هادفة ، فيها شيء من البهرجة بغير سخرية ، كثير من الرسامين يطيل الأنف ويشوه الوجه ، أما أنا فلا أشوه إنسانًا .

أغضب ممن يضحك !!

فكيف يتوافر إذن عنصر الإضحاك ؟!

- فلسفتي في الكاريكاتير بعد عشرات السنين إنني لست مسخة ولا مهرج الملك ، ولا قزمًا من أقزام فرعون ، ولا بلياتشو !! رسومي إذا ضحك عليها أحد أغضب جدًا ، إنني أبث في مشاهدي شيئًا ما لكن أن يوضع الرسام في مربع لإضحاك رئيس التحرير فهذا مستحيل بالنسبة لي ، فلست أرسم لرئيس التحرير ، بل للإصلاح إذا كان هناك خلل يملك الكاريكاتير إصلاحه.

هذا موقفك الشخصي ، لكن الواقع العام يقول : أن طابع الكاريكاتير تضخيم

العيوب .

- نعم تضخيم عيوب ، لكن ليس لمجرد الإضحاك ، أخطأت فأصوبك لا أضحك عليك الناس ، فالعيوب في البشر ليست من صناعتهم ، فهل من حق أحد أن يقول لي : لماذا أنت أسود ؟!!

الفنان حسن حاكم ، كم سنة كاريكاتير ؟؟

- ٤٥ سنة ، أولها كانت ١٩٤٨ في مجلة اسمها « الندا » لفؤاد سراج الدين ، وكنا يومها نرتدي « الشورت » وبعدها كملت ١٦ عامًا في دار الهلال وأنشأنا « حواء » و« سمير وميكي » ثم في جريدة المساء أنا ومصطفى حسين .

أول عام كاريكاتير ، أين هو - على مستوى الإجادة - من آخر سنة بالنسبة لك ؟!

- تقصد أحسن كاريكاتير لقد رسمته عن صدام حسين ، وقد عشت في الكويت عشرين عامًا حتى دخول القوات العراقية ، وقد بحث عني صدام لأرسم صورة عن الأمراء تشبه ما رسمتها عنه ، فهربت إلى عمان ثم إلى مصر .

ضحكت من موت أبي !!

لو طلبنا رسم صورة كاريكاتورية لفظية لنفسك ، فماذا تقول فيها ؟!

أقول : إنني ساخر حتى من نفسي ، إن لم أجد ما أضحك عليه أضحك على نفسي ، لكن لابد أن أضحك حتى لو شتمتني ، وفي يوم مات أبي كنت أضحك .

الصورة - إذن - يمكن أن تكون لإنسان ساخر يبتسم دائمًا ، فماذا تعلق عليها ؟!

- بدون تعليق !!

الشعراء طبقات ، فهل رسامو الكاريكاتير كذلك ؟ وعلى أي أساس يمكن تصنيفهم ؟!

- أصنفهم حسب ثقافتهم ، حسب فهم الفنان لما يفعل ، فليس كل من يمسك ورقًا ويملأ مساحات شاغرة رسامًا لابد أن يكون المخ ممتلئًا .

هل أضفتم ـ أنت وجيلك ـ إلى الرواد في فن الكاريكاتير ؟!

- طبعًا ، إنني أرسم الآن الكاريكاتير بدون تعليق ، وهو لغة عالمية طورناها ، سئلت يومًا في تلفزيون الكويت : هل تتحدث لغات ؟ فقلت : كل لغات العالم ، فالياباني والهولندي والصيني يستطيع الرسام وحده أن يتفاهم معهم ، بدون تعليق هكذا أفعل أنا .

كل الفنانين الرواد السابقين علينا كانوا يعلقون على الكاريكاتير ، أما أنا فأرفض تمامًا إلا ما ندر .

رسام الكاريكاتير فنان تشكيلي فاشل ، ما ردك على هذه المقولة ؟

- أنا أقول غير هذا ، وأذكر لك حادثة بسيطة : كنت طالبًا في الفنون الجميلة ، وكان يدرس لنا حسين بيكار ، ويومها كنت أعمل في « الندا » ومشهورًا ، فقلت له : ما رأيك يا أستاذ بيكار في هذه الرسومات ؟! فنظر فيها وقال : اذهب ارسم الموديل الذي أمامك !! ودعك من هذا ، فغضبت جدًا .

فقال لي : عليك بدروسك أولًا ، ونادى عليَّ بعد ذلك وقال : رسوماتك جميلة ، ولكن عليك أن تدرس لتكون رسامًا مجيدًا .

فلست معك في أن فنان الكاريكاتير تشكيلي فاشل ، يمكن أن يكون الناقد فاشلًا ، كناقد الفكرة مثلًا ، يقول محمد لطيف : جون ، جون ، ويصيب فعلًا ، لكن هل يستطيع أن يدخلها المرمى ، يجب أن يكون رسام الكاريكاتير فاهمًا ، لا يرسم وكفى ، عليه أن يسيطر على مقدرات اللوحة التي يرسمها .

رغيف الخبز .... سياسة

هل هناك مدارس لهذا الفن ؟؟

- طبعًا ، فرنسا ، إنجلترا ، روسيا يرسمون بتفاصيل دقيقة ، أما شرق أوروبا فيرسمون في بساطة ، خطوط سهلة ، وهناك رسام كاريكاتير يحول الكلام إلى رسم ، وهو أسوأ أنواع الكاريكاتير ، وهناك كاريكاتير اجتماعي ، وآخر سياسي ، وإن كنت لا أفصل بين الاجتماعي والسياسي ، فرغيف الخبز سياسة .

الكاريكاتير العربي إلى أي المدارس ينتمي ؟

- لا أستطيع التحديد ، فكل رسام يرسم بنبضه ، لنا مشكلاتنا الخاصة في وطننا العربي التي تشحن الفنان ، ولا أصنف رسامينا تحت سقف مدرسة .

أي أننا لم نحدد هويتنا بعد في هذا المجال ؟

- لا أهاجم أحدًا ، كل يرسم حسب مقدرته وثقافته ، إذا لم أستطع توصيل ما برأسي فأنا فاشل ، كالممثل الذي يعجز عن توصيل دوره ، فكل فنان لديه وسيلة التوصيل المناسبة .

في هذا الفن : هل تعود الصورة إلى التعليق أم أن التعليق أو الفكرة هي التي تولد أولًا ثم تصاغ الصورة على نمطها ؟

- الفكرة تولد أولًا ، مثلًا مشكلة الصومال وجدت وقائمة ، ثم يحاول الرسام أن يعبر عنها بعد نشوبها ، فأتأمل مثلًا : لماذا أرسلت أميركا الجيش إلى الصومال ؟! يجب أن أعرف كرسام كاريكاتير - وهو جاسوس المستقبل - لماذا فعلت هذا ؟!

مصروداني

أصلك سوداني ، ما جنسيتك الآن ؟

جنسيتي سوداني، لكني أعيش في مصر بكلي أعرف مصر أكثر منك.

أولدت بمصر ؟

- نعم، ووالدي كان ضابط شرطة، وينتقل في كل بلاد المملكة المصرية «مصر والسودان» ولذلك فأنا أعرف بلد أي شخص من لهجته، لقد تجولت في جميع أنحاء مصر وعشتها مدينة مدينة، ولا أحب ولا أسمح لأحد أن يطعن في مصر أو يهاجمها.

والسودان ؟

- إن جنسيتي الحقيقية «مصروداني» أي لست سودانيًا فقط.

تقصد أن لك جنسيتين : المصرية والسودانية ؟

- جواز سفري سوداني، لكن كياني مصري، ومشاعري مصرية، أحب الحسين والسيدة زينب والمغربلين والفواطية، وإذا سألتك أين الفواطية فلن تعرفها !!

حقًا لا أعرفها !!

- ولا القفاطين، لقد عشت مع فلاحي مصر والكادحين فيها، وقد كان أبي يرفض اختلاطي هذا، وكان «قمندان» الحرس الملكي، ويكره جلوسي مع الفلاحين، يكره أن أمشي معهم حافيًا وأستحم في الترعة، هكذا كانت مفاهيمه وثقافته، وكنت أرفض موقفه هذا، وأراني جزءًا ملتحمًا مع الشعب وكادحيه.

أعمالك الكاريكاتورية هل تعجب أفراد أسرتك أكثر من أعمال الفنانين الآخرين ؟

- أولادي وزوجتي ليس لديهم هذا الانحياز لي، يقولون عن الجيد : جيد، والعكس صحيح، وقد عودتهم على الأحكام الموضوعية، وأنا أُسرُّ أن يعربوا عن عدم رضاهم لعمل من أعمالي.

من هو الفنان الذي يقدمونه عليك ؟

- كل رسامي مصر قبلي ، وأحسن مني .

وماذا ترى الأسرة ؟

- ترى أنني رجل عظيم جدًا ، وهذا موقف فيه مجاملة لي .

هل أسرتك أول من يقرأ ويشاهد أعمالك ؟

- نعم وكثيرًا ما يقولون إننا نطلع على مجلة « كاريكاتير » لنرى رسوماتك فقط .

وإذا رأوا ما لا يعجبهم في أعمالك فهل تتخلص منها ؟

- لا أتخلص منها ، بل أتركها لأربط بين ما رسمت ، وما قالوا هم عنه لكنني لا أنشرها بل أحتفظ بها .

أصبح ضرورة

كاريكاتير بغير صحافة يساوي صفرًا ، ماذا تقول في هذا الرأي ؟

- بالضبط ، كمعبد بلا إله ، كانوا قديمًا يضعون الكاريكاتير في الصحف على سبيل الزينة أما في السنوات الأخيرة فقد أصبح الأمر يقتضي ـ بعد إنشاء صحيفة وجلب محررين ـ البحث عن رسام الكاريكاتير أصبح الآن من ضروريات الصحافة ؛ لأنه لغة العالم .

أنا أقصد العكس ، فأقول أنه لابد للكاريكاتير من صحافة ينشر فيها .

- لا ، لا أوافق على هذا ، دومييه ـ رسام فرنسي أيام الثورة الفرنسية ـ رسم ركاب الدرجة الثالثة في الكاريكاتير ، ويحتفظ به حتى الآن في متحف اللوفر ، ولم تكن هناك صحافة ويستطيع أحدنا أن يقيم معرض كاريكاتير ، يرسم على الحوائط .

يقال : أن الكاريكاتير أصله مصري قديم ، وجد مرسومًا على المعابد والقبور

أصحيح هذا القول ؟!

- غير صحيح ، منذ خلق الإنسان خلق الكاريكاتير معه ، لقد عثروا عليه مرسومًا على الكهوف ـ قبل الفراعنة ـ حينما كانوا يصطادون الحيوانات ، فيعجز الإنسان البدائي عن صيد الأسد ، فيعود يرسم على الجداريات ـ التي وجدت في الأردن وأسبانيا ـ يرسم الأسد ، وهو يقف مسيطرًا عليه هازمًا إياه ، والماسكات للحرب أو الفرح أو غيرهما نوع من الكاريكاتير يعبر عن وجهة نظرهم في الحرب ، ليس ضروريًا أن يكون هذا الفن كما نراه الآن ، ثم جاء دور الفراعنة في الأسرة الرابعة وبالذات في عصر أخناتون .

فرعون .... يرعب الحمار !!

ما هي أبرز الرسومات التي تركوها ؟

- أبرزها حينما رسم الفنان صورة الفرعون يلعب الشطرنج مع حمار ، ورسم فرقة موسيقية برؤوس حيوانات ، أي بغير عقل ، تعبيرًا عن سوء ما تقدم من معزوفات ، وهي بدون تعليق .

إذن فحين تستغني في رسمك عن التعليقات فهذا ليس جديدًا ، إنما هو تقليد مصري أنت متأثر به ؟

- لست متأثرًا به ، إنه تأثري بالكاريكاتير العالمي الذي لم يعد الآن « موضة » تأخرنا بعض الوقت للحاق به ، وأنا أحب هذا النوع من الفن .

الفنان حاكم ، يحكم من ؟!

- أنا محكوم لا حاكم ، « الاسم عنبر والشهرة صرباتي » وهو مثل يقال لعامل المجاري ، فليس فيه من اسمه إلا العكس !! وحسن جدًا إذا استطعت أن أحكم

نفسي .

لماذا سموك حاكمًا ؟!

- لست أنا بل أبي هو « الحاكم » وجدي أيضًا اسمه كذلك ، فاسمي : حسن حاكم سلمان حاكم ، ويقال : إن جدي كان من تجار الرقيق ، وله صولة وجولة ، وحتى اليوم توجد قلعة بشمال السودان اسمها قلعة حاكم .

هل تتردد على السودان كثيرًا مع الأسرة ؟

- لا ليس كثيرًا هذه الأيام ، ومعي في مصر أسرتي : الزوجة والأبناء ، وهناك - في السودان - إخوتي وعمي وبقية العائلة .

لو عرضوا عليك في السودان رئاسة تحرير صحيفة كبرى ، هل تترك مصر ؟

- لا يمكن ، وأحتج على هذا السؤال ، وقد حدث هذا من قبل معي أنا والشاعر محمد الفيتوري ، عرض علينا أن يكون هو رئيس تحرير ، وأنا مدير تحرير أيام « عبود » فرفضت العرض وعدت إلى مصر ، كان ذلك لمجلة أسبوعية اسمها « الإذاعة » في عام ١٩٦٠ .

ما هو تقييمك لواقع فن الكاريكاتير العربي ؟

- أطلب من الرسامين العرب أن يأخذوا الكاريكاتير مأخذ الجد ، لا أجلس أرسم كأنني آكل خسًا طوال اليوم بلا هدف أو فائدة ، وكثيرون يرسمون « أي كلام » .

نشال .... يسعدني

لو طلبت منك تنصيب عميدٍ للكاريكاتير على المستوى العربي فمن تضعه في هذا المنصب ؟

- كلهم زعماء إلا أنا ، في مصر رسام جيد مثل مصطفى حسين ، ليبيا فيها الزواوي ،

في سوريا علي فرزات .

هل هم جميعًا على مستوى واحد ؟

- طبعًا لا ، الأصابع ليست كبعضها ، العظيم من ينقل لي - كشعب - ما بداخله بدقة ويقدم لي « فانوسًا » أسير به ، ما أكثر المضللين هذه الأيام ، وأنا أكشف هؤلاء المضللين كرسام كاريكاتير واع .

بعض الناس يندسون على هذا الوسط تكسبًا منه لأنه رائج ومربح ؟

- هذا حدث ويحدث فعلًا ، وكثيرون جدًا من رؤساء مجالس وإدارات الصحف يحكمون الصداقة في اختيار الرسامين ، فليست هذه الأيام كأيام إحسان عبد القدوس الذي أفهمه فقط .

هل تتيح أنت شخصيًا فرصة للشباب ليتعلموا منك ؟

- يمر عليَّ يوميًا ما يقرب من عشرين شابًا ، وأنصحهم بالطريق الصحيح ، وأنا أفرح الآن لأي شخص يرسم خطين إلى جانب بعضهما ليصبح من أسرة الكاريكاتير .

لو طلب أبناؤك العمل في هذا المجال ، هل توافقهم ؟

- أنا لا أفرض رأيي على أحد ، كل ما أقوله للابن : أعمل ولو رقاصة ، المهم أن تكون نابغة ، حتى لو عمل نشالًا ، وأنا إذا نشلني نشال ، وكان ذكيًا جدًا أفرح به ، وكثيرًا ما نشلت من أذكياء جدًا فكنت سعيدًا بهم وأتركهم ينشلونني .

حتى الهواء رسمته

أنت تتركهم خوفًا لا حبًا في ذكائهم .

- لا لا أخاف أحدًا .

هل عبرت عن مثل هذا الموقف بالكاريكاتير ؟

- عبرت كثيرًا جدًا عن مثل هذه المواقف ، لكن لست أدري أين ذهبت هذه الرسومات الآن ، لقد رسمت كل شيء حتى الهواء ، ٤٥ سنة مشوار طويل .

هل أثر الزواج على حياتك سلبًا أو إيجابًا ؟

- زوجتي - زينب الكردي - من حسن الحظ أنها كاتبة ، وكان لها باب ثابت في جريدة « الوطن » الكويتية ولهذا فهي تدعيم لي .

◆◆◆

بهجت عثمان

- الكاريكاتير الصادق .... يعبر عمن لا صوت لهم .

- نجيب محفوظ في ذاته ... عمل فني !!

- أولادي ... لا يقولون لي : بابا .

- رسام الكاريكاتير العرضحالجي ... لا يحتاج لثقافة .



أقام دولة كاريكاتورية سماها « بهجاتيا العظمى » ، جلس ـ مدى الحياة ـ على عرشها حاملًا لقب « بهجاتوس » ثم سَخَّر كل مواطنيه « الكاريكاتوريين » للتسبيح بما أصابهم من قحط وشح وعدمية !!

وبعد أن يئس الفنان بهجت عثمان من أبناء جمهوريته الكبار وتسليمهم المطلق له ، اتجه إلى العيال يخاطبهم ويلعب معهم ويقودهم ويستمع إليهم ويتعلم منهم ، فقد تسقط على أيديهم جمهورية بهجاتيا العظمى .

لكن يبقى بهجت دائمًا رسام كاريكاتير مُلهمًا رغم تخليه ـ أخيرًا ـ عن هذا الفن ، وإخلاصه جل وقته وذهنه للرسم للأطفال والكتابة لهم أيضًا .

سألته :

هل توفر لنفسك طقوسًا خاصة لممارسة الإبداع ؟

- لا توجد طقوس محددة ، لكنني « أفتح » مبكرًا جدًا أصحو ـ هذه السنين الأخيرة ـ في الخامسة والنصف صباحًا وأجمل فترة للإبداع ما بين هذا التوقيت حتى العاشرة ، أفكر وأرسم وأستمتع و« أشخلع » عملي ولا أعمل شيئًا حسب الطلب بل أرسم ما أحب أن أرسمه .

وجهة نظر

هل تتواتر إليك الفكرة أولًا ثم ترسم لها الصورة ؟

- طبعًا ، يأتيني أولًا تصور الفكرة نفسها .

وبناء على هذا لابد من وجود تعليق تحت الصورة !!

- ليس ضروريًا ، يمكن بلا أي تعليق لكن حين أفكر « بصريًا » أي كيف أخرجها للمشاهد .

فماذا ترى في الرسامين الذين يشتركون مع غيرهم لإخراج صورة كاريكاتورية مستعينين بأفكار الآخرين ؟!

- لي وجهة نظر في هذه المسألة ، فمهنة الكاريكاتير مثل الأدب والكتابة والسياسة ، لابد أن يكون لصاحبها وجهة نظر في الحياة ، والكتابة السياسية أو الشعر أو القصة أو الكاريكاتير وسيلة الفنان للتعبير عن موقفه ، فاستعارة فكرة من أحد والرسم عليها يبدو لي أن من يفعل هذا مثل « العرضحالجي » قاعد أمام المحكمة ويتقدم إليه المشتكي لكتابة رسالة يشتم فيها فلانًا فيشتمه ، ثم يأتي بعده فلان المشتوم يطلب شتم الأول فيشتمه .

بمناسبة الشتائم ، هل يمكن أن نقول : أن الكاريكاتير لسان الحكومات أكثر من أن يكون معبرًا عن الشعوب ؟!

- في الرسم هناك رسام إعلانات ، ورسام لوحات ، كذلك في الكاريكاتير ، الرسامون أبواق الحكومات كرسامي الإعلانات وأصحاب الرأي في الحياة مع الشعب لا مع الحكومات - لأنها تجيء وتروح أما الإنسان فباق .

أصحاب الرأي هؤلاء درجات : فمنهم من يقلق لتأخر الطائرات عن مواعيدها ، هذا يحمل هموم عدد قليل من الناس المستفيدين من هذه الخدمة ، وآخرون يعبرون عن الشكوى من « التاكسيات » فاهتمامهم متسع شيئًا ما ، وهناك من الرسامين من يعرضون تزاحم الأتوبيسات ، فأعتقد أن هؤلاء أصحاب رؤية أوسع وغير هذه الهموم يمكن رصد من لا يستطيع السير حتى على الأقدام .

المهم أنت مع من ؟

من الحرافيش

أنت من حرافيش نجيب محفوظ ، ما هو تقييمك له كمؤلف نكات كبير ، بعيدًا

عن الإبداع الأدبي ؟! .. هو يضع النكتة السياسية بالذات ، ويتولى نشرها من حوله من الأدباء أمثال علي سالم ومصطفى أبو النصر .

- لا أعرف عن نجيب محفوظ هذا الجانب من حياته ، لكنه من أكثر الناس سرعة بديهة : لديه الرد السريع الساخر الضاحك الفكاهي .

ألم يولد لهذا لديك بعض الصور الكاريكاتورية ألم تستوحِ منه شيئًا ؟!

- نجيب محفوظ في ذاته عمل فني ، رؤيته للأشياء ، ورد فعله عليها ، وضحكاته .

رسامات الكاريكاتير

مكتوب على أبواب فن الكاريكاتير : ممنوع دخول الستات ... لماذا ؟!

- ليس صحيحًا أنه ممنوع ، المجال متاح ، والباب مفتوح واسع لكل من يملك وجهة نظر ويستطيع التعبير عنها بسخرية وبالفعل هناك رسامات كاريكاتير ، مثل : بربارا هاينجر ، وهي رسامة ألمانية حصلت في مهرجان دولي بالجزائر على المركز الثاني وحصلت أنا على الأول .

هذا نموذج فردي يؤكد القاعدة .

- لا أستطيع الفتوى في تحديد الأسباب بدقة ، وإن كان من الممكن النظر إلى عدم حصول المرأة على حقها حتى الآن .

لكن عمومًا في مجالات كثيرة ـ لعدم حصول المرأة على حقها ـ تراها دون الرجال فعدد القاصات بالنسبة للقُصَّاص قليل ، وعدد الشاعرات أيضًا قليل مقارنة بالشعراء .

المرأة لديها حس شعري أعمق ، لكن الواقع أن الشعراء أكثر عددًا وعلو صوت ، نفس الحكم على مخرجات السينما ، إنها قضية واحدة .

في الفن التشكيلي ـ والتصوير بالتحديد ـ هناك نابغات أمثال جاذبية سري ، وتحية خليل .

لكن أمامهن طابور طويل من الرجال .

لو رأينا وجهًا آخر للفنان بهجت غير الكاريكاتير ، فماذا يكون ؟!

- أنا حاليًا أعمل رسامًا وكاتبًا للأطفال ، وأحس أن هذا أكثر جدوى وأنفع للناس من الكاريكاتير ، فهذا الفن لا أعود إليه الآن إلا احترامًا للصنعة وللمهنة ، أرسم النكتة أو النكتتين مثل الأسطى « الأويمجي » صانع الأرابيسك الذي لا يرضى بعض الأحيان عن صنعة صبيانه فيعمل بيده ، هكذا أنا في الكاريكاتير .

لكن أهم ما أحبه هو الرسم للأطفال ، وقد ألفت كتابًا ـ سيرة ذاتية لي للأطفال كتابة ورسمًا بصيغة غير تقليدية ، فلم أذكر تخرجي ولا عملي وسميته « صداقة بلا حدود » عن الأشياء التي أحببتها في حياتي : الإنسان ، الفكرة ، الشجرة ، النخلة ، الغنوة ، المكان ، وقد قدمت من قبل ستة كتب كاريكاتير لكن هذا الكتاب هو أعز عمل عندي .

سكة.. أجمل

توجهك إلى الرسم للأطفال هل هو يأس من الكبار وإمكانات إصلاحهم ؟!

- هذا سبب ، والمناخ العام للحياة سبب أيضًا .

الأسباب الأخرى .

- كنت أرسم للأطفال قديمًا ، ولم أكن مزهوًا تمامًا بفكرة رسم لهم ، لكن جاءت فترة منعت فيها من ممارسة وجهة نظري في الرسم الكاريكاتيري ، وكنت أرغب في تفريغ طاقتي في شيء ما فوجهتها إلى كتب الأطفال وأشكر من منعني من التعبير

بالكاريكاتير ، لأنه فتح لي سمة أخرى أجمل وأرحب ، وليس الأمر يأسًا بقدر ما هو تفاؤل بالغد ، وقد رفعت شعار « نحو بعد غد » واتجهت للأطفال .

أيعني هذا أن الكاريكاتير قد وصل إلى طريق مسدود ، وفقد قيمته الاجتماعية ؟

– لا ، ليس صحيحًا لكن ربما تزيد العملة الرديئة على العملة الجيدة فتختلط الأمور فيصاب الإنسان بالإحباط .

الكاريكاتير يتجاهل مشكلات الأرياف والبوادي العربية ويركز على مشكلات المدن ، هل تحول إلى فن أرستقراطي ؟

– أهل المدن ليسوا جميعًا أرستقراطيين ، وغير صحيح أنه يتجاهل أهل الريف والبادية ؛ لأن مشكلة رغيف الخبز ليست خاصة بأهل المدن وحدهم ، بل بأهل القرى أيضًا وأعتقد أن الكاريكاتير عبر عنها جيدًا ، وهناك فنانون من أبناء العملة الجيدة قضيتهم الفلاح وهجرة المصري للخارج وأغلب المهاجرين من الفلاحين .

الكاريكاتير الصادق حتى لو كان من يرسمه ابن مدينة بعينه الواسعة ورؤيته لابد من أن يساهم في التعبير عمن لا صوت لهم .

رسام الكاريكاتير لا يحتاج إلى ثقافة ، بل تكفيه الموهبة ، أليس كذلك ؟

– أبدًا ، ليس صحيحًا ، إلا إذا كان هو العرضحالجي الذي تكلمنا عنه في تصوري إنه لابد للمتصدي للقضايا العامة والذي يحاول التعبير عنها أن يكون على درجة عالية جدًا من الثقافة ، وخصوصًا من يعبر عن هذه القضايا بالإبداع الفني ، ولا يعني هذا أن رسام الكاريكاتير فيلسوف أعتقد أنه « مفكر » يبحث في الأشياء قد يصيب وقد يخطئ ، إنما يشفع له أنه صادق في محاولته لفهم الأشياء والتعبير عنها .

ومجالات الثقافة للفنان ليست هي القراءة فقط ، بل لابد من أن يسمع الموسيقى ، يشاهد مسرحًا ، يمارس الرحلات ، وهذا هو الفارق بين فنان موهوب وفنان

موهوب آخر ، محصلته من قراءاته ورؤيته ومعايشته للحياة العامة .

صلاح جاهين ، شاعر أولًا أم رسام كاريكاتير ؟ أتظنه تجربة إنسانية يمكن أن تتكرر ؟

– هو فنان شامل رسام عظيم جدًا ، وشاعر عظيم جدًا ، وممثل ، إنه فنان مبدع وفريد قد لا نرى مثله وإن كان هذا نوعًا من اليأس ؛ لأن من خلق صلاح جاهين سيخلق آخرين بنفس هذه الموهبة سواء في الرسم أم الشعر أم الفنون الأخرى .

بهاجيجو !!

تناولت الديكتاتورية كثيرًا في رسوماتك ، ألا تمارسها في حياتك الشخصية ؟

– صعب أن أتحدث عن نفسي وأمدح شخصيتي ، إنما أرجو أن أكون ـ كما حاولت ـ ديمقراطيًا في حياتي ، أولادي منذ ميلادهم لا يقولون لي : بابا ، بل يقولون : يا بهاجيجو ، ونحن أصدقاء منذ صغرهم ، ومع ذلك يحترمونني لكن بشكل خاص .

في علاقتي بالأطفال في الكتابة أو الرسم لم أحاول أن أفرض على الطفل مقولات ثابتة جاهزة مثل : هذا حسن ، وهذا قبيح ، أو هذا حرام ، وهذا حلال ، هذا صح ، وهذا خطأ ، لم أقف أبدًا فوق منبر لأكلم الأطفال أنا أفتح للطفل ذراعي ، وأعتقد أن هذه التربية هي الصحيحة ، إنك تقول له : في يدي خير لو رغبت فيه فمد يدك وخذ .

أقول له : أحببت في حياتي كذا ، وأنت قد لا تحبه فليس أعظم صديق هو صديقي وأحسن أغنية هي كذا ، أقول له : أحببت النخلة لأني رأيتها شامخة وحيدة في الصحراء ومع ذلك معطاءة وخيرة ، ولا تشرب ماء كثيرًا لكن تعطي خيرًا وفيرًا ، ذات مرة كنت بإحدى الصحاري الخليجية ولم يكن موسم التمر ، ورغم ذلك

سقطت على « صلعتي » تمرة جافة ، وأحسست أنها تحملها لي لتحييني وتقول : « وأنا كمان أحبك » !!!

وقد قدمت كتاب « صداقة بلا حدود » بخط يدي فكأنه رسالة شخصية إلى الطفل : فيها الألفة الولد ، ولم يكن توقيعي على المقدمة « الفنان أو الإنسان الأستاذ بهجت » بل « بهاجيجو » ، وأعتقد أن الطفل إنسان مثلي ، لا ينقصه إلا الخبرة التي تتراكم على مر السنين ، وأحاول أن أجعله يفكر ويختار ليصبح في مستقبل حياته قياديًا فلا يكون كموظف الحكومة الذي يقول : هذه ليست مسؤوليتي عليك بتوقيع رئيسي المباشر .

هل تجد صدى واستجابة من الأطفال لاهتمامك بهم ؟!

– نعم أجد ، أعرف هذا من خلال احتكاكي بأطفال في الأسرة ، وأطفال أصدقائي ومعارفي وأجري معهم حوارات ، فأحس باستجابتهم ، وأتعلم منهم الحسن والسيء من كتب الأطفال وأسباب القبول والنفور بالنسبة لهم .

محظورات ..

رسامو الكاريكاتير العرب عالة على المدارس الشرقية والغربية في هذا الفن ، هل تؤيد هذا الرأي ؟!!

– لا أؤيده ، لقد أقام معهد العالم العربي في باريس معرضًا لرسامي الكاريكاتير العرب ، حضره عدد كبير من الرسامين الفرنسيين ، وأبدوا إعجابهم وانبهارهم بأعمالنا وقالوا لنا : أنتم تلعبون في ملعب ضيق جدًا لديكم السياسة والدين والجنس محظورات ، وغيرها ، وعلى الرغم من ذلك تلعبون بمهارة عالية جدًا .

وتقام مسابقات كاريكاتير في صالون مونتريال بكندا ، وفي أسبانيا وإيطاليا

وبلغاريا واليابان ، ودائمًا يشترك رسامو الكاريكاتير العرب ويحصلون على جوائز عالمية ، فمثلًا رشيد آية قاسمي من الجزائر حصل على الجائزة الكبرى لصالون مونتريال ، جورج البهجوري من مصر حصل على جائزة البورتريه الكاريكاتيري الأول على مستوى العالم منذ سنوات قليلة ، علي فرزات من سوريا حصل أيضًا على جوائز ، وحصلت على الجائزة الأولى في مهرجان الجزائر وشارك معنا رسامون من فرنسا وإنجلترا وبلغاريا .

حقًا ، هناك جوائز تمنح للفنانين العرب ، وهم متفوقون فعلًا ، لكن تلاميذ في مدارس كلها في الخارج أي لا توجد مدرسة كاريكاتير عربية خالصة كالمدارس الشعرية العربية مثلًا .

– هذا ظلم للرسامين العرب ، لأن الكاريكاتير بدأ متأخرًا في وطننا العربي ، إننا ننتمي لدول العالم الثالث ، والثالث هذه فيها بحبحة فيمكن أن يكون التاسع مثلًا ، ثم إن قضية حل الرسم أو حرمته شاركت في تأخير النهضة الفنية الحديثة .

لكن لدينا رسامون عربًا رواد في فن إخراج الكتاب ـ من تصميم ورسم توضيحي ـ وهم على مستوى عالمي قفزوا إلى المقدمة بمجرد التقاطهم للخيط وممارسة الكاريكاتير بدأت متأخرة عندنا من خلال الرسامين الأجانب ، فبدأها في مصر : سانتيز وصاروخان ، ولكن بعدهما ظهر رسام الكاريكاتير المصري العظيم « رخا » وقدم إبداعاته .

رسام الكاريكاتير هل هو فنان تشكيلي ضل الطريق ؟!

– بل اختار الطريق ، لقد تخرجت في الفنون الجميلة قسم النحت وحصلت على المركز الأول بامتياز ولكن اختارني الكاريكاتير .

هل تنعكس طبيعتك الفنية الساخرة على معاملاتك الأسرية ؟

ليس بالضرورة أن أكون كوميديان ، هناك رسامون ظلهم خفيف في الحياة ، ومنهم من هو جاد ، وأذكر من ضمن الحرافيش الأديب محمد عفيفي أعظم كاتب ساخر في الدنيا ، ولكن حين كان يكتب كنا نراه جادًا جدًا .

عمنا زهدي

ما هو ترتيبك لهذه الأسماء : حسن حاكم ، بهجت عثمان ، طوغان ، مصطفى حسين ، محيي الدين اللباد ، زهدي ، عمر شعبان ، رؤوف محسن ، دياب ، محمد حاكم ، تاج ، ماهر داود ؟

كل يسعى على قدره ، وأنا واحد من هذه المجموعة ، وليست مهمتي أن أقيم الأحسن والأسوأ ، لكن « عمنا » زهدي أزعم أنني تعلمت على يديه ، فله الريادة .

من ناحية القيمة الفنية أم التاريخية ؟!

- من ناحية الاثنين .... تعلمنا على يديه فن الكاريكاتير ، هو وعمنا رخا ، وعمنا عبد السميع .

هل توجد قواعد لنقد فن الكاريكاتير ؟ فالشعر له قواعد ، وللمسرح ولغيرهما كذلك ؟

- أعتقد أنه يمكن أن تكون هناك قواعد ، وإن كانت غير موضوعة ومسجلة ، فمثلًا مدى صدق العمل ، مدى قربه من الناس ، درجة فتية في تناول الفكرة .

هل هناك من يمارس العمل النقدي هذا ؟!

- في كتابي « حكومة وأهالي » تحدث صلاح عيسى في مقدمته عن تقييمه للكاريكاتير ، عمومًا وفي كتابي « الديكتاتورية للمبتدئين » اختار الناقد الأدبي

الكبير الدكتور على الراعي أن يكتب لي المقدمة ، وهو تكريم لهذا الفن .

من الذي سماك « بهجاتوس » ؟!!

- أنا الذي صنعت شخصية بهجاتوس ، أي شخصية الديكتاتور ، لكي لا يكون المقصود حاكمًا بعينه ، وإنما قصدت به حكام دول العالم الثالث .

وبهجاتوس من بهجت ، ورسمتني وشلت على كتفي « وزر » الأنظمة الحاكمة الحالية والسابقة والقادمة أيضًا .

◆◆◆

مصطفى حسين

- كمبورة والسماوي والأليت ... شخصيات حقيقية .

- رئيس الوزراء مبسوط مني جدًا .

- مطرب الأخبار ، مجموعة مطربين ليس واحدًا .

- أنا وأحمد رجب تَطَبَّعَتْ أفكارنا .



كمبورة، مطرب الأخبار ، قاسم السماوي ، والكحيتي ، شخصيات أصبحت في شهرة نجيب محفوظ وعادل إمام .

يظنها الناس تسير على قدمين ، و« تتشعلق » ـ مثلنا ـ في الأتوبيسات ، وتقف في طابور الجمعية ، على الرغم من أنها مجرد « خربشات » فنية صاغتها ريشة مصطفى حسين ، هي وغيرها من الشخصيات الكاريكاتورية المشهورة .

حياة هذه « المخترعات » الفنية جزء من حياة الفنان نفسه ، ومؤشر لقدرته على الإبداع والتجسيد وفهم الروح العامة ، والوقوف على موطن الداء بالنسبة للناس من مختلف طبقاتهم ، ولا يقف دور مصطفى حسين عند هذا الحد ، بل هو « مصنع » ساخن دائمًا بالسخرية والإضحاك يغذيه فيض من التفكير المنظم لأحمد رجب ، ويصب في أوسع دائرة للانتشار من خلال جريدة يومية كبرى .

ومصطفى حسين في حد ذاته نكتة كبرى ـ لا من ناحية الشكل ، فهو منسجم الملامح ـ بل لأنه يسخر في جدية شديدة ، ويمكن أن نضع كل عبارة من عباراته تعليقًا على رسم كاريكاتوري ، خاصة إذا كان يتحدث بطبيعته في جو غير رسمي .

....

قلت له :

أنت صاحب أشهر شخصيات كاريكاتيرية : قاسم السماوي ، وعبد الروتين ، وكمبورة ماذا عن التاريخ الشخصي لكل منها : كيف نشأت وترعرعت ؟!

ـ قال : أعرق شخصياتي هي عبد الروتين ، كانت بدايتها ١٩٧٤؛ لأنه موجود في المصالح الحكومية ، وفي حياتنا بصفة عامة ، وسوف يستمر ، وأعتبره من أهم الشخصيات لأننا جميعًا نتعامل مع موظفي الحكومة ونعاني منهم .

ومآرب أخرى

وشخصية كمبورة وجدت أثناء انتخابات المحليات ، وكان لدي سؤال : هل الوطنية مسيطرة على هؤلاء المرشحين للانتخابات ، وإنفاق هذه الأموال الطائلة لمجرد أن يؤدي أحدهم خدمة بضمير صادق ، وبحس وطني خالص ؟

إن وراء هذا الإنفاق منافع شخصية ومآرب أخرى ، وقد اتضح لي أن هناك أزمة زجاج مقاس ٦ ملليمتر وخشب ، والمحليات لديها إذن الصرف لهذه السلع كنوع من التجارة ، وتدر دخلًا كبيرًا للمسؤولين في هذا المجال ، فالهدف هدف مالي لمثل هؤلاء المرشحين ، فاخترعت شخصية كمبورة للتعبير عنهم .

وتطور كمبورة فدخل انتخابات مجلس الشعب ولأعضائه مآرب أيضًا ومنافع ، ونفس الأسباب والأغراض والمصالح ، ومعروف أن هناك « فئات » مالية لكل خدمة يؤدونها للناس من خلال توقيعات الوزراء ، فهذه شخصية انتهازية تبيع أباها لأجل قرشين اثنين ، وقد ظهر كمبورة كشخصية عام ١٩٧٦م .

أما « مطرب الأخبار » فأعتبرها واحة صغيرة في الصفحة الأولى المكتظة بأخبار الحرب والضرب والتطرف والإرهاب .... إلخ .

وقد عاشت هذه الشخصية أكثر مما توقعنا لها ، فلها أكثر من عشر سنوات من العمر ، وهي تقيم في خانة واحدة ، وحول موضوع واحد ، وهو ما يجعلها شاقة في تقديمها جديدة كل يوم ، ومضحكة ، وهي في هذا الشأن كالباب الصغير « الحب هو » الذي ظهر في يناير ١٩٧٤ ونستميت في أن يكون جديدًا دائمًا .

والشخصية التي تحيا في برج عاجي وبعيدة عن مصالح الناس هي « عزيز بيه الأليط » الذي يتكلم لغة تختلف عن لغة العاديين ، فحين يرى - مثلًا - طفلًا ممزق الثياب وبائسًا يقول له : « يا بني أنت ممكن تأخذ كاسين ويسكي تدفي نفسك بيهم » ،

هو يعيش في غيبوبة وقد حدث لقاء بينه وبين « الكحيتي » الرجل الفقير المعدم ليبدو التناقض بين الطرفين على المستوى المادي ، لكن الكحيتي يحرص على أن يضع رأسه في رأس « الأليط » وهذه مصيبته ، ومن الشخصيات الأخرى « قاسم السماوي » وبلغة السينما « قماشته ضيقة » لأن الحقد الذي يتسم به مجال واحد من مجالات المشاعر الإنسانية وبهذا لا يظهر إلا قليلًا .

أبو جعورة !!

أيوجد « عمر افتراضي » للشخصية تقضيه ثم تنتهي ؟ وما الذي يمكن أن يطيل بقاءها جماهيريًا ؟

– شخصية كالمطرب طال عمرها ـ برغم أنه يضرب كل ليلة ، فالمسألة متعلقة بالفكرة ، وإمكانات حركتها الواسعة ، وتغير أشكالها وتطويرها .

هل قابلت أفرادًا في الحياة العامة استوحيت منهم هذه الشخصيات المضحكة شكلًا ومضمونًا ؟

– نعم ، أنا أقابلهم بغير عمد ، فأحيانًا أذهب لمصلحة حكومية لقضاء حاجة ما فيقول لي بعض الموظفين : في الحجرة المجاورة لنا « عبد الروتين » موجود ، فأراه فإذا هو حقًا ، وأدرك أن القراء هم الذين يحددون الشخصيات ، إلا شخصية « عبد الله » التي أمثل بها الشعب المصري ، فقد أخذتها من ساع في مكتبي شكله مصري صرف ، وهو من صعيد مصر ، فتوسمت فيه أن يكون نموذجًا لشخصية المصري ، أما كمبورة فكان يتجسد لي في شخصية ممثل اسمه « محمد شوقي » ، رجل ألعبان ، وخفيف الظل ، ونصاب في نفس الوقت .

مطرب الأخبار ، يقال أنه شخص معين أنت تقصده ؟

لا أريد أن أظلم شخصًا ما ، لأن هذا المطرب يعد في حضيض المطربين وله « جعورة » خاصة ، ولهذا يضرب كثيرًا ، فإن ألصقتها بأي من المطربين فسيكون هذا هدمًا له .

لا تريد إلصاقها بواحد منهم لأن أصحابها كثيرون جدًا ؟

- فعلًا ، هم كثيرون .

محطات فنية

علاقتك بالكاريكاتير ، متى بدأت وما هي محطاتها الرئيسية ؟

- عملت بالصحافة قبل التحاقي وتخرجي في الفنون الجميلة في دار الهلال بدأت تقديم رسوم توضيحية ، لكن أميل وشكري زيدان أعطيا لي فرصة عمل غلاف مجلة « الاثنين والدنيا » أيامها ، ورسمته بالكاريكاتير وكانت هذه بدايتي باعتبار أن لدي هذه الخاصية ، فليس أي فنان تشكيلي يجيد رسم الكاريكاتير ، لكن لابد أن يكون « الكاريكاتيرست » فنانًا تشكيليًا في الأصل ، لقد وجدت ـ دون عمد ـ أن لي القدرة في مجال الكاريكاتير منذ زمن بعيد ، وتحديدًا منذ عام ١٩٥٥ بدار الهلال .

وماذا عن المحطات الأخرى في حياتك الفنية ؟

- أبرز ما فيها أنه أتيح لي رسم ذلك الغلاف في سني الصغيرة حينها ، وكان حدثًا ضخمًا في حياتي ، بعدها عملت في معظم صحف مصر ، حتى استقر بي المقام في أخبار اليوم ، والمحطة المهمة الأخرى أني بدأت عمل الكاريكاتير اليومي الذي أرسمه منذ عام ١٩٧٤ ؛ لأن العمل اليومي له تأثير ، ويختلف عن العمل الأسبوعي في مجلة ، الجريدة لها ثقل ووزن عند القارئ والتتابع اليومي له صداه .

أتتذكر رسمًا جر عليك متاعب سياسية ، أو اجتماعية ؟

- في فترة الستينات كانت لي بعض الرسومات التي جرت عليَّ متاعب من هذا النوع ، وكان الكاريكاتير حينها يفسر ، وإذا وضع محل تفسير أو تفتيش فقد الإحساس به ، وقيمته تكمن في الانطباع الأول المباشر الطازج ، وحدثت بعض المتاعب في السبعينيات أيضًا ، أما في السنوات الأخيرة فلا يحدث هذا ، ومن المعروف أنني أتناول شخصيات كبيرة في الدولة ، دون إحراج ، أو مساءلة ، أو لوم أو حتى عتاب .

والدكتور عاطف صدقي - رئيس الوزراء - ألا يتحدث معك عن رسوماتك ؟

- ولا عاطف صدقي ، بل بالعكس ، هو مبسوط مما أقدمه .

وماذا يقول في هذا ؟

- يقول : إنه يستفيد منه .

الثنائي الضاحك !!

الثنائي : مصطفى حسين وأحمد رجب متى بدأت حكايته وماذا يعني في الصحافة والكاريكاتير ؟

- كان التقاؤنا فكرة لعلي ومصطفى أمين ، وكان أحدهما ـ حينها ـ في لندن ، والثاني في المعتقل ، لكن كان شغلهما الشاغل - حتى في هذه الأوقات ـ جرائدهم ومجلاتهم ، كانا صاحبي أمل دائم حتى في هذه اللحظات ، ويفكران فيما يمكن أن يحدث من تطوير في الأخبار إذا عادا ، وفي ثاني يوم لعودتهما من السجن ومن لندن كلماني - وكنت أعمل فعلًا في أخبار اليوم فقالا : نقترح عليك أن تجلس أنت وأحمد رجب « لتسوية » فكرة الكاريكاتير ، واتضح أن نظريتهما بعيدة فقد تركت أثرًا في القارئ ، وكانت فكرة صائبة وناجحة .

أكانت السبب في نجاح شخصياتك الكاريكاتورية ؟

- طبعًا ، بدون جدال فلو عملت وحدي بدون أحمد رجب فقد ينجح العمل بنسبة ٦٠٪ ، لكن التقاء فكر أحمد رجب مع فكري ينضج الأفكار أكثر ، ويمكن أن يصل العمل إلى ٩٠٪ أن لم يكن ١٠٠٪ وأحمد رجب كاتب ساخر معروف ، وله طريقته في تناول الأمور ، ومنذ البدايات كان لي أسلوبي الخاص - لأنني كنت أرسم قبل التقائي به - وقد حدث نوع من التأقلم والتطبيع بين أفكارنا ، لدرجة أن الكلمة الواحدة التي تعبر عن موقف ما اليوم يمكن أن تخرج من فمنا في وقت واحد .

فنحن ظللنا ١٩ سنة نلتقي يوميًا ونتبادل الأفكار ، وأرى الآن تفكيرنا موحدًا ، وسوف يكون الامتداد في نفس السكة ، أما قبل هذا التمازج فكان الموقف مختلفًا ، فلي طابعي الخاص وله طابعه الخاص فالتأقلم الذي حدث طوال هذه السنوات جعلني أكسب منه أشياء كثيرة ، وأصبح هو يملك نمط تناول الأشياء أو الدخول إليها ، وأعتقد أننا قدمنا طريقة ما ، هي الآن طابعنا ، أما من قبل فكان لي أسلوبي الخاص المختلف عن فكرنا المشترك .

الطبيخ البايت

لحظة الإبداع بالنسبة لك ، هل توفر لها طقوسًا معينة ، أم أنها تأتي حسب الظروف ؟

- العمل الصحفي جعلني أواكب عملية الطباعة ، والممارسة الكثيرة زمنيًا وفرت إمكانية التنفيذ السريع ؛ لأن المطبعة فاتحة فاها تريد أن تطعم بكاريكاتير وملء المساحات ، وخبرة السنوات الطويلة جعلتني أستطيع تنفيذ الرسم في الوقت المطلوب وبسرعة .

الكاريكاتير فن ، لكنه ليس في الأتيلييه أو الأستوديو ، أي يحتاج إلى أن أتمهل

وأبحث فيه وأفكر في العلاقات اللونية والظلال والنور وغيرها ، إن الكاريكاتير فن إعلامي سريع ، أما اللوحة فلها مراسم خاصة وطقوس ، لأني أتناول فيها أسلوبًا فنيًا خالصًا من علاقات لونية وظلال وأضواء ، تكوينات محسوبة ، أسلوب متميز ليضمن التفرد وأنا في الأساس مصور ، وهذا التمهل والتأني الآن غير موجود ؛ لأن العمل في الصحافة أكلني وجعلني متمرسًا فيه وأضحى هو طابعي .

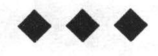
بعد أن ترى عملك منشورًا ، هل تضحك منه ؟

- الطبيخ « البايت » طعمه في فم آكله ، فلا أفاجأ بما أرسمه ، والكاريكاتير تأثيره في مفاجأته ، أو أن تقرأه ثم تجد آخره شيئًا غير ما توقعت ، فهذا يثير الضحك أو الابتسامة على الأقل ، لكن لأنني مسبقًا أعرف النكتة فلا أضحك إلا إذا كانت صارخة جدًا ، ولهذا ظرف خاص ، فيمكن أن نجلس أنا وأحمد رجب نضحك عليها لفترة طويلة لأنها « فاقعة » جدًا ، أما الغالب فأنا متوقعها وأعرفها .

ذبح الأزواج !!

حرية الفنان ، والزواج ، من خلال تجربتك الشخصية هل هما متناقضان ؟

- هذا يتوقف على الزوجة لا على الزوج نفسه ، فهناك زوجة لا تقيد الزوج فقط ، بل تذبحه ، وأخرى تعطي للزوج حرية مطلقة إذا كانت واعية وفاهمة لطبيعة عمله ، وهي تساعده في أن ينطلق أكثر ، وإذا كان هناك ود بين الطرفين فسوف تدعمه .





بوسطجي النكد والحب

محمد حاكم

- الكاريكاتير خروج على القانون !!
- دفنت المرأة النكدية ، فالناس لا تحب النكد !!
- « سي السيد » يدخل تحت السرير ، من حماته !!
- لكي يزدهر الكاريكاتير ، لابد من الحرية .



رغم أن آراءه كلها تخرج من الأعماق لتدخل إلى الأعماق سواء أكان التعبير عنها بالكلمة أم بالصورة ، ينقل إليك كل الانفعالات : السرور ، والرضا ، والغضب ، والوداعة من بين بسمة شفتيه التي لا تجف أبدًا ، وليس لكلامه موانع ولا قواطع ، وإن كان لا يقول إلا ما يرغب في قوله ، رغم ذلك كله فقد لففت حوله كثيرًا ليحدثنا عن خصوصياته ، وزوايا الظلال العاطفية في حياته ، فكان مدركًا لما أقصد ويحيد عنه في دبلوماسية !!

لكنك - رغم ذلك - إذا جلست معه ساعة ستضحك خلالها ساعتين ، قلت للفنان محمد حاكم :

اثنان من كبار رسامي الكاريكاتير من أسرة واحدة هما أخوك الأكبر حسن حاكم وأنت ، هل الكاريكاتير وراثة أم أنها مهنة مربحة ؟

- قال : لا يوجد شيء من فراغ ، الحياة تبنى لبنة فوق أخرى ، وكل منا يفيد من خبرة سابقة ، لكن له خبراته الشخصية التي استقاها بنفسه من مختلف المواقف ، فإذا لم تكن مؤهلاتي الكامنة بداخلي تنحو في اتجاه فن الكاريكاتير ما كنت قد أفدت من « حسن » شيئًا ؛ لأن المؤثرات الخارجية أضعف من المكونات الأساسية .

(أول اعتراف)

لقد كنت صغيرًا أرى أخي الأكبر « هو يسبقني بستة عشر عامًا » وهو يرسم ، فأتفرج عليه ، ولي أخوة آخرون ليسوا رسامي كاريكاتير مثلنا ، وهذا التأثر الخارجي دفعني إلى الأمام بعض الشيء ولم يخلقني ؛ لأن حسن حاكم لم يكن يريد أن أرسم ، وهذا اعتراف أدلي به للمرة الأولى ، إنها مسألة حساسة ، وإذا تعاملت مع إنسان من الخارج ترى إيجابيته فقط ، لا ترى سلبياته ، وإذا سمع أنني أصرح بعدم رغبته في أن أخوض هذا المجال يقول : « الواد ده كداب » !

حقًا كان يشجعني ـ بداية ـ في الرسوم ويشتري لي بعض أدواته ، وذلك لأنه يحب الرسم ، لكن رغبت في دخول كلية الفنون الجميلة رفض هذا المطلب ، قلت له : إن هذا هو الطريق الطبيعي الذي خضته أنت من قبلي ، قال : ماذا تفعل بها ؟ هل تعمل بالصحافة « يعني إيه تشتغل في الصحافة » .

هكذا كان نص كلماته ، وقد أيده في هذا الموقف صديقه القديم مصطفى حسين .

انتسبت للكلية بعد ذلك أثناء دراستي للآداب ، لقد كان مجموع درجاتي في الثانوية العامة يلحقني بأرقى الكليات كالاقتصاد والعلوم السياسية مثلًا ، لكني رفضت هذه الكلية وقررت أن « ألف » من الخلف وهما غير منتبهين ، والتحقت بكلية الآداب ـ قسم الصحافة ـ وقد تعمقت في مجال الصحافة نظريًا تعمقًا كبيرًا من خلال قراءاتي ، وأنا قارئ جيد ، ولي ملاحظات على هوامش جميع الكتب التي أقرؤها في مختلف المجالات وإن كان اهتمامي الأكبر ينصب على اتجاهين : تاريخ الديانة اليهودية ، فلابد أن أعرف عنهم كل شيء لأستطيع التعامل معهم ـ على المستوى الفني والسياسي ـ الاتجاه الثاني هو كتب الأطفال والدراسات حول الطفولة في جميع مراحلها ، ومعظم محتويات مكتبتي من هذين الفرعين .

أكان أخوك يخشى أن تنافسه في مجال الكاريكاتير ؟

لا ، لا ، حاكم في تلك الفترة كان الرسام الأول والأوحد في مصر .

من الخمسينيات وبدايات الستينيات ، وكان رسام الثورة الأول رغم وجود صلاح جاهين في الأهرام ، وكان هو وقتها في المساء .

كانت مواقفه هذه ليست ممالأة للثورة ، بل إحساس بها ، وبأسباب قيامها وتوجيهاتها ، ودوافعها ، فحينما كنا نقيم بمحافظة الشرقية ، وكان أبي ضابط شرطة بالديوان الملكي ـ لم يكن يمنعنا من الاختلاط بالفلاحين ، رغم أنه يمثل السلطة ،

وكنا نحبهم ولست أدري أكانوا يحبوننا أم لا ـ فأصبح أخي حاكم عارفًا بهموم هذا الشعب وطبقاته المرهقة ، وبرغم كتابة يوسف إدريس عن « العسكري الأسود » وجبروته ، وكتابات الشرقاوي عن السلطة والشرطة واضطهادها للفلاحين ، فإن أبي لم يكن من هؤلاء الظالمين ، وكان شذوذًا عن القاعدة .

فرجل مثله ما كنت أصحو من النوم ليلًا إلا وأراه جالسًا يصلي ، لا يمكن أن يضطهد الضعفاء ، فهذه التنشئة جعلت حسن قريبًا من الشعب ، وفي الوقت نفسه عارفًا بمهازل الملك وحاشيته من الداخل ، عن قرب فأحسن التعبير بعد ذلك عن هذه الحالة وأجاد في وصفها كاريكاتوريًا .

وإذا كان أخي في هذا المستوى من المكانة الإبداعية ـ بل والجماهيرية ، لدرجة أنه كان يسير في الشارع فيشير إليه الناس أيام عنفوان الصحافة قبل استيلاء التليفزيون على بعض المساحات منها ودوره في صناعة النجوم ـ إذا كان أخي هكذا ، فقط نظر إلي على أنني لن أضيف جديدًا ، وكان ينظر هذه النظرة إلى كل رسامي مصر ، رغم أنه كان أصغر منهم سنًا ـ حينها ـ لا لأن أولى الأمر أعطوه مكانًا يرسم فيه ويستعرض قدراته ، بل لأن « يده متينة » حتى الآن ، وفي رأيي أنه من القلائل الذين يجيدون هذا الفن ليس في مصر وحدها بل في المنطقة كلها .

البوسطجي

سمعت رأيًا من أحد رسامي الكاريكاتير بأنك أعمق منه ، فهل ترى هذا الرأي ؟

- غيبة حاكم الطويلة في الكويت جعلت الناس في مصر ينسونه ، ولأجل ذلك بعد رجوعه تلاحظ في مجلة « كاريكاتير » أن اسمه في الإعلانات يقال « حاكم الكبير » فهناك حاكم موجود فعلًا ـ هو أنا ـ والجار أولى بالشفعة لكن لي سكة أخرى مختلفة عنه ، وعن غيري ممن ينضوون تحت جناح مدرسة « روز اليوسف »

التي تعد فريدة في مجال الكاريكاتير .

ظللت عدة سنوات ترسم كاريكاتير « البوسطجي » في « صباح الخير » وكانت حوله حكايات من القراء ، هل تتذكرها ؟ لماذا توقف ؟

- كان البوسطجي باب ثابتًا على مدى عدة سنوات ، ومن المعروف أن « صباح الخير » كروز اليوسف قائمة على الكاريكاتير ففي كل صفحة رسمة أي صورة أو « خربشة » .

وكنت أرسم البوسطجي في مربع أسبوعي ، وأركز فيه على رسائل الحب بين الرجل والمرأة ، باعتبارها أقرب إلى الذات والوجدان ، وبعد أن أصبح الحب مطاردًا في بلادنا بدافع النهم الاقتصادي وصراع البقاء ، حتى إن الجار لم يعد يعرف جاره ، وإذا رآه بالصدفة لابسًا ربطة عنق سوداء يقول له : ماذا حدث ؟ فيرد : أبي مات منذ ثلاث سنوات ، وحتى في العيد حين سكنت هنا ــ بالهرم ــ لأول مرة ، قلت للناس : كل سنة وأنتم طيبون ، فكانوا ينظرون إليَّ باستغراب ، لأنهم لا يعرفونني ، ولا أعرفهم فكيف أتمنى لهم السعادة وطيب الحياة ؟

كنت أركز على معالجة قضية الحب هذه بين الناس ، وإذا رسمت الفتاة حزينة منفردة كان القراء يرسلون إليَّ خطاباتهم متسائلين : لماذا أغضبت البنت وتركتها وحدها ؟

وقد ظل هذا الباب فترة طويلة ، ثم أغلقته لأسباب داخلية متعلقة بالعمل في المجلة حينذاك ولأقدم ما هو جديد .

(النكدية)

ألم تقدم أبوابًا أخرى على هذا النمط بعد توقفك عن « البوسطجي » ؟

- قدمت رسمًا أسبوعيًا ثابتًا عن المرأة « النكدية » التي تتفنن في إيذاء زوجها

بلسانها السليط وحركاتها المستفزة .

ألا تتذكر بعضًا من طرائف هذه الشخصية ؟

- في إحدى سفريات زوجها إلى خارج القاهرة قالت له : « ما تنساش يا منيل تبقى تكلمني كل يوم في التليفون علشان أنكد عليك شوية » ، ونوت الذهاب إلى السوق وهو نائم فأيقظته تقول له : « اصحى يا منيل ، أختى ها تتصل بيك بعد ثلاث ساعات تنكد عليك علشان أنا مش راجعة إلا آخر اليوم » ، وظللت أرسم هذه الشخصية حوالي أربع سنوات ، ثم توقفت عنها .

لماذا توقفت ؟

لأنها نكدية ، والناس لا تحب النكد ، وقد وصلت إليَّ رسائل كثيرة تقول : هل «الستات » فقط هن النكديات ؟

إن هناك رجالًا نكديين أيضًا ، وفي آخر مرة ودعت فيها النكدية رسمت قبرًا ، وزوجها يبكي إلى جانبها بحرارة ويقول لها : « سيبتيني لمين يا غالية ينكد علي ؟ » .

أي الشخصيات الأخرى عالجتها غير هاتين الشخصيتين ؟

- الشخصيات الكاريكاتورية نوعان ، شخصية موقف مثل البوسطجي والنكدية ، وشخص مجسم كالموظف مثلًا ، وكلا النوعين مقبول من الناس ، والنكدية هذه كنت في كل مرة أرسمها بشكل مختلف ، لكن ترى فيها دائمًا دواعي النكد ، وبعد رسائل الناس الكثيرة احتجاجًا على تصوير النكد في صورة المرأة ، رسمت شخصية اسمها « سي السيد » وبه بعض مواصفات شخصية نجيب محفوظ الروائية لكنها ليست نقلًا حرفيًا منها ، شخصيتي رجل كل همه أن يأكل ويشرب وينجب أطفالًا « وينكد » على زوجته « الغلبانة » بمجرد أن تقول له : « أمي تدق على الباب » ، يدخل تحت السرير ، فهي قد قهرته من أول يوم زوجته فيه ابنتها .

(العيب ... فيمن ؟!)

لمن تضحك أكثر ، عادل إمام أم مصطفى حسين ؟

- الكاريكاتير مختلف عن النكتة العادية ، ليست مهمته الإضحاك ، بل السخرية ولأجل هذا كان أول منشور يصدره نابليون بمجرد احتلاله الإسكندرية هو المتضمن قوله : « إياكم وحديث المساخر » ، أي النكتة والتعليقات الساخرة .

والسخرية لا تعني الضحك ، وإذا كانت هذه مهمتنا فيمكن أن أدعو شخصًا ، يزغزغني لأضحك وأستغني عن الكاريكاتير .

الكاريكاتير صحافة الغد ، ما تعليقك على هذه العبارة ؟

- هو ليس صحافة الغد ، ولو فرضنا أنه يكون كذلك فلابد أن يوضع إلى جانبه بند كبير جدًا اسمه الحرية ، ليس من السلطان فقط بل من رؤساء التحرير أيضًا ، ومن الجماعات خارج السلطة ، وهي جماعات غير منظورة .

فإذا كان الفنان يرسم وفي ذهنه أن هناك ردود فعل سيئة لعمله ، فهو يحجم نفسه بنفسه ، وإذا حجم نفسه فلن يبقى منه ما هو ذو قيمة ، والكاريكاتير مهم جدًا في مجتمع كمجتمعنا ؛ لأنه يكشف العيوب ، لكن هل كل الناس - بمن فيهم رؤساء التحرير - لديهم الاستعداد لقبول هذا ؟ فإذا قلنا : أن الصحافة تسير برجلين اثنتين إحداهما عرجاء فستكون هي الكاريكاتير لا لأنه مقصر بل لأنه يخشى منه ، الدليل على ذلك كل الجرائد اليومية في مصر ، فرساموها لا يناقشون قضايا مهمة ، بل مشاكل هامشية ولا نعرف سبب هذا أهو عيب في الرسام أم في سياسة الجريدة أم رؤساء التحرير : لا أدري !!

إنهم لا يعيشون مشكلة أساسية إلا إذا تكلمت الحكومة ، فمثلًا إذا تحدثت عن

البوسنة والهرسك تحولوا إليها ، وإذا تنبهت للصومال اتجهوا بريشاتهم إليها ، وإذا عولت الحكومة على الانتفاضة الفلسطينية اهتموا بها ، وهكذا !!

أما الشائع لديهم فهي رسوماتهم فمسائل كانتخابات النادي الأهلي ـ مثلًا ـ وكم من الناس التي تهمهم هذه الانتخابات ، خمسة وعشرون ألفًا ؟ أين هم من عشرات الملايين ؟؟ وماذا تفيد الانتخابات الرياضية هذه الطوابير الواقفة في انتظار الخبز ؟ وليس لازمًا الحديث في السياسة بشكل مباشر ، فمشكلات الكهرباء والماء يعانيها ملايين المواطنين ، ويمكن تناولها كاريكاتوريًا ، وقد فعلت هذا في أكثر من رسم منها : أن « محصل » كهرباء طرق باب أحد المنازل ليلًا فخرجت صاحبته حاملة في يديها « لمبة كيروسين » تضيء بها ، فقال لها : « مهما تعملي ، عليك فلوس كهرباء » .

ولأجل حريتنا في التناول ، وصدقنا ، وصراحتنا في روز اليوسف يتردد أي مسؤول بالجرائد القومية في اختيار أي منا للعمل فيها ويقول : إننا « بتوع مشاكل ، ولبط » ، ونحن في رأيهم خارجون على القانون .

أي عينيك ... تختار ؟!

لو خيرتك بين أن تكون كاتبًا كبيرًا في صحيفة ورسام كاريكاتير ، فأيهما تختار ؟

- أختار الرسم ، فيه أستطيع أن أقول ما أريد وأؤثر ، فالكاريكاتير لو وضعته إلى جانب مقالة لأعظم كاتب فسوف تنظر الناس إلى الرسم ، كان القراء يفتحون الأهرام على رسومات صلاح جاهين .

أخذت من السودان الاسم والجنسية ، فماذا أخذت من مصر وبقية العرب ؟

- باقي حياتي ، كل الحياة .

لو خيرت بين المرأة والكاريكاتير ، فماذا تختار ؟

سؤال صعب كمن يقول لك : أي عينيك تختار ؟ أتختار التنفس أم الأكل ؟ لكن لو ذكرت لي الطفولة لقدمتها على كل شيء حتى الرسم .

لو رسمت بورتريهًا على أي شيء من الملامح البشرية تقع عيناك أولًا ؟

- البورتريه له مواصفات ، ليس شرطًا أن يكون الفنان رسامًا مجيدًا ليرسم البورتريه جيدًا ، لأن المدخل لرسم البورتريه روح الشخص المرسوم ، لأجل هذا حين أرسمه أتأمل في عدة صور للشخص في حالات عدة ، وأعايشها في إمعان ، ثم أبعدها عني ، وأتمشى في الشارع أعيش معه في الحركة ، أي أتمشى معه ، وأشرب الشاي وأقرأ الجرائد وهو إلى جانبي ، ثم أبدأ بعد ذلك في رسمه .

فمثلًا حين رسمت إسحق رابين ، من خلال الصور التي شاهدتها له ، وفكري عنه وعن خلفياته السياسية ، واختيار أمريكا له على غير ما يعرف الكثيرون حين رسمته قدمت صورة شرير لا مسالم .

◆◆◆

رسام الغلابة

محيي الدين اللباد

- الفنان الحقيقي لا يأكل على مائدة أي سلطة !
- أنا ضيف على الكاريكاتير !!
- أصبح عندي الوقاحة لتولي القيادة الصحفية في سن مبكرة .
- ما زلت أعتبر نفسي ، رسام كاريكاتير ، هاويًا .





الفنان اللباد ، رسام الغلابة ، مع سبق الإصرار والترصد ، ويقف على قمة شامخة من الإبداع التشكيلي ، رسم الكاريكاتير ، وتصميم الكتب والمجلات ، ورسوم الأطفال والتأريخ للفن التشكيلي أيضًا ، ورغم أن هؤلاء الغلابة الذين أفنى حياته تعبيرًا عنهم بالكلمة الباسمة ، والخطوط الساخرة قد لا يعرفون عنه شيئًا ، وقد لا يكون بعضهم شاهد أو قرأ له كثيرًا أو قليلًا !! وهو يعد نفسه واحدًا منهم يعرض قضاياهم بريشته ثم « يأكل من بيته » لا من رسوماته !

سألته :

في طريق الفن عثرات كثيرة وحواجز ، كيف قفزت واحدًا تلو الآخر في شوطك الطويل مع فن الكاريكاتير ؟

- علاقتي بدأت بالرسم المطبوع في سن قبل القراءة ، وهذه سمة مهمة للكاريكاتير ، إنه يحمل موقفًا وفكرًا يؤدي خصيصًا للطباعة ؛ لأن هناك رسومًا كثيرة ولا تعد للطباعة ، ولذلك تطور الكاريكاتير بتطور الطباعة ، فحينما كانت بالحجر قديمًا ، ثم بالأكليشيهات المعدنية ، ثم بعد ظهور الأوفست كانت تحدث في كل فترة تطورات وتغيرات مماثلة في الكاريكاتير ونحن في انتظار ما يسفر عنه الكمبيوتر إذا كان سيحل محل الطباعة ، وستصبح لدينا خلطة جديدة بين الكمبيوتر والتليفزيون والصحافة ، وقد احترفت رسم الكاريكاتير قبل نهاية المرحلة الدراسية الثانوية ، فنشرته بانتظام وتقاضيت عنه أجرًا ، حتى دخولي كلية الفنون الجميلة كان بدافع صقل هذه القدرة وليس بنية أن أكون مصور لوحات زيتية .

وقد مرت لي صعوبة تمثلت في اشتغالي بعدة مهن فنية فرضتها ظروف عامة .

فخضت مجال رسم الكاريكاتير والرسم للأطفال وتصميم الكتاب ، والمجلة والخط العربي كان هذا يبدو أحيانًا في سن قبل الثلاثين أنه خبرة خاصة تتوازى أو

تتقاطع لكن العلاقة بينها لم تتضح بعد وكانت هناك تساؤلات عن أنني ألبس « قبعة » في كل فترة أمارس فيها عملًا مختلفًا أتصور أنه يريح الإنسان ويرضيه أن يوجد بين جميع المصادر الأساسية لكل هذه التوجيهات ، وأن يكون هو نفس الشخص بنفس خبراته ومواقفه .

شمس جديدة

لو تذكرت مجموعة من الأسماء في حياتك الأسرية والعامة والفنية فمن تتذكر ؟

- الأسرة في بداية نشأتي قدمت نوعًا من السماح البسيط الذي كان يتخلله نوع من الزجر ، بحجة أنني أضيع الوقت في قراءة الصحف والكتب ، لكن هناك من أثروا فيَّ بشكل مباشر وبعيدًا عن محيط الأسرة ، ومنهم حسن فؤاد وحسين بيكار ، ثم صلاح جاهين وجورج البهجوري هؤلاء جميعًا اهتممت بهم وهناك غيرهم أيضًا لكن هؤلاء في المقدمة .

بيكار درس لي في الفنون الجميلة، والأهم من هذا أنني كنت صغيرًا حينما صدرت سندباد حاملة رسوم بيكار سنة ١٩٥٢ ثم تعرفت على كتب أشرف حسن فؤاد على تصميمها وإخراجها في عامي ١٩٥٥و ١٩٥٦ ، في هاتين الحالتين أحسست أن كلًا منهما شمس جديدة أشرقت .

وماذا عن محاولات التثبيط التي واجهتك من أسرتك في الصبا والبدايات ؟؟

أنا من أسرة ريفية من دسوق مركز كفر الشيخ، وفرض عليَّ أن أكون أول قاهري في العائلة فقد كان ميلادي بها وكان أبي أستاذًا بالأزهر، وهو أول من تعلم خارج القرية، وتخرج في الأزهر من أسرته فليس لدينا سوابق لهذه المهنة ومدى الإحساس بجديتها واحترافها في الأربعينيات ـ وأنا من واليد ١٩٤٠ ـ وقد عانيت أيضًا من أحادية الفهم لدى الأسرة المصرية المتمثل في ضرورة تفوق الابن ، وحصوله على المركز الأول في

المدرسة والجامعة، ثم يتخرج الابن ليعمل موظفًا ملتزمًا وكلها توجهات وخطوات لحساب المؤسسة العائلية نفسها لا لحساب الفرد .

من الأول إلى الثامن !!

وقد كنت الأول على زملائي في مراحلي الدراسية المبكرة، ثم أحسست بالحصار الأسري الشديد لأبقى الأول دائمًا ، لا لحسابي بل لحسابهم ، فمللت وتراجعت متعمدًا من الأول إلى الثامن، وكنت في سن الثالثة عشرة وبعد هذا التراجع أحسست أنني تحررت من هذا النضال الوهمي .

وحتى الآن لدي نوع من التحفظ على مسألة الأول هذه، ولا أحب أن يكون أولادي من الأوائل لكن لا يكونوا مهملين أو متخلفين .

وكانت هذه الرغبة لدى الأسرة في تفوقي تدفعهم إلى التململ من شرائي للكتب والمجلات، وانكفائي ليل نهار، وقد أفادني كثيرًا في البدايات أن أبي لم يكن يستطيع الحكم على هذا النوع من النشاط « فن الكاريكاتير » من الوجهة الدينية والاجتماعية ، وبالتالي تركني لوحدتي، وكان هذا من حسن حظي ، ومن سوأ حظ ابني الذي دخل الكار وأنا موجود فيه ، لأن هذا قد يعني نوعًا من الرقابة عليه .

ارتكبت جريمة

أين كانت بدايات نشر أعمالك الفنية ؟

- كان أول ما نشرت في مجلة التحرير التي كانت تصدر عن دار التحرير وبدأت برئاسة تحرير ثروت عكاشة، ثم سامي داود ، أعطتني صفحة عام ١٩٥٦ وعمري ١٦ عامًا تقاضيت عنها أجرًا وأنا ما زلت تلميذًا بالمدرسة الثانوية .

بعد هذه المرحلة اجتذبني بيكار إلى مجلة سندباد التي كان يرأس تحريرها سعيد

العريان فتحولت من قارئ رسام إلى رسام محترف في سن الثامنة عشرة وأشركني في تغيير التصميم الأساسي للمجلة الذي كان قد أخرجه هو من قبل .

وقد ارتكبت جريمة أحسبها على نفسي وهي أنني اشتركت في وضع تصور لهذه المجلة لتنتقل إلى مجلة تجارية تجاري الذوق العام، وليزيد توزيعها في مواجهة منافسيها في ذلك الوقت مجلة سمير ومجلة ميكي وفي ١٩٦١ دعاني صلاح جاهين للعمل في روز اليوسف كمتعاقد ثابت قبل تخرجي بسنة فبدأ لي اهتمامان أساسيان هما الكاريكاتير والرسم للأطفال .

وفي سنة ١٩٦٣ انتدبتني دار التحرير وكانت تعد لإنشاء مجلة أطفال في حين كانت مجلات الأطفال بمصر إما أجنبية أو مقتبسة وليست عربية أصيلة، وكان سيل المجلات القادمة من لبنان في طبعة عربية وفكر أمريكي قد بدأ يزداد مثل مجلة سوبرمان وطرزان فولدت لدينا فكرة عمل مجلة للأطفال عربية مصرية شكلًا ومضمونًا ، قد صممت هذا المشروع وصدرت المجلة باسم كروان وطلب مني ترشيح رئيس التحرير وكنت مدير التحرير قبل انضمامي لنقابة الصحفيين، فاقترحت اسم نعمان عاشور، فعين رئيسًا لتحريرها، ولم تنجح هذه المجلة تجاريًا لكنها في الحقيقة سجلت جزءًا مهمًا من التراكم المحلي في مجال الكتابة للأطفال وخرجت عددًا كبيرًا ممن أصبحوا متفرغين ومتخصصين في هذا الموضوع وأثرت ـ رغم أنها لم تصدر إلا أربعين عددًا تقريبًا ـ في سياسة واتجاهات المجلات الأخرى التي كانت موجودة، وأصدرناها لنضرب لهم مثلًا بها، وفي الوقت نفسه قدمت لي خبرة لا بأس بها وأصبح عندي الوقاحة لأن أتصدى لقيادة بعض المشروعات الصحفية في سن مبكرة .

رسام البعض !!

الفنان محيي الدين اللباد رسام الغلابة ، ما تعليقك على هذه المقولة ؟

- أنا أعتبر نفسي من الغلابة الذين ذكرتهم، وأنا أيضًا صانع كتب الغلابة ورغم ذلك لم أفكر في هذا أبدًا لكن ما أستطيع التأكيد عليه هو أنني لا رسام مؤسسات كبرى ولا رسام البنيات القوية كالحكومة مثلًا .

وبالتالي فأنا رسام للوجه الآخر : للشعب وأتحمس أكثر لتحقيق دور ما لدار نشر صغيرة تحاول أن تزاحم من أجل البقاء وسط غابة صراع الكبار وأشارك أيضًا مع كاتب ليس نجمًا، وليس أنيس منصور ولا إحسان عبد القدوس ولا يوسف إدريس ، لست أدري أهذا اختيار مني أم أن طبيعتي هكذا .

كما أنني لا أسعى لأن أكون فنان الجميع فهذا ما تحدده الطبيعة نفسها، وليس قرارًا من أجل أحد، والتكوين لدي أدى لأن أكون رسام البعض، أي هناك من يتابعه ويتقبله ويحسن الظن به، وآخرون يستخفون بعمله، ولا يرونه حسنًا ولو خيرت لاخترت أن أكون رسام الغلابة دائمًا وبرضا كامل لا كجمهور لأن هؤلاء الناس بعيدون عن القرار والقراءة، وفرض النجم لكن أؤدي موقفي لأكون معهم ومعبرًا عنهم حتى لو لم يعرفوا هذا أو يقدروه، لأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا ثمن موقفنا .

الخواف !!

اسم اللباد ، ماذا يعني ؟

- تصورت أنه صانع اللبدة أي طاقية الفلاح القديمة لكن أبي كان قد قال لي : أن أصل عائلتنا من المغرب، وقدم لي كتابًا للعقاد فيه ذكر أحد العلماء المغاربة الذين هاجروا إلى مصر وكان بنفس اللقب .

ومنذ فترة قليلة كنت أفتش في فهرس الأعلام بدار الكتب فوقعت يدي على أفيش باسم عبد الرحمن بن اللباد من القيروان له عدة كتب، وكان عالم دين وفي المغرب الأقصى قابلت ناسًا يحملون نفس اللقب ، فالاسم لا أدري أهو صنعة أم

صفة؟ وفي ليبيا ، قالوا لي : إن هذا اللقب يطلق على الخواف الذي يلبد أو يكمن « خوفًا » !!

وحتى الآن يخطئ الناس في اسمي بين اللباد واللبان ، واللبودي ، واللبابيدي وكنت أوقع باسم العائلة حتى خمس سنوات مضت حين تخرج ابني في الفنون الجميلة ، وهو في المهنة نفسها ، ويحمل نفس اللقب ، ولذا أضفت اسمي الأول ووقعت محيي اللباد ويوقع ابني الآن اسمه ثنائيًا .

ومتى دخلت عائلتك مصر ؟

- لا أدري على وجه الدقة لكن لنا حوالي سبعة جدود ولدوا في مصر ، ومنطقتنا في شمال الدلتا ـ مركز دسوق ـ فيها هجرة مغربية كثيفة وفي لكنة قريتنا شباس الملح شيء من الغرابة من لهجة المغرب ، كالإمالة الشديدة في الكسر والتخفيف والتصغير .

لو عرضت عليك أحد رسوماتك وأمامك رسومات أخرى لفنانين مثل حسن حاكم ، وبهجت عثمان ، ومصطفى حسين ، وأحمد طوغان فأين تضع رسمك بين هؤلاء على المستوى الفني ؟

- أغلبهم زملاء أحترم عملهم وأقدر قيمته ودور بعضهم التاريخي والسياسي والفني ، وكل واحد منهم يمكن أن يوجه إليه ملاحظات ليس هذا محلها ، لكن لاحظ أن هؤلاء جميعًا أكبر مني سنًا ربما بعشر سنوات أو أكثر .

مصطفى حسين في سنك .

- هو أكبر بحوالي ثلاث سنوات على الأقل .

أظن من الناحية السنية أحمد طوغان أولًا ثم حاكم ثم بهجت .

- نعم ، وما أتمناه أن أعوض فارق السن بيني وبينهم تعويضًا فنيًا وهناك فارق

آخر بيننا هو أنني قد أرى نفسي رسام كاريكاتير هاويًا ، لست محترفًا تمامًا .

إنني بدأت حوالي ١٩٥٦ ، فالفارق بيني وبين طوغان - زمنيًا - كبير .

هو بدأ عام ١٩٤٢ ؟

- نعم أما بهجت وحاكم ومصطفى حسين فقد بدؤوا ينشرون في منتصف الخمسينيات ، وبالتالي فالعمر الفني بيني وبينهم ليس كبيرًا ، لكنني لم أعط ولائي للكاريكاتير لظروف كثيرة ، ولا حتى لجريدة محددة ، وكنت أجرب على مدى فترة طويلة ، ولم يكن هناك مكان متسع لمثل هذا التجريب في الصحف ، وأحيانًا أعتبر نفسي ضيفًا على المهنة .

أزمة سينيه

وبالمناسبة أرى أن « أكل العيش » بالكاريكاتير مسألة صعبة ، وليست مقنعة بالنسبة لي ، وليس من الممكن أن يعتمد الإنسان في معيشته على مهنة أساسها - كما أفهم - الرفض والهدم ، وأتصور - حسب المثل الشعبي - أن الإنسان يرسم الكاريكاتير ويأكل من بيته أي من مهنة أخرى ، وهذا ليس اختراعي ، بل اكتشفت حين تعرفت على عدد من رسامي الكاريكاتير المهمين في الخارج - وخاصة فرنسا - أصحاب المواقف المعارضة اعتمادهم في المعيشة ليس على الكاريكاتير .

ففي سنة ١٩٧١ أول مرة أرى فيها أوربا ، وكنت أتابع رسامًا فرنسيًا عجيبًا وليس تقليديًا اسمه سينيه ، ولدي كتبه حينها ، وكانت تباع في مصر ، وحين زياراتي تلك لفرنسا عرفت إقامة معرض له في أحد المطاعم ، وذهبت لمشاهدته ورأيت سينيه فطلبت أن أجلس معه بعيدًا عن الزحام بعد المعرض ، فطلب عنوان إقامتي في « باريس » ليزوروني أنا وصديقي الرسام السوري .

وفي اليوم التالي قدم إلينا هو وزوجته المصورة الفوتوغرافية على « موتوسيكل » ، وسألته : أين تنشر أعمالك ؟ فقال : قل لي عن جريدة فرنسية تنشر أعمالي وأنا أنشرها ، ولم يكن متصورًا لي أن الرأي يحارب أيضًا في فرنسا ، ويمنع صاحبه بسببه .

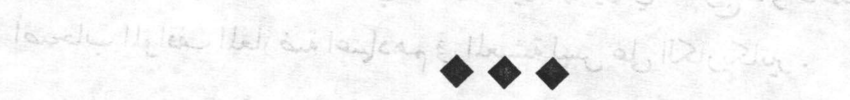
وسألته : من أين تعيش ؟

قال : أعمل في شركة النفط الجزائرية مصمم مطبوعات ، وكان سينيه هذا عضو جبهة التحرير الجزائرية ـ رغم أنه فرنسي ـ وكان يزيف لهم جوازات السفر والوثائق ومنحازًا جدًا لتحرير الجزائر .

وكان نجمًا في أول ظهوره حتى اتخذ هذا الموقف الإنساني فحورب ، ومنع من جميع الصحف الفرنسية ولم يتزحزح عن موقفه .

لكن في مصر الآن أصحاب ملايين من رسامي الكاريكاتير .

- أشك في أن تكون هذه الملايين من الحرفة نفسها ، ربما من شيء يشبه بالكاريكاتير ، وليس له تأثير في أحد ، ولا يصح أن يأكل رسام الكاريكاتير على أكثر من مائدة ، ورأيي ألا يأكل أصلًا على مائدة ، بل يأكل في بيته من مهنة أخرى ، في عصر تعقدت فيه المساحات المشتركة في الرأي بين الإعلام والسلطات الحاكمة .



الفنان

إسماعيل دياب

- رسمت أول لوحة ، في الخامسة من عمري ،

ونلت « علقة ساخنة » !!

- أبي الأزهري اعتبرني فاجرًا فاسقًا وحلق شعري !!

- هذا الزمان ، قضية الكاريكاتير « دقي يا مزيكا » !!

- ليس رسامًا كل من يعري ساقًا ويشوه وجهًا !!



قد تظنه للوهلة الأولى ممثلًا تراجيديًا ، أخذ من نجيب الريحاني بعض ملامحه الحزينة ، وترك له تقاسيمه السارة ، ويتلبسك هذا الانطباع وأنت تسمع مطالع كلامه ، أما إذا تواصلت معه دقائق فسترى نفسك ـ بغير شك ـ أمام ساحر عظيم ؛ لأن سخريته ملفوفة في ورقة شفافة أنيقة نظيفة ، كلامه كاريكاتير فيه بساطة الفلاح المصري ، وتدفق نهر النيل ، وبدا لي أن فيه أيضًا طفولة .

حين جلس يحكي كيف « فتن » عليه زميله في كُتَّاب القرية ـ وعمره خمس سنوات ـ فقال للشيخ : « الواد إسماعين رسمك يا مولانا زي البقرة » ، حين استرجع معي هذه الحادثة الطفولية لم أرَ فارقًا كبيرًا بين « الواد اسماعين » والفنان الكبير « إسماعيل دياب » ، فالصفاء هو هو ، والحميمية ، وتلقائية الفن ، وكذا كل الموهوبين : أطفال في صورة شيوخ .

قلت له :

فن الكاريكاتير بالنسبة لك حرفة و« أكل عيش » أم هواية ، أم قضية ؟!!

– قال : في البداية كان هواية ، ومع مرور الزمن أصبح حرفة و« أكل عيش » ، أنا أعيش الآن بصفتي صحفيًا ، وأعمل في هذه المهنة منذ عام ١٩٥٩ كمحترف ، وأصل دراستي الفنون الجميلة ، وكل خريجي هذه الكلية يفيدون من عملهم كرسامين ويعيشون منه أيضًا ، وأنت شاعر وتعرف هذه المسألة جيدًا ، فيمكن أن تصدر ديوانًا عظيمًا لا لتحتفظ به في مكتبك بل لتوزعه على الناس ، حتى يجمع ما أنفق عليه على الأقل !!

(جرس ... من الغيبوبة !!)

الحقيقة أننا ننفق عليه ولا ننال غير الخيبة ، وأراك في هذه الإجابة تستبعد الخيار الثالث وهو « القضية » التي تتبناها وتعيش لها !!

- لابد من وجود قضية ليعيش الكاريكاتير ، فهو أصلًا ينشأ في مناخ حافل بقضايا كثيرة ، لا قضية واحدة ، ويجب أن يحرص الرسام على إظهار السلبيات في المجتمع ، أما التأكيد على الإيجابيات فليس في حاجة إليه ، الإيجابيات تؤكد نفسها ، أما السلبيات فتتولد من وجود قضايا اجتماعية أو سياسية أو فكرية ، ولا تجد الحل المناسب والإجابات الدقيقة عليها ، وهذا الدور لرسام الكاريكاتير مهم لتنبيه المسؤولين إلى هذه السلبيات على الأقل.

إن الكاريكاتير جرس ينبه الناس من سباتهم العميق أو لحظة الإغفاء والغيبوبة.

لو خُيرت أن تعمل كاتبًا بأجر مجزٍ في صحيفة أو مجلة ، أو أن تعمل رسامًا صغيرًا بغير أجر ، فأيهما تختار ؟!

- ما هو الفرق بين الكاتب ورسام الكاريكاتير ؟! إن هذا الفن ينقسم إلى نوعين : مكتوب يؤدي فكرة محددة دقيقة ساخرة ، وهذا يمثله ما يكتبه زميلنا أحمد رجب والنوع الثاني يرسم ، فأنت تؤلف قصيدة جيدة جدًا ، وعليَّ أن أقرأ جيدًا وأعيها تمامًا ، وأضع لها رسمًا يناسب الكلام الرائع ، أي قطعة ورق « سوليفان » أضع فيها الشعر فألفت إليه النظر.

والكاريكاتير غير المكتوب هو أن تضع الرسم ويؤثر في أي متلقٍ : المتلقي البسيط والمتلقي العالم العظيم ، ويهمني أن أؤثر في أكبر عدد من الناس بصفته لغة عالمية ، لغة الصم والبكم ، أي كلٌّ يستطيع فهمها ، أميًا كان أم مثقفًا.

إذن في هذه الحالة - أي الكاريكاتير بدون كلام - أبلغ من مائة مقال ، إن الرسم الواحد على عامود أو اثنين أشد من عشر صفحات صحف تكتب ، قد نقول كل ما يعن لنا عن وصف حالة البلد في بيتين من الشعر تصور ما يمكن أن يقال في عدة كتب ، وكذا الأمر بالنسبة للكاريكاتير.

(لا أصلح كاتبًا !!)

أيعني هذا أنك يمكن أن تعمل رسام كاريكاتير بغير أجر ؟!

- نعم ، لأني لا أصلح كاتبًا ، أريد أن أعمل في المجال الذي أتقن ، كل يعمل في مجاله الإبداعي : شاعرًا كان أم قاصًا أم روائيًا أم فنانًا تشكيليًا ، لكن كل هذه الثقافات تصب في رسام الكاريكاتير لأن عينه وأذنه ترى وتسمع كل هؤلاء المبدعين .

إنني أقرأ لك حين تكتب ، وأقرأ لنجيب محفوظ حين يكتب ، وموسى صبري ، وثروت أباظة ، وأحمد عبد المعطي حجازي ، وكل منهم له اتجاهه وطعمه ، وأخرج من كل واحد منهم بشيء يزيدني في مجالي ، فلست في حاجة لأن أكتب ، بل أعبر بالرسم الذي لا يستطيعون هم أن يعبروا به ، حتى لو لم أحصل على أجر .

في حي من أحياء القاهرة الشعبية ، امرأة سمينة طرحت أرضًا صاحبة البيت الذي تقيم فيه ، وجلست عليها وسط الشارع حتى لفظت أنفاسها ، والناس يتفرجون على هذا الموت البطيء في سلبية كاملة !!

هذه صورة كاريكاتورية من الواقع ، وأظن الكاريكاتير أقل منها في القدرة على التعبير عن مثل هذا الموقف المأساوي والضاحك معًا ، والكاريكاتير لم يقدم قراءة لهذه الصورة وما وراءها من دوافع اجتماعية وإنسانية وعلاقات بين المالك والمستأجر ، والثري والفقير ، ألا يعد هذا مؤشرًا لتخلف الكاريكاتير عن الأحداث الخطيرة والدقيقة ؟!! وماذا لو عبرت عن هذا الموقف كاريكاتوريًا ؟!!

- هذه القضية ليست وليدة اليوم ، إن الزمان يكرر نفسه ، فشخصية « رفيعة هانم » التي قدمها أستاذنا عبد المنعم رخا كان بها أشياء من هذا القبيل : المرأة الضخمة جدًا التي تمثل كل القوى ، والرجل الضعيف زوجها بلا حول ولا قوة ،

وكانت كاتمة على أنفاسه لا وهي فوق فقط ، بل حتى وهي إلى جانبه .

وهذا الموقف يدل على عدم المبالاة التي يعيشها مجتمعنا الآن ، ولم تعد الناس تهتم ببعضها ، فنرى حادثة اغتصاب فتاة العتبة ، والخطف ، والنشل بالقوة في وسائل المواصلات العامة ، بغير مقاومة من أحد ، فالنظام العام به تفكك وخلل ، وملىء بالسلبيات .

وماذا تقول لو علقت على هذه الصورة ؟!

– يمكن أن تقدم بغير تعليق ، فالقوي يركب الضعيف وقضي الأمر ، ويمكن أن توضع تحتها عبارة : « قدر الله ولطف » !!

قدر ولم يلطف ، إنها ماتت .

– لطف لأنها لم تقم من تحتها حية ، لأنها كانت ستقتلها مرة ثانية .

سنة أولى كاريكاتير متى بدأت بالنسبة لك ؟!

وفي أي السنوات أنت الآن على المستوى الفني ؟!

– أنا الآن تحت أنظار المتابعين ، وهم الذين يحددون موقعي من الآخرين في هذا المجال ، رسام الكاريكاتير مدافع عن قضايا ، ويرى هذا العالم مسرحًا كبيرًا أو « الأستوديو » بالنسبة له ، وهو يرى ما فيه من شخوص ، ويؤدي دوره بناء على هذا دفعًا وكشفًا للسلبيات ، وتأكيدًا للإيجابيات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والفكري والسياسي ، أما أين أنا من هذا فالإجابة لدى الناس جميعًا مثقفين وغير مثقفين .

(علاقة ساخنة !!)

ومتى بدأت سنة أولى كاريكاتير ؟

– رسمت أول لوحة كاريكاتير ، ونلت « علقة ساخنة » بسببها وعمري خمس

سنوات ، حين كنت في كتاب القرية ، ولا أعرف شيئًا عن الكاريكاتير ، لكني كنت أعرف ألعاب الأطفال من أهل المدينة ـ بحكم اتصال أبي بالقاهرة ـ وكانت هذه الألعاب من آلات وعدد تفك وتركب ، والتحقت بالكتاب في الخامسة من عمري بقرية شبرا النخل ، ببلبيس ، في محافظة الشرقية ، فعائلتي هنا أصلها ، وأبي الدكتور محمد دياب ، وعمي المفكر توفيق دياب .

تربيت في هذا الوسط العلمي وبالتالي فحين كنت أذهب للكتاب كنت مميزًا عن الأطفال الآخرين ، فلا يضربني الشيخ ، وخاصة أنه يحصل على أجره من الشيخ الكبير الذي هو أبي عالم الأزهر .

وفي أحد الأيام رأيت الشيخ نائمًا ، وكان بدينًا جدًا ، وعبارة عن « قرمة » كبيرة ، رجلان تحملان كتلة لحم ضخمة ، فأمسكت بالريشة والدواة ، ورسمته على اللوح الصفيح الذي كنا نكتب عليه ، فضحك الأطفال بشدة ، وقال العريف ـ أحد الأطفال لكنه كان أكثر منا حفظًا وأكبر سنًا ـ قال : « الواد اللي اسمه اسماعين رسمك يا سيدنا بشكل وحش » ، فقال الشيخ : « كيف رسمني ؟ » ، فرد العريف : « زي البقرة » .

فهب الشيخ بعصاه وضربني ضربًا شديدًا على أرجلي ، وكان هذا أول جزاء أناله عن الكاريكاتير ، وأنا لا أعي شيئًا عن الرسم ، الذي علمته بعد ذلك حين التحقت بالمدرسة الابتدائية وحصلت على أول جائزة في رسم « المحمل » ، بعدة ألوان ، وكنت في السنة الأولى .

أي أنك رسمت الكاريكاتير قبل أن تراه ؟

- نعم ، لم أكن أعرف عنه شيئًا ، لكن عمي توفيق دياب كان يشجعني ، ويدفعني للرسم ويشتري لي أداوته .

أول رسم رأيته ، كان لمن ؟

- رأيت نماذج كثيرة من خلال مكتبتي أبي وعمي ، لكن أول رسم أثر فيَّ كان للرسام الفرنسي « ريمون » في « أخبار اليوم » وهو صورة رسمها عن السل بعنوان « يا رب اشف بابا » ، أما أول رسمة رسمتها أنا فهي رسوم الفراعنة ، ويبدو أن هذه سلسلة متوارثة عن مصر القديمة ، يخرج من ظهر الفراعنة ناس يرون - أول ما يرون - رسوماتهم ، لأنها مبسطة جدًا وتعتمد على الخط الصريح والكتلة ، وهذا يعطي فرصة للتعامل معها بسرعة ، كمن يقدم للمبتدئ الشعر الجزل ، وهو لديه الملكة فيبدأ في تقليده ، مع وجود الموهبة أصلًا .

(الصامت ... يمثل !!)

وماذا عن سنة ثانية وثالثة كاريكاتير ، ما نالك من « علقات » أخرى على نطاق أكبر ؟

- كانت مرة واحدة فقط ، وقد التحقت بمدرسة الخديوي إسماعيل الثانوية بالقاهرة ، وبدأت براعتي في الرسم تتضح منذ الابتدائية بتشجيع من حولي لكن لم أكن أعرف أهميته حتى التحقت بالثانوية ، فكانت هناك جمعيات ثقافية وللصحافة والخطابة ، وكان زميلي في هذه المرحلة الفنان حسن يوسف ، فقد التحقت بهذه المدرسة وكان هو سابقًا لي بعامين ، وكان مشرفًا على جماعة التمثيل ، وكان معي في الفصل الدراسي نفسه حسين الشربيني وقد فوجئت به حين قابلني في التلفزيون مرة فذكر لي أنه قد تخرج في معهد السينما فتعجبت : لقد كان صامتًا ولا نشاط له في المدرسة أو التمثيل مثل حسن يوسف الذي كان عملاقًا في سنه ، وقد بدأت أقيم بعض التماثيل بالمدرسة ، وأرسم لوحات هي حتى الآن تملأ معمل الكيمياء عن العلماء ، وهي مرسومة بالرصاص والفحم ، وكان يشجعني أحد مدرسي اسمه

إبراهيم حسنين خريج كلية الفنون التطبيقية بلندن ، وكان أساتذة الفنون الجميلة يمرون على المدارس الثانوية لالتقاط المواهب في مجالهم ، فتعرفت بمصطفى متولي الذي دفعني إلى الفنون الجميلة ، وكان رئيسًا لأحد أقسامها .

بعض الفنانين يختلق شخصيات كاريكاتيرية ، من خياله ، ماذا عن هذه الشخصيات في قاموسك الفني ؟!

- لي شخصية ، السبب فيها حبيبي الغالي المرحوم حسن فؤاد ، كنت معروفًا برسم ما يحدث في الريف ومظاهره ، لارتباطي به حتى الآن ، فأسرتي ممتدة جذورها في القرية ، يتعلمون في لندن ويعودون إلى الريف المصري ، وقد وقعت حادثة في قريتنا بأن أحد بكوات القرية حين مر عليه أحد الفلاحين كبار السن من أمام دواره - أي قصره - راكبًا حماره ، وكان « البك » واقفًا فوق سطح قصره ، فقال لهم : « هاتوا الواد اللي راكب حماره ده » ، فقبض عليه زبانية الإقطاعي هذا وضربوه وسقوه الماء عنوة - عدة أسطال - حتى كان يقيء ، وهم يسقونه حتى سقط على الأرض فاقدًا وعيه ، بغير ذنب إلا أنهم قالوا له : كيف تمر من أمام القصر و«سيدك» واقف أمامك ؟!!

فقال : لم يكن أحد واقفًا !! فأشاروا إلى الكلب وقالوا : ها هو ذا سيدك كان واقفًا وأنت تمر .

في كل هذه الأحداث - حوالي عام ١٩٤٨ - كنت طفلًا ، وواعيًا بعض الشيء ، ورأيت ما يحدث أمامي بعيني ، تذكرت هذه الواقعة حين قال لي حسن فؤاد : نريد تقديم شخصية جديدة ، وكان بهجت قد قدم شخصية الفراخ ، فاقترحت تقديم شخصية « محمود بك عبد الماضي » وحتى لا يغضب محمود السعدني - بعد احتجاجه - سميناها عبد الماضي ، وقد عاشت فترة طويلة بعد الثورة ، وهو يمثل

الطبقة الجشعة المتسلطة ، واستعنت بخفيره النحيف جدًا كالفتلة ، مشيرًا به إلى الشعب المطحون ، والكاريكاتير لا يعتمد على الرمز ، لكن كانت هذه أول مرة نستخدمه فيها لتقديم هذه الصورة ، وقبل هذه الشخصية اخترعت شخصية « الحمير » ، وذات مرة قدمت حمارًا خارجًا يترنح من « بار » بعد أن سكر وخرج يقول : أنا بشرب عشان أنسى إني حمار ، وكانت هذه الشخصيات تسمى « حمار دياب » .

« يتحدى .. الزعيم !! »

هل تذكر أبرز نكتة قدمتها على لسان عبد الماضي ؟!

– أشهر نكتة قدمتها عنه أن عبد الناصر حين حصل على الدكتوراه الفخرية من فرنسا غضب جدًا « عبد الماضي بك » ، وحمل خفيره « قُفَّة » كبيرة ، وسافر إلى فرنسا ليملأها دكتوراهات فخرية !! وكان لهذا الكاريكاتير وقع كبير حينذاك .

اسم « دياب » أيعود إلى « دياب بن غانم » الموجود في « السيرة الهلالية » ، والأدب الشعبي بعامة ؟!

– ربما ، والله أعلم .

وما هو الاسم الكامل ؟!

– إسماعيل جمال الدين إسماعيل دياب ، هذا ما أعرفه ، وبعده توجد أسماء أخرى « دياب » .

هل تحتفظ في ذاكرتك بشيء من حكايات عمك الأديب توفيق دياب ؟!

– كان يتكلم الإنجليزية كأحد أبنائها ، وكان واسع الصداقات ، وله ثقل أدبي كبير ، ومتمرد ، وخطيب مفوه ، ومع ذلك طيب الطوية ، وأتذكر وأنا طفل أنه كان

يهديني لعب أطفال ومنها بابور زلط ، وكنت أراه لأول مرة في حياتي .

أكان يريدك أديبًا مثله ؟!

- لا لم تكن هذه الرغبة في أسرتي ، وما كنت أجرؤ أن أجلس مع أهلي الكبار ، بل هي مداعبة لمدة ثانية فقط ، ومع ذلك فقد رأيت معظم أدباء مصر في دارنا بالحسين بالقاهرة أو بالشرقية ، رأيت عندنا عباس العقاد ، والشيخ عبد الرحمن تاج ، والشيخ أحمد شفيع ، والشيخ طنطاوي ، والشيخ عبد الحليم محمود الذي كان أقرب الناس إلى الأسرة ، ورأيت كل علماء الأزهر في ذلك الحين .

(كاريكاتير ... في السجون !!)

يلاحظ أن الشعر يزدهر في السجون ، ويموت الكاريكاتير ، هل يرجع هذا إلى صمود الشعر وقدرته على المواجهة وضعف الكاريكاتير وعجزه عن التحدي ؟!

- إن حوائط السجون مليئة برسومات الكاريكاتير ، لقد مر زهدي وحسن فؤاد بتجربة الاعتقال ، ولم يقض عليهما ولا على إبداعهما ، وقد عبرا عن قضيتهما بالرسوم داخل السجن على الأسوار ، لكن حين يخرج الفنان إلى الحرية يعبر أفضل وأكثر .

أما الشعر ففي رأيي أنه يختلف تمامًا عن الكاريكاتير ، فالشاعر يختزن عمله وخواطره داخل نفسه ، فإذا وجد الفرصة انطلق وعبر حتى ولو على ناصية شارع ، الرسام يحتاج إلى مكان يعبر فيه كالصحف مثلًا ، وإلا لظل مجهولًا ، وقد انتشرت الصحف هذا الزمان وكثرت ، وكانت على أيامنا قليلة ، ومن يدخل من باب روز اليوسف مثلًا ـ كأنه داخل إلى معبد أو إلى الأزهر بحذائه ، فتنظر كيف يكون الانطباع هنا ، المجال الآن أصبح مفتوحًا ، فضعفت قيمة الكاريكاتير ، ولم تعد بنفس القوة والحرارة التي كانت موجودة منذ ثلاثين أو أربعين عامًا مضت ، كانت

هناك أمانة في التعبير ، وهي تؤدي إلى نجاح الكاريكاتير وما يناقش من قضايا ، وأظن أن هذا متوافر فيما تقدمه من قصائد ـ مثلًا ـ لكي يحترمك الناس ما دمت تحترمهم .

الناس تظن الآن ـ بعد كثرة الصحف ـ أن كل من « يرعش » خطًا فقد « عمل » كاريكاتيريًا ، وكل من يعري سيقانًا فقد عمل كاريكاتيريًا ، وكل من يشوه وجهًا فهو عمل كاريكاتيريًا ، وكل من يعبئ المكان بكلام كالبالونات فالناس تظنه رسام كاريكاتير ، وهذا على غير الحقيقة ، لقد كثر الرسامون في هذا المجال مثل شجيرات الأرز التي لا « تُشتَل » فتخرج كلها ضعيفة مع ازدحامها .

وهذا الفن يستخدم الآن في الصحافة كنوع من التجميل والزخرفة لا كقضية ، وقد سمعت إحدى الممثلات الراقصات في برنامج إذاعي تقول حين سألوها عن محتويات مكتبتها : إن بها ثلاثة آلاف كتاب .

وسألوها : أتقرأينها ؟!

قالت : لا ، إن مصمم الديكور لشقتي قال لي : اعملي مكتبة هنا لتجميل الشقة فعملتها !!

والكاريكاتير الآن مثل مكتبة هذه الراقصة في شقتها : مجرد ديكور !!

وقضية الكاريكاتير أصبحت قضية « دقي يا مزيكة » لا تعرف نغمة العود من الفلوت من الناي ، كله ضائع ، وزائغ ، وذائب ، و« مولد » !! شأنه شأن الأغنية « الهبابية » التي تنضح علينا هذه الأيام !!

(فاجر ... فاسق !!)

أسرتك والكاريكاتير ، ماذا عن العلاقة المتبادلة بينهما ؟!

أول من يرى رسوماتي هم أسرتي ، وإذا رسمت فكرة أقدمها لأول من أراه أمامي ، وإذا وردت إليَّ فكرة الآن سأرسمها وأعرضها عليك لأرى صداها وقد تأثر بي ابني الأصغر أحمد وبدت موهبته في الرسم .

قلت : إن والدك كان شيخًا أزهريًا ، هل ثبطك في بداية حياتك الفنية ؟!!

– نعم عارضني حقًا ، وكان يأمرني أن « أخرم » لوحاتي الزيتية من الشمال ، ليكون هناك فصل بينها وبين التمثال ، وهو حرام ، وقد حلق لي شعري عدة مرات ، وكان ذلك حين عرف أنني التحقت بكلية الفنون الجميلة ، بعد تحويلي من كلية الحقوق إليها ، وكنت قد قضيت فيها عامًا واحدًا ، وكشف تحويلي منها الشيخ أبو زهرة بعد أن نبَّه أبي إلى ذلك ، واعتبرني أبي فاجرًا فاسقًا ، وكانوا يظنون هذا العمل بلا مستقبل .

كلية الفنون الجميلة أصبحت الآن تخرج مدرسين لا فنانين لماذا ؟!

– الفنان عنوان البلد ، وكان الشاعر قديمًا عنوان قبيلته ومضرب المثل فيها ، والرسام المتخرج في الفنون الجميلة هذه الأيام قاده إليها « المجموع » في الثانوية العامة لا الموهبة ، وهناك فنانون لا علاقة لهم بالدراسة الأكاديمية ، ولكنهم قد يكونون يومًا ما عظماء كبيكاسو ورفائيل وسيزان ، هؤلاء لم يدرسوا في كلية ، إنما تعلموا في « ورش » فنية .

فيا حبذا لو أخرجوا كليات الفنون الجميلة من تحت وطأة وزارة التعليم وألحقوها بوزارة الثقافة ، ويدخلها الموهبون منذ المدرسة الابتدائية حتى الثانوية ، كلٌّ في مجاله : الشعر ، المسرح ، الرواية ، الفن التشكيلي ، الإخراج السينمائي ، الموسيقى .

أخطر كاريكاتير رأيته متى ولمن ؟!

– ما زلت أذكر رسمًا أعتبره أخطر كاريكاتير في وقته ، وهو خفيف على قلبي :

كان لصلاح جاهين ، يصور فيه دواوين الحكومة والفساد المستشري فيها .

فرسم مواطنًا « غلبانًا » ويحمل « عرضحال دمغة » وفوقه كوب شاي ، ويقدمه للموظف المسؤول قائلًا : « أديني جبت لك الطلب على عرضحال دمغة ، أما أشوف إيه بقة المطلوب تاني » !!

فأنت لا تقضي حاجتك وحقوقك إلا على « عرضحال دمغة » حتى لو كنت تدفن ميتًا .

◆◆◆

عبد العزيز « تاج »

- انتقلت من صفحة القراء إلى رسم غلاف « سمير » !!
- أرفض أن يعمل ابني .. رسام كاريكاتير !!
- يجب أن تكون درجة حرارتي ثمانين درجة مئوية !!
- مهنة صعبة تعتمد على الخلفية الثقافية الواسعة .



إذا كان الجو ساخنًا بالهموم فضع « تاجًا » على رأسك . أو اجلس لحظات سوف تضحك بغير تنكيت ولا سخرية ، وسوف تصفو نفسك من صفاء طبيعته وتبسطه في الحديث فلا منع ولا قطع ولا حرج لديه إذا سألته أو سألك .

ما زال الفنان عبد العزيز تاج يحمل من الريف جل ملامحه ، الصدق والود والبساطة والطيبة حتى لكأنك نشأت على صداقته وتربى على صداقتك .

أما هذه القبعة التي يلبسها فلست « أفتن عليه » وأقول إنه يداري بها صلعته !! فإذا كانت هي قد سترته فكيف « أفضحه » أنا ؟!!

قلت لتاج :

المدخل الطبيعي لخوض مجال الكاريكاتير هو دراسة الفنون الجميلة والانطلاق منها أكان هذا هو بدء علاقتك بفن الكاريكاتير ؟؟

قال :

– منذ المدرسة الإعدادية أحببت الرسم ، وكنت الأول على محافظة كفر الشيخ وإحساسي بأنني الأول على آلاف التلاميذ دفعني لتتبع كل الرسومات بالصحف، فبدأت الإطلاع على الرسومات بمجلة الاثنين والدنيا التي كانت تصدر عن دار الهلال، ولفت نظري رسام فرنسي اسمه برني، فحرصت على شرائها دائمًا لأجل هذا الرسام والعفاريت التي يرسمها !!

كانت تعجبني فيها الحركة والرأي لا كالرسوم التوضيحية التي أرى فيها الجمود وأخذت في تقليد برني ونقل رسمه .

على الحائط

هل تلقيت تشجيعًا دائمًا من أسرتك وممن حولك من المجتمع الصغير ؟!!

- نعم ، وكنت أرسم من حولي من خلال صورهم الفوتوغرافية بتشابه كبير معهم لكني اكتشفت أنني حينما أرسم هذا لا أقول رأيي، وكان لابد أن أقوله ولا يوفر لي هذا إلا فن الكاريكاتير .

وكان التشجيع من الأسرة دائمًا إلا في أيام الدراسة فقد كانوا يقفون ضدي وكان ذلك في أواخر الخمسينيات ، وكان أبي يشتري لي علب الألوان والأوراق وحجرتي كلها مكتظة بالرسومات مما يحدث ارتباكًا في شكل البيت ، ولم أكن قد عرفت بعد كيفية تنسيق المكان فأي رسمة كنت أرسمها حسنة أم سيئة ألصقها على الحائط .

بعد ذلك بدأت أنتقي لوحاتي وأتخير منها ما يمكن أن يوضع على الحائط فيعطي تأثيرًا نفسيًا مريحًا لمن يراه .

أول عمل نشر لك ، كيف كان وقعه على نفوس أسرتك ؟

- حدث هذا في مجلة سمير التي أرسلت إليها وقلت لمحررها أنا عبد العزيز تاج من دسوق وهذه رسوماتي فما رأيكم ؟!! وردَّ عليَّ بقوله : لقد أعجبنا رسمك فواظب على الرسم حتى تصبح رسامًا كبيرًا ، وكان ذلك العدد صادرًا يوم عيد قرأت الرد فاشتريت عشر نسخ وجريت إلى المنزل فأخذت والدتي يرحمها الله المجلة وقبلتها .

ومن يومها قررت أن أرسم للصحافة بعد أن رأيت حروف اسمي مطبوعة لأول مرة .

وقد شاء القدر بعد ذلك أن أعمل بمجلة سمير هذه وأصبحت رسامها لمدة ست سنوات ، وكنت سعيدًا لأن أنتقل من صفحة القراء والهواة إلى رسم أغلفتها .

الدواء المر

من دفعك للأمام في بداياتك من الفنانين الموجودين حينذاك ؟

ساعدني أولًا الفنان الكبير المرحوم حسن فؤاد وناجي كامل رسام الأهرام أثناء دراستي في الفنون الجميلة التي التحقت بها بقسم الجرافيك، وهو يخرج رسامًا صحفيًا فدرست الرسم الصحفي على أصوله لمدة خمس سنوات بالكلية.

كيف يمكن للكاريكاتير أن ينتمي للفنون الجميلة وهو يعتني بإظهار القبح أكثر من الجمال ؟!!

- من قال أن الكاريكاتير يظهر القبح ؟! إنه يظهر مواطن الضعف في الإنسان لكي يتقيها فيكون جميلًا، فالجمال هو الهدف وحين أرسم السيدة المهملة في نفسها وبيتها وسكان شارع لا يهتمون بنظافته فأنا أظهرهم بشكل قبيح، لأدفعهم إلى اتقاء القبح والتعرف على الجمال والعناية به ، فانتقادنا هنا لصالح الإنسان وليس ضده، وليس كل الكاريكاتير قبحًا فعلًا هو به تضخيم لبعض الملامح البشرية لإظهار جمالها ورغم أننا ننظر إليه كالدواء المر الذي نتألم منه لكنه يشفي مرضًا ، فهو شيء جميل في هذه الحالة .

بصمة

أين موقعك من فناني الكاريكاتير ، من يسبقك ومن يتلوك ؟!

- نحن في هذا المجال أجيال : جيل العمالقة مثل : رخا وعبد السميع وطوغان وزهدي ، ثم جيل ناجي وحجازي وبهجت وجورج واللباد ومصطفى حسين وحاكم والأخيران في الصورة الآن ولهما تأثير في رسامي الكاريكاتير والقارئ، ونحن الجيل الثالث جمعة ورؤوف وأنا ومحسن وفي الكاريكاتير في رأيي ثلاثة فقط من ناحية التأثير أكبرهم مصطفى حسين وحسن حاكم وبهجت ونحن الذين نتلوهم مباشرة ونكمل مسيرتهم وعددنا بصفة عامة صغير نعد على أصابع اليد الواحدة .

أهناك أزمة في رسامي الكاريكاتير ؟!!

- طبعًا ، أزمة كبيرة والسبب أنها مهنة صعبة جدًا لأنها تعتمد على الفكرة قبل

اعتمادها على الخط، فالمفروض أن الرسام يملك أسلوبًا مميزًا إذا لم يوقع تشير خطوطه إليه مثل نبرة الصوت في مجال الطرب، فنحن نتعرف على أصوات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حين إذاعتها بغير إشارة المذيع .

ولأجل أن يصل الرسام إلى هذا فهو في حاجة إلى ثقافة خاصة وعالية غير أي فنان تشكيلي آخر عليه أن يفهم في الذرة والسياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد لأنه يخاطب كل الناس في جميع أرجاء الأرض .

بمناسبة عملك في السعودية عدة سنوات ما هو تقييمك للكاريكاتير في منطقة الخليج الكويت والسعودية والإمارات وقطر والبحرين ؟؟

– الكاريكاتير هناك متقدم وهناك رسامون سعوديون على مستوى عال ومتجددون باستمرار، ويعجبني فنانون لبنانيون وسوريون وفنان ليبي أعتبره أحسن رسامي العالم في هذا المجال اسمه الزواوي وهو صديق شخصي، تعرفت عليه في إحدى زياراتي لليبيا رأيت عمله، وسعدت كثيرًا أن في وطننا العربي فنانًا كبيرًا مثل الزواوي .

لو كان ابنك أو ابنتك دارسة في كلية الطب ورغبت في ترك مهنة الطب واتجهت إلى فن الكاريكاتير فماذا تقول لها أو له ؟

– أقول : بلاش يا ابني لأنها مهنة صعبة وشاقة إلى أبعد الحدود ، القارئ يطلع على النكتة أو الفكرة في ثانية ولا يعرف أن وراءها يومًا كاملًا لاصطيادها وتوصيلها بهذه الخطوط، والأسلوب، وهو ما يستغرق حوالي خمس أو ست سنوات لكي يستقر الفنان على سمة محددة له يمكن أن يقال عنها : أسلوب مميز لهذا الفنان .

والصحافة لا ترحم فإذا كان لي مكان ثابت في جريدة يومية، فليس من حقي أن أمرض أو أسافر ، ويجب أن تكون درجة حرارتي ثمانين درجة مئوية وعملي شيء جيد وجديد .

مليونير واحد

أهذا هو المبرر الوحيد أم أن هناك مبررات اجتماعية أخرى لمنع ابنك من ممارسة مهنتك ؟

- هذا هو المبرر الوحيد .

ومن ناحية المكسب المادي ؟!!

- هو مجزٍ إلى حد كبير ؛ لأن عددنا قليل والصحافة تحتاجنا بشكل دائم .

أيمكن أن يكون مليونيرًا من دخل الكاريكاتير ؟!

- في أوروبا يمكن لكنني لا أظن في الشرق الأوسط .

ألا يوجد مليونيرات فعلًا في هذه المهنة ؟!!

- بصراحة هناك مليونيرات فعلًا .

من هم ؟!!

- واحد فقط .

أنت ؟!!

- لا طبعًا ، ولا أستطيع أن أقول اسمه .

الزواج نعمة ونقمة ، ماذا عنه في حياتك ؟!

- زوجتي أعرض عليها أفكاري مجتمعة فما تعطيني فيها عشرة على عشرة أنفذها وما تعطيني فيها ٩ من عشرة لا أنفذها ، فيجب أن آخذ رأيها لأنها واحدة من القراء .

المرتزقة

في كثير من المجالات مجموعات من المرتزقة والأدعياء أيوجد مثل هؤلاء في مجال الكاريكاتير ؟

نعم كأي مجال آخر قد تجد من لا يعرف الرسم لكنه يستخدم أساليب النقد اللاذع أكثر مما يجب، فيقدم أفيهات، ويتصور أن هذا نجاح، لكن الكاريكاتير فن راق فهو يدخل البيوت بدون استئذان ، فلا أستطيع أن أضع لفظًا يسيء إلى طفل يقرؤه ، يجب انتقاء اللفظ للتعبير عن الفكرة .

كيف تتعاملون مع هؤلاء ؟

- بالتجاهل التام ، وهم يحسون بهذا وعددهم قليل جدًا واحد أو اثنان .

كم ـ تقريبًا ـ عدد رسامي الكاريكاتير الذين تعترف بهم في مصر ؟

- الذين أعترف بهم لا يزيدون على ستة .

من هم ؟

- حسن حاكم ، ومصطفى حسين ، وبهجت ، وحجازي ، وناجي .

هؤلاء خمسة ، وأنت السادس ؟

- قبلي كثيرون .

لو قلت لك اطرد واحدًا من ملعب الكاريكاتير فمن يكون ؟

- لا أستطيع أن أطرد واحدًا فكل له أسلوبه وطريقته ، مثل أنواع الطعام تمامًا لدينا الفجل والتفاح .

أنت الآن تخوض تجربة جديدة بتقديم الكاريكاتير في التلفزيون ، فما هي السمات المحددة التي يتسم بها الكاريكاتير على الشاشة الصغيرة وتختلف عنه في الصحف ؟

- في التلفزيون لا أكتب له تعليقًا ، لكي يفهمه كل المشاهدين ـ وبعضهم أمي ـ ولكي تصل الفكرة بسرعة ، أما الجريدة فمن يشتريها مثقف أو قارئ .

ماذا تختار من الاثنين : التلفزيون أم الصحافة ؟

- التليفزيون فتأثيره أكبر وواسع .

زهدي شيخ الكاريكاتير

- أنا من بلد العبط الذين « عزموا » القطار ..
- احترفت هذا الفن مضطرًا !!
- الكاريكاتير انحط ، عن بداية نشأته !!
- حزب « السبعة ونص » له الفضل !!



في الموعد المضروب بيني وبين الفنان زهدي طرقت بابه ففتح لي شيخ أسمر نحيف قامته أميل إلى القصر ، يرتدي « بيجامة » رمادية باهتة فتبدو كأنها عديمة اللون ، ومن فتحتها العلوية تطل « الفانلة » وياقتها مثنية ، ويلبس الشيخ « شبشبًا » مقطوع الفردة اليسرى .

قلت له ـ بعد أن فتح الباب : الأستاذ زهدي موجود ؟ قال : نعم ، ولم يدعني للدخول ، فدعوت نفسي ودخلت مقتحمًا إياه ، وأنا أقول له : عرف الأستاذ زهدي بوصولي ، ثم جلست . فأقبل إليَّ هذا الرجل وقال : أتشرب شايًا أم قهوة ؟ قلت له : قهوة زيادة !! فأحضرها لي واضعًا كوب القهوة فارغًا والقهوة في الكنكة ، فانتظرت أن يصب القهوة متسائلًا في نفسي : يا له من « شغال » غريب لماذا لم يصب لي القهوة ؟ ولكنه بعد برهة أدرك انتظاري فصبها لي ، وشربت ، وعدت أسأله وقد جلس إلى جواري : أين الأستاذ زهدي أنائم هو أو خرج ؟؟ فرد بصوت خفيض هامسًا : أنا الأستاذ زهدي !!

حينها أغرقني الخجل في عرق ، وجف حلقي وتلعثمت وغمغمت بمزيج من الأحرف المتقطعة والاعتذارات ، ثم صمت ، وقلت له : هل يمكن أن نبدأ حوارنا ؟ فاستمهلني حتى أشرب القهوة فظننته سوف يرفض الحديث .

لكن زهدي الفنان الكبير الذي خرجت عدة أجيال من عباءته ، والذي ارتبط الكاريكاتير وتاريخه باسمه امتص خجلي وظل منبسطًا سهلًا ، فسألته :

الفنان زهدي مدرسة كاريكاتير ، من أسسها ومن تلاميذها ؟

- ليس « عندي » مدرسة ، وأنا في الأصل نحات ، واضطررت أثناء الدراسة بالفنون الجميلة أن أحترف وأتكسب من الكاريكاتير ، وبعد التخرج رأيت أن النحت لا يصل إلى الناس ، ولكي يصل النحات للناس لابد له من « عزوة »

لتساعده في إقامة تماثيل بالميادين والشوارع وليس لي عزوة ، فكان الطبيعي أن ألجأ إلى الكاريكاتير للاستمرار في الحياة .

ومن ناحية « التكنيك » لا أستطيع أن أدعي أني مدرسة ، لأن كلمة مدرسة هذه فيها تجميد ، وإذا ثبت الفنان على أسلوب معين سيظل على هذا الأسلوب ، المدرسة تكون حين توجد نظرية تستقر ، ولها دارسون من داخلها يفكرون ويطورونها .

أما مجرد أن يرسم الفنان رسومًا تتميز عن غيره بطريقتها الخاصة فهذه مزايدة إذا سميتها مدرسة .

(أحسن ناس !!)

وفيما يتعلق برسم الكاريكاتير ، حتى الآن لا توجد له أية دراسات نظرية أو قواعد تجعل الكاريكاتير يمكن أن يدرس، ويوضع له مقياس من المقاييس ، أما ما نفعله الآن حين نقيم العمل فنحن نأخذ بالمقاييس الفنية والأدبية العادية ، الجماليات والتناسب ثم نستخدمها ، أما الكاريكاتير نفسه فلابد أن يكون له إضافة أخرى خاصة به غير موجودة بغيره ، ومن هنا لا نستطيع أن نقول : إن هذا الرسم كاريكاتير وذاك ليس كاريكاتيرًا ، فهو في مصر حتى الآن مجرد اجتهاد ذاتي ، وأظن كذلك في الدول الأجنبية فحين سافرت أوربا سألت عن دراسات حول الكاريكاتير فقالوا : إنها جميعًا « اجتهادات » من فنانين ولم ينظر له حتى الآن ، إلى أن يأتي من يملكون القدرة على التنظير ، وأدعو أهل النقد والعلم ومن لهم باع طويل في النقد الأدبي والفني أن يبدؤوا في مناقشة احتياجات الكاريكاتير وأسسه النظرية التي يمكن أن تجعله مادة علمية تدرس بناء عليها .

لماذا لا تحاول أن تفعل هذا بنفسك وأنت لست مبدعًا فقط بل أنت مؤرخ أيضًا لهذا الفن ؟!

- لا أريد أن أتعدى الحدود التي أستطيعها !! فعلم الجمال مثلًا ـ وهو بحر ـ ألمس منه جزءًا ولا أظنه كافيًا لأن أنقد، ثم إن المكسب الحقيقي ليس في وضع النظرية فقط، بل أن يوجد من يهتم من رجال العلم والمقدرة على النقد من يقول هذا حسن وهذا قبيح.

فلو سألت الآن رسامًا: الكاريكاتير لدينا متقدم أم متخلف ؟! سيعجز عن الإجابة، وإذا أجاب بتقدمه فهذه الإجابة امتداد لفلسفة كنا نعيش عليها أيام الاحتلال بأن نرفع من روحنا المعنوية ونقول: إننا أحسن ناس.

ولو نظرنا اليوم إلى الكاريكاتير من ناحية المساحة نراها أقل مما بدأ سنة ١٩٢١، ومن ناحية التنوع يكاد يكون منحصرًا في مسائل خاصة بالخدمات والحياة اليومية ومعاناة الشارع، أما فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية فيكاد يكون غائبًا تمامًا، وحتى في الجانب السياسي نفسه أصبح مهترئًا وضعيفًا؛ لأنه من قبل كان مجاريًا لمعركتنا التي نعيشها، وكانت هناك صراعات بين آراء واتجاهات وسخونة كبيرة بناء على هذا، أما نحن الآن فكأننا إنسان وقع في « بركة » « كعبلت » رجليه فلا يستطيع الخطو، بالإضافة إلى أن كثيرًا من رؤساء تحرير الصحف لا يعرفون شيئًا عن الكاريكاتير سوى أنه « مضحك » وهذا غير صحيح.

لأنه ليس مضحكًا فقط، فإذا كان الوعي بدور هذا الفن وطبيعته غير معروف لديهم، فكيف يقدمونه ؟! فحين يقدم رئيس التحرير على غلاف مجلته المقروءة رسمًا كله نفاق، ومن ناحية الفن سيء جدًا، ولو « عيل » يرسم يتفوق عليه، فلا ألوان جميلة، ولا توضيف، ولا فكرة، ألا يحق لنا حينها أن نحكم على الكاريكاتير بأنه انحط ؟!

في مصر كانت فترة الكاريكاتير المزدهرة حين ظهرت مجلة « صباح الخير » عام

١٩٥٦ كانت قمة ، والنجاحات الموجودة حاليًا جزء من إنتاج هذه المجلة ، وكان من قبل كتيبة من المفكرين والمثقفين : أحمد بهاء الدين ، كامل زهيري ، حسن فؤاد ، صلاح عبد الصبور ، فتحي غانم ، صالح مرسي ، كانت كل هذه العقول متوفرة لهذا العمل ، وكنا نستطيع أن نقول : إن لدينا كاريكاتيرًا فعلًا ، ثم رحل حسن فؤاد ومرض بهاء .

(الكاريكاتير ... على تفاهم !!)

إذا لم يكن الدور الأول للكاريكاتير هو الإضحاك فماذا تراه يكون ؟!

- في أثناء الحرب العالمية الثانية كان هتلر يهدد الجزر البريطانية ، وقال تشرشل : لم يبق أمامنا إلا الدماء والدموع ، في ذلك الوقت لعب الكاريكاتير دورًا ، بدأ يعبئ القوة لمقاومة الغزو المنتظر ، وقد رسم أحد الفنانين النيوزيلنديين رسمين أحدهما لعجوز متهالك وعلى ظهره منجل وفي يديه ساعة رملية : يمثل الزمن ويجري إلى جوار هتلر الذي يسابقه ومكتوب تحته : الصراع المصيري بين هتلر والزمن ، أي إذا تأخر هتلر يومًا واحدًا في غزو الجزر البريطانية فقد خسر أي أن المعركة هي كيفية تعويقه .

الرسم الثاني لجندي بريطاني واقف على صخرة وسط بحر هائج ومن بعيد ينظر إلى السماء ليلًا وفي الأفق أشباح لطائرات الغزو ، والجندي يمسك البندقية ويلوح للسماء الملبدة بالغيوم بالأخرى ويقول : « فليكن وحدي » ، ذلك بعد سقوط فرنسا ، فالرسم الأول استحضر الناس وحفزهم للمقاومة وبالثاني ، يتحدى رغم انفراده وهذا رفع الروح المعنوية للحلفاء فهل في هذا الرسم إضحاك ؟!

وعندنا في مصر حين هجم الإنجليز والفرنسيون على بورسعيد ١٩٥٦ أرسلنا بطاقات صغيرة مرسومًا عليها كاريكاتير وبها كتابات تهدد الجنود وتطالبهم بالعودة

لبلادهم وألصقناها على الحوائط ، وفي معاقل الجنود الغازين أنفسهم وحتى على الدبابات الواقفة فكانوا في كل مكان ينظرون فيه ولم يبق إلا أن نلصقها على قفاهم !!

أريد أن أقول إن الإضحاك ليس هدفًا للكاريكاتير بل هو وسيلة له ، ولابد أن تكون هذه الوسيلة متوافرة وإلا فهو كالمقالة الصحفية والمسرحية التراجيدية والقصيدة والتمثال ، فالضحك هو الوسيلة التي يمتاز بها إذا كان لابد من أن يمتاز على غيره من الفنون الأخرى بعنصر مهم .

أنا لا أنفي عنه الضحك ، بل أقول ليس بالضحك وحده يكون الكاريكاتير ، إنما هو يعمل على إثارة مشاعر وأحاسيس أخرى مع الضحك ، قد يكون أكثرها ، لكن هناك غيره ، كما أن للضحك أنواعًا ، وهناك ضحك السخرية ، وهذا متكأ الكاريكاتير .

(أبو نضارة والكشكول)

هناك سؤال ربما نعود به عشرات السنين إلى الخلف : كيف كانت الإرهاصات الأولى لفن الكاريكاتير في مصر ، مع من ؟ ومتى ؟ وكيف بدأت ؟

- البداية - وأظنك تقصد الكاريكاتير المرسوم - في عهد الخديوي توفيق وبعد نكسة عرابي كان جمال الدين الأفغاني بمصر ، ومعه الشيخ محمد عبده والتقيا مع يعقوب صنوع اللبناني المتمصر - ويلاحظ بهذه المناسبة أن أهل الشام عندما يرتبطون بمصر يكونون أشد مصرية من المصريين أنفسهم - هؤلاء الثلاثة قرروا أن يصدروا مجلة ، ولم يكونوا قد أطلقوا عليها اسمًا بعد ، وأثناء مسيرهم ليلًا وجدوا « المكاري » أي الذي يؤجر الحمير للركوب حينذاك - وجدوه ينادي على يعقوب صنوع : « تعال يا أبو نضارة » فأسموها « أبو نضارة » ، كانت هذه بداية الكاريكاتير ليس كرسم فقط ، بل في الأدب أيضًا كاريكاتير ، لأنها كانت تحرر

بأسلوب كاريكاتيري .

ولأن « أبو نضارة » هذه ظهرت كطليعة صحفية فكل المجلات التي تلتها جاء فيها روح الكاريكاتير : في الاسم ، في الموضوعات ، في الشعار .

يمكن أن تندرج هذه المجلة تحت عنوان « الأدب » الساخر وليس الكاريكاتير !!

- سمها ما شئت ، المهم أن الأمور كانت متعثرة أمام هذه المجلة ، ولم يكن لدينا «زنكوغراف » .

أكانت بها رسومات كاريكاتير ؟

- بدأ فيها فعلًا لكنه كان يحفر في إيطاليا في شكل « كلاشيه » ويعود إليها بمصر ، حتى وقوع الحرب العالمية الأولى وأحضرت إنجلترا مطابع في مصر فاستخدمت .

وبعد ثورة ١٩ أي في عام ٢١ ظهرت أول مجلة كاريكاتير منتظمة أسبوعيًا وهي « الكشكول » وبعدها بثلاث سنوات ظهرت مجلة « خيال الظل » ، هاتان هما المجلتان اللتان تعتبران بداية الكاريكاتير الحديث في مصر .

أكانت الأسماء التي تعمل بهذه المجلات معروفة ؟

- كان سليمان فوزي صاحب الكشكول ورئيس تحريرها ، وكان يمثل اتجاه الأحزاب المنشقة على الوفد وأهمها الأحرار الدستوريون ، وحزب « السبعة ونص » وكان يضم مجموعة من سبعة أشخاص وشخص قصير .

أكان واحدًا أم واحدة ؟!

- كان رجلًا ، وكان هدف الكشكول هذه الحد من شعبية سعد زغلول وانضم لها عبد الخالق ثروت وعبد العزيز فهمي .

كان يرسم الكشكول أستاذ حفر كبير في مدرسة الفنون الجميلة التي أقامها

الأمير يوسف كمال ، كان هذا الرسام اسمه « جوان سانتوس » من أصل أسباني وأسلم ، وقد ظهر الكاريكاتير في العالم كله من سكة الحفر « الجرافيك » .

أما « خيال الظل » فقد بدأت برسام « تعبان » اسمه « جي رومانوس » من إحدى دول البلقان ، ولم يكن أحد يعرف عن شخصيته أي شيء غير أنه رسام ضعيف أعماله كرسوم الأطفال والموالد ، وجاء بعده رسام مجيد كان مهندسًا وضابطًا بالجيش التركي وهاجر إلى مصر بعد سقوط الخلافة العثمانية واسمه « علي رفقي » فأبدع رسومًا عظيمة لدرجة أن رخا كان يقول : ظللت أعبد رسوم سانتوس ، وبعد أن رأيت أعمال رفقي تراجعت عن ذلك الموقف !!

وبعد هؤلاء جاء صاروخان في الكشكول أولًا بعد أن حصل سانتوس على أجازة فبحثوا عن رسام فوجدوا أرمينيًا في معمل حفر كان هو صاروخان .

(قافلة الكلاب !!)

أتتذكر بعض النماذج لكاريكاتير ذلك الزمان ؟

- كانت تحدث معارك بين الكشكول وخيال الظل ، والموضوع غالبًا رسم واحد ، فالخيال مثلًا يرسم سعد زغلول على رأس قافلة من الجمال وزعماء المعارضة له كلاب على الرصيف تنبح ، والتعليق تحته : الكلاب تنبح والقافلة تسير ، فيرسم الكشكول نفي الرسم مع وضع الكلاب على الجمال وسعد زغلول على الأرض !!

وقد كان سعد زغلول كل خميس حريصًا على أن يراها أول استيقاظه صباحًا قبل الإفطار ، ليعرف كيف يسخرون منه ، فكان القادة من قبل يتعاملون مع الكاريكاتير تعاملًا صحيًا وبروح رياضية، أما الموجودون الآن ـ لإحساسهم بالنقص في ذواتهم ـ فلا يحتملون انتقادهم والسخرية منهم .

وماذا عن بداياتك الأولى في هذا الطريق ؟

- بدأت بأحداث كوبري عباس عام ١٩٣٥ ، وكنت واقفًا بجوار الكوبري الذي استشهد فيه كثيرون من الوطنيين ورسمت هذا الحدث في ذاكرتي ثم نقلته على ورق ، وأتيحت لي بعد ذلك فرصة الالتحاق بمجلة جديدة أصدرها محمد علي غريب سنة ١٩٣٦ واسمها « غريب » ، رسمت فيها صور الشهداء وغيرها بعد ذلك .

أكانت هذه أول رسمة في حياتك ؟

- لا ، رسمت من قبلها ولكن بغير انتظام ، أما هذه فكنت أحصل فيها على مرتب جنيهين في الشهر .

أتتذكر أول رسم في حياتك ، أيام الطفولة ؟

- أثناء دراستي الثانوية كنت أرسم رسوم الطلبة ، وقبل ذلك علمني أبي ـ وكان يعمل مصورًا ـ كيف أكبر صورة بالمربعات ، وأول صورة كبرتها بهذا النظام كانت لنابليون والثانية للأمير عباس حليم ـ شبيه نابليون ـ ولكني كنت مغرمًا بالنظر إلى هذا الفن من خلال مطبوعات أبي وأنا في اندهاش من بساطة هذه الرسومات التي تعطي نفس انطباع الصور الفوتوغرافية .

ما هي أبرز الرسومات التي قدمتها في السنوات الخمس الأولى من احترافك ؟

- أبرزها أنني شققت طريقة جديدة للرسم ـ أقلعت عنها فيما بعد ـ هي رسم البورتريهات بطريقة المكعبات بدلًا من الاستدارة .

وكانت تصدر حينذاك مجلة اسمها « المطرقة » رأت هذه الرسومات فأعجبت رئيس تحريرها فاتفق معي على نشر الرسمة التي تعجبه بخمسين قرشًا ، كان ذلك عام ١٩٣٦ .

وحين قدمت نماذج من هذه الرسومات إلى محمد التابعي ، « آخر ساعة » أعادها

إليَّ في ظرف مع خمسين قرشًا .

وأخذتها ؟!

– طبعًا ، أنا لم أره هو ، أرسلتها مع ساع وعادت إليَّ مع ساع أيضًا ، بعد ذلك انشغلت بمجلة الشعلة عام ١٩٣٧ وهي مجلة وفدية .

بكم سنة سبقك رخا إلى هذا الفن ؟

– هو يرسم منذ عام ١٩٢٦ كمحترف أما احترافي الحقيقي أنا فكان في دار الهلال حوالي ١٩٣٦ .

الخطوط التي بدأت بها وخاصة في سنواتك العشر الأولى ما زلت تحتفظ بها حتى الآن ؟

– الإنسان يتغير كل يوم ، الشيء الذي يحتفظ به هو روح العمل نفسه ، والطابع العام ، وهو في هذا شأن المجتمع نفسه الذي يتطور .

أفضل مني !!

الكاريكاتير في مصر بدون الفنان زهدي ، ماذا يكون ؟

– « يبقى كويس قوي » ، هذا سؤال يدفع للحرج ، ولا أحب أن أتحدث عن نفسي ، ولا أريد أن أتهم بأنني مقهور ، يمكن أن أتحدث عن موضوع محدد ليس عن نفسي .

بصفتك مؤرخًا أيضًا لفن الكاريكاتير ولست مبدعًا فقط ، في تاريخ هذا الفن محطات وعلامات ، ما هي أبرزها ؟

– القول بأنني مبدع ، هناك من هو أفضل مني إبداعًا .

مثل من ؟

– حجازي ، رسام لا يشق له غبار ليس في جودة الرسم فقط ، بل في تجميع الفكرة

خفيفة الظل ، المقبولة ، المشوقة وبهجت نفس المستوى ، أما من ناحيتي فلست أملك هذا أنا أقل هذه المجموعة من ناحية « التكنيك » وأعرف هذا جيدًا لأن أصلي نحات .

الفكرة لدي يمكن فعلًا أن أتفوق فيها ، والتأريخ حقًا تقدمت فيه لفراغي له ، وقد أتيحت لي الفرصة لأعرف ، وكان لدي منذ بداية علاقتي بالكاريكاتير اهتمام بتجميع أكبر قدر من المعلومات عنه في العالم ، ولدي مكتبة كبيرة وأطمع في العثور على إنسان جريء يريد أن يقدم خدمة عظيمة للثقافة بإنشاء مكتبة للكاريكاتير ، وهي تحتاج لرجل متمكن ماليًا لتوفير مقر وأجهزة ، أما تحصيل الرسوم نفسها وترتيبها وتبويبها فلدي أكثر من حل .

يمكن عرض هذه الفكرة على وزير الثقافة .

- لا أريد الدولة ، أريد مواطنًا يتطوع لها ، وهناك من يحب النكتة ويبحث عنها ، وكمشروع مثمر يمكن أن تعود من ورائه فائدة مادية فيمكن من خلاله إنشاء دار نشر كاريكاتير .

هل أنت قاهري المنشأ ؟

- أنا من منيا القمح بمحافظة الشرقية ، والتي يسمونها « بلد العبط » فيقولون : الشراقوة عبط ، عزموا قطار السكة الحديد ، وباعوا الثور لأم قويق .

هل كتبت نكتًا في هذا الموضوع ؟

- إننا نتداولها مع بعضنا فقط ، فمن ضمن ميزات مصر منذ عهد الفراعنة أن الأقاليم « تتريق » على بعضها فيقولون مثلًا عن سكان مناطق الساحل : « مية مالحة ووشوش كالحة » ، وعن الدمنهوري : « ألف نوري ، ولا دمنهوري » ، وغيرها وهي مورثات في طبيعة الشعب المصري ، هو يحب التنكيت على نفسه .

كان الميلاد بمنيا القمح ، فأين كانت النشأة والتربية ؟

في الزقازيق حتى عام ١٩٣٣ حتى انتقلت إلى القاهرة .

ما هو عام مولدك ؟

١٩١٧م .

- ما دام والدك كان مصورًا فمن الطبيعي أن يكون للبيئة أثر كبير في تشجيعك لخوض هذا المجال ، أليس كذلك ؟!

- بالتأكيد ، كان يهمه أن أهتم بالرسم .

(تفكك أسري !!)

أسرتك الحالية : الأبناء والزوجة ، كيف يرونك كفنان ؟!

- مشكلات الحياة الراهنة تجعلهم لا ينظرون لهذا الموضوع أبدًا ، كانت والدتي رحمها الله ، هي التي تهتم بفني وتنظر لي بفخر ، وإخوتي أحيانًا قليلة يتحدثون معي في هذا المجال ويقولون : نحن نراك بالتلفزيون ، وبعض أقاربي لم يروني أبدًا .

وأسرتي الصغيرة هي زوجتي وأنا وابنتي المتزوجة فقط ، وزوجتي لا تسأل ولا تهتم بأعمالي هذه لأنها - كتربوية كبيرة - مشغولة بمسؤولياتها ، ونحن في منزلنا هنا لا نتحدث عن الفن بل المشاكل العادية التي تشغل الناس في وقت ما مثل زيادة أسعار التليفونات ، والكهرباء وهجمات الإرهاب .

فمن هو إذن أول من يرى عملك الإبداعي ؟!

- أرسم في استعجال ، وأذهب به إلى روز اليوسف وأول من أقابله دائمًا هو الحاجة سعاد رضا عضو مجلس الإدارة المنتدب ، وهي تفهم في الفكاهة والمرح وتدعو للفرح ، فأجرب رسمي فيها !!

هل تتذكر أشهر الرسومات التي قدمتها على مدى تاريخك ؟

رسومات غالبًا مرتبطة بالحادث ، أذكر مثلًا أن فترة ما قبل الكفاح المسلح في القناة ضد الإنجليز في حوالي عام ١٩٥٠ كان وزير الخارجية الوفدي محمد صلاح الدين عائدًا من إنجلترا بعد مفاوضات للجلاء مع وزير خارجيتها للجلاء .

فقال : إن الإنجليز يطلبون منا الصبر والتأني ، فرسمت فكرة كان صاحب الفضل فيها الشاعر مأمون الشناوي ، رسمت محمد صلاح الدين جالسًا على رصيف قصر الدوبارة مقر المندوب السامي الإنجليزي ، وهو ساند رأسه بيديه وأسنانه العليا بارزة تغطي شفته السفلى ، ورسمته وبرأسه جرح وحوله « طوب وحصى » ساقط في الأرض ويرمي عليه مواطن ، طوبة ، مكتوبًا عليها « طوبة لمن صبر » فسر هو نفسه منها وضحك كثيرًا .

وقد أصدرت مع الراحل صلاح حافظ كتابًا عند بداية الاحتلال الإنجليزي لمصر في أحد أعمالي به رسمت عربة نقل وعليها صندوق جلس عليه السائق « الحكومة » ووراءه صندوق آخر يجلس عليه « خواجه » أجنبي ، والسائق يشد لجام الحصان والأجنبي بدوره يضع لجامًا في فم الحكومة ويشد هو أيضًا فيسوق كل منهما غيره .

وحين أعدّوا لإصدار العدد الأول من صباح الخير طلبوا مني رسمًا دعائيًا له فرسمت شابًا يسير في الطريق ، وينظر إلى حسناء ويقول لها : صباح الخير ، وأمامه بلاعة ورجله على وشك السقوط فيها .

وفي العدد الثاني كنت أشاهد فيلمًا سينمائيًا ، وكان مجرد شعر وموسيقى لا تمثيل فيه ، ووراءنا جالس أحد المواطنين فلما لم يجد قبلات وأحداثًا ساخنة قال لصاحبه بجواره : « يللا بنا ، احنا مش صيع علشان نتفرج على الكلام ده » ، فاستفزني قوله ورسمته صاعدًا السلم حاملًا حذاءه في فمه ، ويقول لزوجته وهو عائد إليها في الفجر : صباح الخير ، وكان اسم هذه الشخصية سالم أفندي .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

